كثير من الوجع

رواية

يونس البوتكمانتي

دار مها

كثير من الوجع "رواية"

كثير من الوجع "رواية"
يونس البوتكمانتي
غلاف: هند وهدان
الطبعة الأولى: 2018م

ISBN : 9781999593742
الناشر:دار المها للطباعة والنشر وتوزيع الكتب والترجمة
الموقع الالكتروني: www.darmaha.com
البريد الالكتروني: info@darmaha.com
فيس بوك : darmahabooks

كثير من الوجع

رواية

يونس البوتكمانتي

فإن أسباب الوفاة كثيرة، من بينها وجع الحياة.

محمود درويش

إلى..

خالد ولد أحمد، بطل هذه الرواية.

إلى الأقمار الثلاثة..

رواية عزيز

في البرزخ: بين النوم والصحو.

"هذه أوراق ادريس، خذها، أنت أقرب الناس إليه، وإلا اشتراها البقال ليحرقها أو يغلف فيها الحمص."

ظلت هذه العبارة تتردد في لاوعيي قبل أن أستيقظ من نومي بقليل. كان، في الواقع، نوما يشوبه الكثير من التوتر والهذيان.

أما بعد:

على وقع نبرات صوت حسن الأسمر وأغنيته "الله يسامحك يا زمن"، التي تنبعث من الراديو الموجود بالمطبخ، استفقت هذا الصباح. كانت عقارب الساعة تميل نحو السابعة إلا ربعا. أسمع قرقعات نعال بديعة، ودندناتها، وهي تحاول غناء "الله يسامحك يا زمن." كان صوتها يصلني مبحوحا، وحزينا نوعا ما. استفقت بكسلي المعهود، كيف لا يكون كسولا شخص مثلي أمضى سنوات وشهورا في دهاليز العطالة والبطالة؟! ومازلْت. هل حضيت الآن بعمل يشرفني؟ ويحفظ بقائي وبقاء بديعة التي قبلت أن تخوض معي غمار حياتي هذه؟!

في الغالب، أقصد التلفاز قبل أن أغسل أو أستحم. كنت أشغله لأصادف نشرة أخبار ما، كيفما كانت. في الواقع، لم تكن الأخبار ولا البرامج التي تنقلها القنوات المغربية وغير المغربية، أحيانا، تروقني، ولم

تكن ترقى إلى المستوى الذي كنت أنتظره. لكنني اليوم تكاسلت أكثر، فبقيت ملقى على فراشي. البيت تعلوه سحابة حزن. بديعة أحزن مني بكثير. البيت يبدو مهجورا رغم أن زواجنا مضى عليه أكثر من سبع سنوات. لم نصل بعد إلى سماع بكاء طفل أو طفلين. لم يكتب النجاة بعد لمن يكسر صمت المكان، ويلطف برود الطقس. لم نصل بعد إلى ما يجعل لعلاقتنا معنى..!

بديعة حبِلت لحد الآن ثلاث مرات، وتوفي واحد منهم، وهو جنين، أما الاثنان الآخران فقد كُتب لهما أن يستنشقا هواء الدنيا، لكن سرعان ما سيلتحقان بأخيهما. أشفق عليها، وأشفق علي أيضا. كيف لا، وهي التي لا تقصر في فعل كل ما يرضيني، وما يحفظ علاقتنا! الآن، بديعة حبلى للمرة الرابعة. بالأمس أخبرتني أن الجنين في شهره الرابع، وأنه في صحة جيدة كما قالت ممرضة المستوصف الذي زارته قبل أيام. قلت آنذاك في سري: "قد يكون."

استطعت أن أتدحرج من على السرير لأنادي بديعة:

- نعم عزيز. أسمعك.

- قبل أن تحضري الفطور، أعدي إبريق شاي، وضعيه في الكاظمة؛ قد أضطر اليوم للبقاء في المكتبة طول اليوم.

- لا عليك. نم دقائق إضافية، ريثما أصنع الشاي، وأعد لك شطيرة بيض مسلوق وبطاطس مقلية.

لم أعد إلى فراشي؛ رجوعي قد يؤجل ذهابي إلى المكتبة ساعات. أشعلت التلفاز، واستمعت لما يتفوهون به من هراء!

- أنا هنا في الفناء. لن أعود للنوم. أعدّي الأمور على مهل. لا تتسرعي.

- ما الذي حدث حتى تبقى طول اليوم بالمكتبة؟ خيرا..!

- خيرا.. خيرا.. ستصلني مجموعة كتب مستعملة أخرى اليوم.

- ستصلك؟ من أين؟ ما عهدتك تشتري كتبا مستعملة خارج تطوان!

- لا لشيء، ثمة صديق قديم أخبرني قبل أيام أنه سيحصل على مجموعة كتب قديمة كانت لابن عمه الموظف، واقترح علي ابتياعها، فوافقت. هذا كل ما في الأمر.

- ستأتيك......

- ما سمعتك جيدا يا بديعة..

رفعتْ صوتها قليلا:

- قلت: هل ستأتيك في حافلة؟

- لا.. لا.. سيأتي بها صديق آخر في سيارة خاله. سيارة، صار الآن، يهرب بها السلع من سبتة.

- آه، جيد.. أتمنى أن تكون صفقة مربحة.

- نتمنى.. نتمنى..

استمرت بديعة في دندناتها، لكن هذه المرة مع أغنية "حبيبتي والمطر" لكاظم الساهر، أعني شعر نزار قباني. صرت مثلها أعيد كلمات الأغنيات. في الحقيقة، تهمني الأغنية أكثر. تهمني أكثر..

- بديعة، أعدي الفطور أولا.

- كما تشاء.

- سأستحم ريثما يكون ذلك جاهزا.

أبدو أحيانا مزاجيا إلى حد كبير. أتذبذب بين هذا الرأي وذاك. فقط صفقة شراء كتب الموظف المستعملة من الحسيمة؛ مدينتي التي لم أفارقها إلا اضطرارا، لم أتردد فيها، ولم أتزحزح قيد أنملة، رغم أنني سأشتري كتبا مستعملة خارج تطوان لأول مرة، ورغم أنني حديث عهد بهذه المهنة.

كنت، وبديعة أيضا، من قبل طالبا بثانوية إمزورن، أيام العز والشهامة. وكنت أعرفها مذ ذاك الوقت، ولا أظن أنكم لا تعرفون معنى أنني كنت أعرفها! حين حصلنا على الباكالوريا، يونيو 1992، التحقْت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز بفاس، وتسجلت بشعبة اللغة الإسبانية وآدابها، تماما كما أوصاني بذلك أستاذي بالثانوية، وكما أوصاني عمي عبد السلام الذي كانت تنقصه هذه الإسبانية، وتشكل له مركب نقص حين يقصد مليلية وسبتة، إما ليهرب السلع، أو ليقضي ليلة سكر وعربدة. كان عمي عبد السلام يكرر دائما تلك الكلمات الإسبانية التي يعرفها، مثل:

"amigo""muchos""gracias""mierda".. وقد كان يكتشف كل مرة أن معجم أمازيغية الريف يعج بمفردات اللغة الإسبانية. كان كل مرة يكتشف المزيد من الكلمات المستعملة في الريف، والتي تصلح للاستعمال الإسباني أيضا، وذلك من قبيل: "mesa""cobarde""cabeza""también".. حكى لي أنه كان أحيانا، خصوصا حين يأخذ منه الخمر كل مأخذ، يستعمل، في مخاطبته لشخص إسباني ما، كلمات ريفية يحسبها إسبانية أيضا، إلى أن يتفاجأ بعدم فهم المخاطَب لما يتفوه به!

تلبية لرغبات هذين الرجلين ولميولاتي أيضا، تخصصت في دراسة اللغة الإسبانية. وبقيتْ بديعة في إمزورن تلوك خيبة أملها بعدما رفض أبوها التحاقها بالجامعة، سواء بفاس، كما كانت تمني نفسها، التحاقا بي، وتلبية لرغبتها الملحة في دراسة الفلسفة. ورفض أيضا التحاقها بوجدة لتتخصص في التاريخ، شعبتها المفضلة الثانية. افترقت بنا الأيام عند منعطف ثانوية إمزورن، ولم تعد بيننا علاقة وطيدة كما كانت من قبل، عدا بعض الرسائل التي كنت أرسلها إليها مع صديقتها فوزية التي كانت هي الأخرى تقاسي الكثير لتقنع والديها للالتحاق بفاس، ودراسة الفلسفة. كان هذا في تسعينيات القرن الماضي، وبالضبط بدءا من خريف 1992.

أمضيت أربع سنوات بفاس. حكايات فاس حكايات لا نهاية لها، لو خضت في الحديث عنها لاحتجت إلى كتاب منفرد لها وحدها. أمضيت السنوات الأربع دراسة، وأتبعتها بأربع أخريات وأكثر متنقلا بين الحسيمة وإمزورن؛ أمتهن تجارة الخضر أو الملابس المستعملة أو الأسماك أو أي شيء آخر. وكنت كثيرا ما أعود، وأنا أجر أطنانا من خيبات الأمل التي كانت تُقعدني في إمزورن أياما أو شهورا دون فعل أي شيء.

كل هذا، وبديعة في البيت تتحسر على أيام الصبا الخوالي، وتعض على أيديها ندما على ما فاتها من فرصة متابعة الدراسة. مات أبوها متأثرا بجروح بليغة إثر حادثة سير راح ضحيتها أكثر من تسعة رجال بسبب تهور فتى سكران، وماتت أمها بسبب قصور كلوي حاد بعدما بقيت أياما ملقاة في المستشفى دون أي مهتم، وبقيتْ وحيدة بالبيت بعدما تزوجت أختاها اللتان تكبرانها، فاطمة وخديجة. ولفاطمة وخديجة حكايات بحجم حكايات شهرزاد أو أكثر!

رغم كل أسراب النكبات وسيول الكآبة التي كانت تجرفني، فقد كنت كل مرة أرسل رسالة مطولة إليها، وأعدها كل مرة أنني لن أدخر جهدا في الزواج بها حين تسنح الفرصة التي تأخرت كثيرا. كنت أتصل بها أيضا حين شاع الهاتف النقال، واستطعت شراء واحد لي وواحد لها بما أوفره من المهن التي كنت أمارسها بمزاجية بادية.

بديعة الآن تواصل معي سلسلة نكباتها وكبواتها بعدما مات ثلاثة من أبنائنا. ورغم ذلك تظل باسقة كأشجار النخيل. لطالما بحت لها بهذا التشبيه، وهي تبتسم ابتسامتها المعهودة التي لا تخلو من نفحات الكآبة.

في تطوان، بعدما صرتُ بضاعة مزجاة في إمزورن والحسيمة، صرت أسكن بيت خالي المهاجر إلى بلجيكا. جاد علي به بعدما عرف حجم المآسي التي أعانيها جراء سنين البطالة. ذات صيف، نطق دون سابق إنذار:

- عزيز، إن أردت أن تقصد تطوان لتسترزق الله، فلك منزلي هناك، افعل به ما تشاء يا خال.

دهشت للمبادرة كثيرا، لكنني تساءلت في داخلتي: "وماذا عساي أفعل في تطوان؟!"

كان ثمة خال آخر، أخوالي كانوا يملكون من الأموال ما تنوء عن حمله حمير الريف كلها! هذا الخال سيبادر هو الآخر وبقوة، منح لي دكانا يملكه بالمدينة القديمة في تطوان، وساعدني على الزواج.

حين نطق بالزواج، تبدى شبح بديعة أمامي، بسحناتها التي تميل إلى الشحوب، وقامتها المتوسطة. بديعة كانت امرأة لا كالنساء. تساءلت في تلك اللحظة: "هل تراني أفي بوعدي معها؟!" لكن سرعان ما

نفضت عني غبار هذا السؤال، وألقيت بأوزاره بعيدا عني. كيف لي أن أطرح على نفسي سؤالا كهذا؟!

كذلك كان، زرت تطوان لأعاين المنزل والدكان. وجدت كل شيء على أحسن ما يكون، وقلت: "لو اضطررت إلى أن أبيع عباد الشمس والفول السوداني واللوز وقطع الحلوى سيكون حتما خير من أن أبقى في الريف أصارع شبح الموت الذي ظل يترصدني." استشرت بديعة عما يمكن أن أبيع في تطوان، دون أن أخبرها بأمر الزواج. كانت تعرف دروب تطوان أكثر مني. كانت تزور خالتها التي تسكن المدينة، وكانت تكثر من زياراتها بعدما فقدت الأب والأم وسلكت أختاها طريقهما. سألتني بديعة كثيرا قبل أن تشير علي. أخبرتها أن الدكان يوجد بحي العيون قرب بقالة مواد غذائية ومخبزة. في نفس الزقاق الذي يوجد به، توجد بقالات ومخابز وبائعو كل شيء! لم تتدخر بديعة جهدا في التفكير في أمر هذا الدكان إلى أن استقر رأيها على بيع الكتب المستعملة! لم يكن هذا الرأي رأيها وحدها، بل إن بنت خالتها التي كانت تتابع دراستها بجامعة تطوان هي التي اقترحت عليها ذلك لما تعرفه من الطلبة الذين يقصدون المدينة القديمة بحثا عن كتب مستعملة.

استغربت للأمر في البدء، لا لشيء، فقط لأنني أعرف أن التجارة الكاسدة رقم واحد هي تجارة الكتب، كيفما كانت هذه الكتب، إلا إن كانت كتب طبخ أو ما شابه ذلك! وصل ببديعة حبها لهذه المهنة

الجديدة إلى إقناعي بكل وسائلها لأقبل مغامرة كهذه. في الحقيقة، لم يكن لدي الكثير لأخسره. إن لم تنجح هذه المبادرة، سأغيرها بما قد يناسب. ما كان عبئا هو السكن وتوفر المحل، هذان كانا منحة ممن لم أكن أتوقع فيهما بصيص أمل.

كانت ساعة يدي تشير إلى الثامنة وبضع دقائق حين استقبلني عمي حسن بابتسامته المعهودة؛ صاحب البقالة المحاذية لدكاني أو مكتبتي. عمي حسن رجل يعيش على أعتاب الشيخوخة، يحكي لي قصص الغزاة الأقدمين، حروب تطوان وسبتة، غارات البرتغال والإسبان، حكايات باب النوادر والموريسكيين الذين قدموا بكثافة إلى المدينة في النصف الأول من القرن السابع عشر. يحكي عن ملاح اليهود، ويروي قصص أجداده وجداته. يحكي مستملحات زمن الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي أيضا. الحكي والقص والتاريخ يسكنون دواخله تماما كما تسكن الدراهم قلوب أغلب مجايليه! عمي حسن دائم الحيوية والنشاط رغم تقدم سنه، بشوش في وجوه زبنائه ووجوه العابرين لأزقة المدينة أيضا، يصلي صلاته في وقتها، ويحتاط كثيرا من أن يصل إلى جيب جلبابه درهم حرام. طالما كان ينصحني بالصلاة حين علم بأمري! كان يتحفني بأمثال مغربية كثيرة أيضا. ما زلت أتذكر منها: "مَا حَدْ الطَّمَّاعْ حَاضَرْ، الكَذَّابْ مَا خَصُّو خِيرْ" وكان يكثر كثيرا من قوله: "شُوفْ أَ وْلِيدِي، هْمُومَكْ اعْمَلْهَا فِي شَبْكَة، شِي يْطِيحْ شِي يَبْقَى."

كؤوس شاي القهوجي الغالي كنا نحتسيها سويا، وقطع المسمن والحرشة نغتالها على نفس الطاولة، وقلما كنت أدعه يدفع ثمن ما يشربه من كؤوس. كان عمي حسن نبع لا أحسبه ينضب حتى وإن أفل نجمه

عنا. كان عمي حسن بمثابة أب ثان بالنسبة لي. كنت أنقل قصصه وحكاياته إلى بديعة وأضحكها بمستملحاته التي كانت تستعذبها كثيرا، وتطلب المزيد دائما. بسببه أحببت الدكان وأحببت المهنة، وأحببت ما أبيعه من كتب. صرت أعيش حالة وصال به يصعب علي تحويله إلى انفصال وهجران. إلى جانب كل هذا، كان يكثر من مدحه وثنائه على أهل الريف بقوله: "رْوَافَة الله يْعَمَّرْ هَا دَارْ أَوْلِيدِي. أَغْرَاسْ أَغْرَاسْ..!"

كنت أبذل كل ما في وسعي كي لا أخيب ظنه فيما يعتقده عن أهل الريف؛ أي بوعودي معه، أكرمه كل مرة، رغم أنه لا يروقه كثيرا أدائي لثمن كؤوس الشاي التي كان يأتينا بها الغالي. كنت أنشُد الحفاظ على تلك القيمة التي رسمها عمي حسن في مخيلته تجاه الريفيين.

جلست وجلس عمي حسن على عتبة باب دكانه. يقتعد كرسيا خشبيا قديما جدا، وأقتعد آخر بلاستيكيا يبدو حديثا. ظل يحدثني عن الصلاة ومزاياها يومئذ حتى خلته لن يتوقف، ويسألني بين الفينة والأخرى سؤالا ما كقوله:

- كَايْنْ بَعْدَا شِي وْلِيدَاتْ وَلَّا وَالُو؟

أجيبه بما أصابني من كرب في هذا الجانب. يواسيني، ويظل يقنعني بحمد الله وشكره على كل مصاب، ويؤكد أن الأبناء منحة من الله يمنحها لمن يرى له في ذلك خيرا وصلاحا. أجاريه في كل شيء، خصوصا حين يتعلق الأمر بشؤون الدين. حقيقة، لم أكن جاحدا للصلاة أو التعبد،

فقط سنوات الجامعة التي قضيتها متشبعا بفكر اليسار وما زلت، هي التي أورثتني مثل تلك الأفكار التي صارت تتساقط شيئا فشيئا من مخيلتي وقناعاتي. كنت أحس، وبقوة، أن خريف تلك المواقف تجاه التدين قد دنا وقرُب. من قبل، لم أكن أنضبط للصوم في شهور رمضان حتى، ولم أكن أطيق معاشرة أي آدمي كان يؤدي صلواته ويميل إلى التدين، أي تدين. أوليس الدين أفيون الشعوب؟! وهذا السبب كان يجعلني أنفر كثيرا من العودة إلى إمزورن لقضاء العطل رفقة الأسرة، لكنني اليوم صرت متزوجا ببديعة، وبديعة تصلي كما ينبغي، وصرت صديقا حميما لعمي حسن، وهو كذلك يفعل. كثيرة هي الأفكار والآراء التي ظلت تعشش على مخيلتي طيلة فترة الدراسة الجامعية، صارت اليوم تندثر شيئا فشيئا.

هذه السنين، كما قلت، هي التي أورثني كسلا على أداء الصلاة. حتما، سيأتي اليوم الذي سأفعل ذلك، كيف لا؟ وبديعة تعظ في الداخل، وعمي حسن يعظ في الخارج..!

بعد قرابة ساعة، وصل صديقي عبد الواحد بالكتب التي كنت أنتظرها. قبل أن يتحدث إلي، تأمله عمي حسن بشكل جيد، وقال:

- حَتَّى هَذَا مَايْكُونْ عَا رِيفِي!

أجبته أن حدسه لم يخنه هذه المرة أيضا، وتأكد حين تحادثنا بالريفية. عرّفته بعبد الواحد، وبمن يكون. تأسف كثيرا لكونه خريج كلية العلوم

بوجدة سنة 1995، لكنه رغم ذلك ظل معطلا يتنقل بين امتهان هذه المهنة وتلك، تماما كما كنت أفعل. لحظتئذ، كان عبد الواحد قد استقر به المقام بتهريب بعض الملابس والأحذية الجديدة والمستعملة من سبتة.
شرع عمي حسن يحكي عن الكثير من أبناء جيرانه وأقاربه الذين يعانون مثلما يعاني عبد الواحد ومثلما أعاني أنا أيضا، واستفضنا في الحديث عن هذه المسألة، إلى أن صرت أسأل عبد الواحد عن حال الرفاق الذين كنت أقتسم معهم ويلات الرِّباط والاعتصام عند عتبات الإدارات في الحسيمة وآيت بوعياش وإمزورن ومواقع أخرى. قال عبد الواحد:

– ما زالوا كما تركتَم، من البيت إلى مقهى نوميذيا ومقهى المنظر الجميل ومقهى كريم، ومنها إلى البيت، ومن البيت إلى أماكن الوقفات والرباطات والاعتصامات. أنت تعلم، كل شيء صار مملا شاحبا. السنين تتقدم يا عزيز، ونحن نشيخ. هل سنظل ننبح كما كنا نفعل دائما كجراء جائعة؟!

– ما زلت تنضبط معهم؟

– لم أعد أفعل يا رفيق. كرامتنا تقهقرت حتى وصلت حد القاع. كان جديرا بهم أن يعطونا الفتات الذي طالبناهم به منذ التسعينيات. الآن، صار في الجمعية من ازداد في السنة التي حصلت فيها على شهادة التعليم الإعدادي. كل شيء فقد رونقه وقيمته، تبدلت الأمور كثيرا يا

عزيز. الآن، حتى وإن حُققت مطالبٌ، فقد صار تحقيقها مرا بطعم العلقم. دعنا من هذا الحديث، لقد سئمته. كيف حالك؟ وكيف تسير الأمور مع ما أنت فيه؟

- أنت ترى. على كل حال، الأمور تسير بشكل جيد، فهمت؟ على الأقل أفضل مما كنت فيه. وأنت؟ تبدو لي ساخطا كما اعتدتك!

ابتسم بحرقة، وقال:

- كيف لا يا رفيق؟ كيف لا؟ فليكن ما يكون، فقد نسيت أنني كنت ما كنته. صرت أعيش، وكأنني ولدت من جديد. أحاول أن أتحاشى تذكر أي شيء. أحيانا أفكر فأقول: "لو اشتغلنا منذ البداية كما نفعل الآن، لكان أفضل من أن نقصد الجامعات. أعرف كثيرين في سني وأصغر مني بلغوا بهذا التهريب ما بلغوا. أنا، وأنت، ما زلنا نجر أذيال الخيبة، ونزحف ونحبو كأنما نسير راكبين حمارا أهزلا!

- انس الأمر. كيف كانت رحلتك؟

- كما العادة.

- كيف تركت عبد الرزاق؟

- بخير، هو مازال يتزعم النضالات كما كان يفعل. عجبا! لم يسأم بعد. أنا كرهت كل شيء..

- هون عليك يا صاحب. لا تكن هكذا. نسيت أن أسألك، هذا الموظف الذي توفي، أأكون أعرفه؟

- تعرفه، وبشكل جيد. تتذكر يوم كنا نرتاد كثيرا مقهى اعماروش رفقة عبد الرزاق.

- أتذكر.

- كان، في غالب الأحيان، يلج خمسيني ويقصدنا ليسلم على عبد الرزاق ويسأله عن الأهل.

- صاحب البيرية؟ الهزيل الشاحب؟

- هو ذاك.

- أوه! قال لنا عبد الرزاق آنذاك أنه لم يكن متزوجا.

- كذلك توفي. شحوبه كان نتيجة فقر دم. في الأخير، اكتشفوا أنه كان مصابا بسرطان الدماغ أيضا.

قلت: "يرحمه الله." وكذلك قال عبد الواحد وعمي حسن. ودعته بعدما اعتذر عن بقائه معي لمشاركتي الغذاء. شيعت رحيله، وأنا أقول:

- لا تنس أن تعرج علي كلما سنحت لك الظروف.

عكفت على الغوص في كراتين الكتب التي جاءني بها الصديق، وعمي حسن يؤنسني بأحاديثه ومستملحاته، مالم يكن مشغولا بخدمة زبون.

في ركام الكتب التي تجاوزت الخمس مائة كتاب وجدت فسيفساء ثقافية؛ النظرات والعبرات للمنفلوطي.. ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون وعصفور من الشرق ويوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم، كيف تفهم الإسلام وسر تأخر المسلمين لمحمد الغزالي.. حوار مع

صديقي الملحد لمصطفى محمود. كتب للكواكبي ومحمد عابد الجابري وعبد الله العروي، وروايات في لغاتها الأصلية أو مترجمة إلى العربية لإرنست همنجواي وتشارلز بوكوفسكي وبول بولز وجي دي موباسان وجوستاف فلوبير وإميل زولا و روايات بالإسبانية لميغيل دي سيربانتيس وغابرييل غارسيا ماركيز.. روايات كثيرة أخرى لكتّاب يكتبون بالعربية؛ غسان كنفاني ونجيب محفوظ ويحيى حقي وحنا مينة وغيرهم، وقصصا لزكريا تامر ومحمد زفزاف ومحمد شكري.. كل هذا الركام ابتعته بأقل من ألف درهم، أرسلت المال إلى عبد الرزاق مع صديقنا عبد الواحد. لا شك أن عبد الرزاق قد سئم قراءة الكتب بعد كل الذي عاناه ويعانيه في رحلة البحث عن لقمة العيش!

رتبت الكثير في اليوم الأول، وبقي الكثير أيضا. تركت بعضها في كراتينها التي أرسلت فيها، وألقيت بأخرى على أرضية الدكان منتظرة دورها في الترتيب والنظام. كنت أصنفها حسب ترتيب معين، وأقوم بعزل الهشة والقريبة من الإتلاف لأقوم بتعديلها، ومحاولة الحفاظ عليها أكثر. في ركام كتب الموظف، عم عبد الرزاق، وجدت كتبا غريبة أخرى، لم أجد لها تصنيفا. قرأت بعضها فيما بعد، أعجبتني منها القلة القليلة.

عمي حسن ظل طول المدة التي قضيتها في ترتيب الكتب يحملق مستغربا من عدد الكتب وأحجامها، والتي كتبت من طرف أناس

كثيرين لا يعرفهم! عمي حسن لم يكن رجلا أميا كما هو شائع لدى أغلب مجايليه ومن هم في سنه، سبق له أن تلقى تعليما في إحدى مساجد المدينة، مما جعله ذلك قادرا على قراءة بعض الكتب. كان يكثر من قراءة القرآن الكريم، وبعض كتب الأذكار. طول المدة التي أمضيتها أقلب الكتب المستلمَة الجديدة، كان عمي حسن هو الآخر يقلب معي، ويقرأ بين الفينة والأخرى عنوان كتاب من الكتب، أحيانا بشكل صحيح، وأحايين بلحن باد.

بعد ثلاثة أيام، رتبت كل الكتب التي وصلتني. قدرت لها أثمانا مناسبة، وأصلحت تلك التي كانت على شفا الضياع. في الحقيقة، لو أنني بعتها بعشرة دراهم للواحد، لربحت خيرا يسترني، ويستر بديعة معي. كل ما في الأمر هو أنني كنت أجني كل شهر من الربح ما يتراوح بين ألف وألف وخمسمائة درهم؛ كانت كافية لأسدّ بها تكاليف المواد الغذائية والتسوق من سوق الخضر واللحوم. أستفيد بدوري من الكتب التي أشتريها بقراءتها، وتحفيز بديعة على قراءتها. في الواقع، لم تكن تحتاج إلى تحفيز، بل كانت، أحيانا، تحفزني على ذلك حين أعود بمزاج سيء من الخارج. الأمور التي تجعل مزاجي سيئا كثيرة جدا، إذ يحدث أحيانا أن يأتي إلي شخص ما، يختار من كتبي المعروضة أجودها، وقد حدث أن اختار أحدهم كتبا للمنجرة وعبد الرحمن منيف وآخرين، واقترح علي أن يدفع

لي عن كل كتاب درهمين أو ثلاثة. لم أجد، لحظتئذ، مفردات مناسبة للرد عليه، كان كافيا أن أومئ إليه برأسي أنني رفضت. ينصرف، لكن داخلتي تفور غضبا وحقدا على مثل هؤلاء الذين يسترخصون الكتب إلى هذا الحد.

ما كان يمنحني فرصة ربح بعض النقود التي تضمن عيشنا هو أن الكثير من الكتب التي كنت أعرضها تُعطى لي، أو تُعرض علي، فأشتريها بأثمان زهيدة جدا، لكنني كنت أتقن التصرف فيها. كان بحوزتي كتبا أبيعها بثمن لا يتجاوز الخمسة دراهم، لكنني أبيع أخرى بأكثر من ثلاثين أو أربعين أو خمسين درهما حتى. يحدث كثيرا أن لا يأتي إلى دكاني طول اليوم إلا شخص واحد. يظل بين كتبي وقتا طويلا، يختار ما يستهويه، ويدفع الثمن الذي أشتهيته وأطلبه. شخص واحد يكون كافيا أحيانا لأضمن قوت يومي. ويحدث أيضا أن لا يأتيني أحد طول يوم كامل أو طول يومين أو ثلاثة، لكن تأتي الفرص التي أعوض فيها كل ما فات.

كنت كل مرة، أفكر في إمكانية كساد تجارة الكتب المستعملة هذه أكثر مما هي عليه، وكنت أسائل نفسي دائما عن طبيعة العمل الذي كنت سأختاره لو أن رزقي ببيع الكتب قد نفد، لكنني كل مرة، لا أجد جوابا شافيا. من قبل، استشرت بديعة في نوع التجارة التي تصلح في مكان كهذا. لكنني هذه المرة، لم أخبرها بهذه الوساوس والتخمينات

التي ظلت، طول المدة التي قضيتها بهذه المهنة، تسكنني، ولم أكن أُطلعها على كل ما يجرح مشاعري ويجعل مزاجي سيئا أيضا، خصوصا في هذه الآونة الأخيرة التي كانت تنتظر خلالها المولود الرابع.

كل مرة، تصلني مجموعة كتب، لكن لا شيء يأتي معها، أو بينها، يثير الغرابة أو الإعجاب. هذه المرة، ثمة ما أثارني وشد انتباهي. في ركام كتب الموظف، يرحمه الله، كان بينها كتاب مختلف تماما. في الواقع، لم يكن كتابا، بل كان دفترا مملوءا بالكتابة. كان الدفتر مكتوبا بقلم حبر جاف أزرق داكن، كان دفترا من الحجم الصغير يضم أكثر من ثلاثمائة صفحة، أوراقه صارت تميل إلى الصفرة قليلا، وعدد قليل من كلماته تصعب قراءتها. كان الدفتر مكتوبا بإسبانية جيدة، تكاد تخلو من الأخطاء الفادحة، عدا البعض التي يمكن غض الطرف عنها وتجاوزها. أمسكت به بكثير من الدهشة والريبة. تفحصته وتصفحته، وأنا أحاول قدر المستطاع أن لا أساهم في إتلافه أو إضاعته. شعرت وقتئذ بشعور مختلف تماما، وطرحت في داخلتي وعلى نفسي أسئلة بعدد الحمام الذي يحلق على سماء تطوان؛ ما هذا؟ من كتب هذا؟ لمن يكون هذا؟ كيف وصل هذا إلى هذا؟ ماذا يمكن أن يوجد داخل هذا؟ أهذا سيكون مخطوطا ثمينا؟ أم أن هذا سيكون هراء لا طائل منه؟ أكثرت من "الهذات" على نفسي، ولم أجد جوابا لكل ما طرحته من أسئلة، إلا

حين جلست مسترخيا أقلب أوراق المخطوطة بشكل متأن، وأقرأها على عجل حينا، وعلى مهل حينا آخر.

لم أقرأ منها في اليوم الأول الذي عثرت عليها إلا صفحات قلائل، كان عمي حسن يلهيني بمستملحاته ونكاته، لكنه رغم ذلك، لاحظ أن ذهني مشتت ومشغول بما أمسك به. لم يسألني عما بيدي، فهو، من جهة، لم يكن فضوليا إلى تلك الدرجة التي تدفعه للسؤال، ومن جهة ثانية، فقد ألف إمساكي بالكتب، وقراءتها حتى، وهو يحكي قصصه ونوادره. في الحقيقة، لم آخذ المخطوط معي إلى البيت، بل ظللت أقرأ منه كلما سنحت لي الفرصة، وأنا بالمكتبة. كانت المدة التي قضيتها في القراءة الأولى لا تتعدى أربعة أيام. قرأته ثانية في يومين اثنين، ثم قررت أن أطلع بديعة على ما وجدت.

حملت معي المخطوطة وكتابين لأقترحهما على بديعة لتقرأهما؛ ماجدولين للمنفلوطي والأيام لطه حسين. دسست الكل داخل كيس بلاستيكي كما هي عادتي حين أجلب معي كتبا إلى البيت، ونويت مغادرة المكتبة يومئذ باكرا نوعا ما شوقا لإشراك بديعة متعة المخطوطة.

عند عتبة الباب، استقبلتني بديعة بابتسامة متعبة. لا شك أن الجنين صار يكبر شيئا فشيئا، لكنها رغم ذلك تحاول أكثر مما تستطيع أن تحول آلامها إلى أشياء عابرة. ابتسمت لها ووشوشت لها بكلمات لأخفف عنها ما تعانيه، واقترحت أن لا تعد عشاء تلك الليلة. احتفالا

بالمخطوطة، سأجازف بشراء عشاء جاهز! على أريكتنا الوحيدة، جلسنا كطفلين غريبين نتفرس ملامح بعضنا البعض. قلت لبديعة دون سابق إنذار:

- أتيتك بكتابين. اقرئيهما، ستستمتعين.

- دعني أرى. أها! طه حسين والمنفلوطي. بأيهما أبدأ؟

- كما تشائين.

- فلأبدأ بالعميد.

- طيب. لك ذلك.

سحبتِ الكتابين، وأنزلتهما على طاولة التلفاز، وقالت:

- أراك اليوم بكرت قليلا في العودة؟!

- ها، هو ذلك. لاحظتِ ذلك إذن، هذا هو بيت القصيد اليوم. اسمعي يا بديعة: إلى جانب أنني جئتك بالكتابين، فقد جئت بشيء آخر؛ يشبه الكتاب، لكنني لا يمكنني أن أسميه كذلك.

بدت علامات الاستغراب على وجهها، وهذا أمر كنت أنشده. استمتعت بتحمسها وفضولها. كانت، كلما زدتُ نار فضولها إشعالا كلما ابتسمتُ، وهي تستعطفني أن أقول وأريحها. في الأخير، أخرجت المخطوطة من الكيس، وألقيتها بين يديها. قلّبتها باستغراب، وهي تسأل:

- من أين لك هذا؟

ابتسمت قليلا، بل ضحكت، وأنا أقول:

- حتى أنت استعملت "هذا" للحديث عن المخطوطة!

لم تفهم قصدي، فأفهمتها وشرحت لها من أين لي هذا "الهذا"! سألتني بعدها:

- قرأتَها؟

- فعلت، مرتين.

- وما أنت فاعل الآن بها؟!

تنهدت لثوان، وقلت:

- بدا لي أن أترجمها، ما رأيك؟

- فكرة جيدة، لكن ماذا بعد؟

- لا شيء، أترجمها، ثم.. ثم أنشرها على الفيسبوك كلما أنهيت جزءا منها. ثم بعد ذلك، سأرى ما سيكون، من يدري..؟!

- ستبذل مجهودا في ذلك يا عزيز، ألا تمانع؟

- كلا، بل سأستمتع بذلك. ثم إنني لست بصدد ترجمة أكاديمية لأتقيد بكل صغيرة وكبيرة. سأبذل مجهودا، وسأحاول أن لا أخرج المخطوطة عن مغزاها الحقيقي.

- هل تعني أنك ستتصرف فيها؟

- لن أفعل. سأترجمها، وكأن كاتبها كَتَبَها بالعربية. كل ما أقصده هو أن ثمة شكليات تتقيد بها الترجمات الأكاديمية، أنا سأكون بمنأى عنها.

- إذن فلأقل بالتوفيق، وكفى، وسأنتظر ترجمتك لأقرأها بشغف.

بدأت أحكي لبديعة شيئا مما جاء في المخطوطة، لكنها أوقفتني قائلة:

- لا.. لا يا عزيزي، دعني أكتشف بنفسي، إنك تحرق لي لذة القراءة والاكتشاف.

l'homme classique

حكاية علاء بشيري

لم يكن عزيز أو "آخر الكتبيين"، كما يحلو له أن يسمي نفسه على الفيسبوك، صديقا حقيقيا لي. كان صديقا افتراضيا على شبكة التواصل الاجتماعية المذكورة. في الحقيقة، لم يدفعني إلى إضافته كصديق إلى قائمة أصدقائي إلا اسمه، إذ كنت وقتئذ أتابع دراستي بالسنة الثانية من سلك الماستر تخصص "الأندلس والمغرب: تاريخ وحضارة". كنت أمنّي نفسي بإيجاد بعض الكتب التي كانت تنقصني في بحثي، إن كان "آخر الكتبيين" هذا كتبيا فعلا. وجدت أن عزيزا كان كتبيا حقيقيا، بل كان كتبيا من النوع الذي كنت أفضله. أربعيني حاصل على الإجازة في شعبة اللغة الإسبانية، يشتغل بائع كتب مستعملة، وهذا ما أخبرني به ذات دردشة خاصة معه.

من خلال المعلومات التعريفية الشخصية المثبتة على صفحة البيانات تبين لي أن عزيزا من مواليد التاسع من يوليوز من العام 1973، ينحدر من منطقة تسمى إمزورن، وقد دفعني فضولي أكثر من مرة أن أسأله عن المكان الذي تتواجد فيه هذه المنطقة التي ينحدر منها، إلا أنني سأكتشف من خلال خريطة تتيحها الخدمة الفيسبوكية أنها مدينة صغيرة تقع في القسم الشمالي من المغرب، وبالضبط بمنطقة الريف.

ويظهر أيضا أن عزيزا يسكن مدينة تطوان، وبها يمارس مهنة بيع الكتب على أرجح تقدير.

في الحقيقة، نسيت أن أخبركم شيئا مهما عني، فأنا أدعى علاء بشيري، لكنني معروف بـ"l'homme classique" على الفيسبوك. أعيش متنقلا بين مدينة تازة وإحدى قرى إقليم تاونات نظرا لظروف عملي كأستاذ. لكن أصول عائلتي تنحدر من قرية بالأطلس المتوسط. حصلت على الماستر في التاريخ، وأنا الآن أمنّي نفسي بمتابعة الدراسة في سلك الدكتوراه.

عرفت عزيزا منذ ثلاث سنوات. ظل ينشر، على الفيسبوك، مذ عرفته وأضفته إلى قائمة أصدقائي، مجموعة من الأقوال والحكم لكتّاب مغاربة وعرب، وآخرين ينتمون لثقافات ودول أخرى. كما أنه كان ينشر بين الفينة والأخرى عناوين بعض الكتب، وربما صورها أيضا. ما زلت أتذكر أنه مؤخرا نشر باقة من الأقوال، أذكر منها مقولة شكسبير "تكلم هامسا حين تتكلم عن الحب" و"لا يجب أن نزحف عندما نشعر بشيء يدفعنا للطيران" لهيلين كيلر، وقول سلفدور دالي "لكي ترسم يجب أن تكون مجنونا" إضافة إلى المقولة التي تنسب إلى أنشتاين "كل تعميم خاطئ، بما فيه تعميمي هذا" التي نشرها في الأيام الأولى لمعرفتي به. كان ينشر أشعارا لأحمد مطر ونزار قباني، ومقتطفات من كتب قرأها أيضا. كان كل مرة يدخل في نقاش حاد رفقة أصدقاء افتراضيين

وآخرين يعرفهم على أرض الواقع حول قضايا خلت كسنوات الرصاص، وأحداث الريف في خمسينيات القرن الماضي، ومؤتمرات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وحرب زعيم التحرير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وقضايا أخرى راهنة كالقضية الفلسطينية وحرب الغرب على الإرهاب، ومآلات الحكومات والأنظمة العربية، ومسار الجمعية الوطنية لحملة الشهادات المعطلين، وهلم جرا..

إلى جانب هذا، كان ينشر عناوين كتب أو صورها، ومن بين الكتب التي نشر عناوينها، والتي علقت بذاكرتي، لكنني لم أكن متأكدا ما إن كان يتوفر عليها في مكتبته أم أنه نشرها على سبيل الاستئناس فحسب. أذكر أنه نشر ذات مرة صورة لكتاب "التاريخ الأندلسي: من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة" لعبد الرحمن علي الحجي، ونشر أيضا صورة لكتاب عبد الله العروي "مجمل تاريخ المغرب"، إضافة إلى عناوين كتب كثيرة لم أعد أتذكرها.

مؤخرا استجد في أمر ما ينشره عزيز شيء، إذ أنه منذ أيام كتب أنه عثر على مخطوطة ما وجدها ضمن مجموعة كتب اشتراها من مكان ما، وقد وعد أصدقاءه بنشرها متى ما أنهى ترجمة جزء منها. بهذا القول، بقيت متأهبا متشوقا، كما بقي أصدقاء آخرون، ولا شك، بقيت أنتظر ما سيأتي به عزيز هذه المرة.

بعد أسبوع، أو ما يقارب ذلك، جاءنا عزيز بجزء من المخطوطة التي عثر عليها، والذي وعدنا به، وقد عمل على ترجمته من الإسبانية حسب ما صرح به، وسيعمل على إكمال الترجمة حتى النهاية. وهذا ما جاء في الجزء الأول من المخطوطة..

الفصل الأول

العَتَمَة

محطة الناظور، ذات صيف..

الحافلات التي تغادر المحطة كانت تبتلع الطريق ابتلاعا، وهدير محرك التي تنتظر دورها للرحيل يقتلع معدتي الفارغة من مكانها، ويوصلها حتى حنجرتي. عويل النساء اللواتي يهربن السلع من مليلية يستفزني، فتحدوني رغبة الصراخ، لكنني لا أصرخ، ولا أستطيع أن أصرخ، لا لشيء، فقط لأن الناس يقولون عن الذين يصرخون، والذين يضحكون ويتكلمون مع أنفسهم مجانين. لقد صدقوا، فكل المجانين الذين يجوبون مَدْشَرَنا يفعلون ذلك. أنا يكفيني أنني فقير وتافه ومقطوع من شجرة زيتون بري لا يسقيها أحد، ولا يهتم بها أحد.

المسؤولون يعرفون أنني جائع ومشرد، ويعلمون أن أمي مريضة، وأبي مقتول. ويعرفون أن هؤلاء النساء يتعبن كثيرا للحصول على القليل. ويعرفون أن الكثير من الأمهات والأطفال يموتون بالتقسيط، وأحيانا بالجملة أيضا. يموتون من الجوع والمرض. يموتون أحيانا من الزكام أو من السعال أو من داء الحصبة "بوحمرون"، أو من أي مرض تافه. ويعرفون

أكثر من هذا وأكثر مني؛ لأنني صغير، والصغار لا يعرفون شيئا، على حد قول أمي، وقول أبي، و قول شيخ القبيلة. ويعرفون أكثر من أمي لأنها لا تجيد سوى الخبْز، وإيقاد الفرن، وغيرهما من أشغال البيت البسيطة، وليست كأولاء النساء اللواتي يعرفن كيف يضعن ذلك الشيء الأحمر على شفاههن. ويعرفن كيف يمشطن شعرهن بطرق لا تعرفها أمي، ولم تسمع بها من قبل حتى. لكنها بالمقابل، تعرف جيدا كيف تضع الحناء قبيل أيام عيدي الأضحى والفطر على يديها، وتعرف أيضا كيف تضعه على رأس خالتي الحاجة منانة التي صار شعرها أبيضا.

كانت خالتي الحاجّة تقول لأمي، حين تضع لها الحناء على رأسها:

– لماذا تأتين بهذا الخِنَّوْص معك؟ ايتي بوحدك حين تفعلين لي هذا الشيء.

ربما كانت لا تريد أن يراها أحد بشعرها الأبيض، حتى ولو كان ذلك الأحد صغيرا لا يعرف شيئا مثلي. كنت أسأل، في داخلتي، دائما:

– هل سيكون شعر أمي كشعر خالتي الحاجة حين تكبر؟

وكنت أسأل أيضا ما إن كانت أمي ستجد واحدة مثلها تضع لها الحناء بأناة وصبر مُبالَغ فيهما كما تفعل مع خالتي الحاجة منانة. أسئلتي كانت كلها مؤجلة؛ لأنني لم أكن أجد لها جوابا بنفسي، ولم أكن أسأل أمي أو أبي، حين كان حيا. هناك أسئلة تغضب الكبار، خصوصا أسئلة الصغار.

المسؤولون يعرفون أكثر من أبي الذي قُتل، لأن أبي كان فلاحا تافها، لكنه الآن ميت. وأن يكون أبي فلاحا تافها حيا خير من أن يكون ميتا، لكنه ميت، قتله ابن اللعينة. لم أكن، من قبل، أستطيع أن أتفوه بكلام بذيء كهذا؛ لأن أمي كانت تضربني إن فعلت ذلك. ويعرفون أكثر من الشيخ الذي طَرَدَنَا من القبيلة، لكنهم لا يفعلون شيئا، أولاد ال... لا أستطيع أن أقول عنهم شيئا، فأمي تحذرني دائما، وتنصحني أن لا أسب الرجال الكبار. وهؤلاء الذين أتحدث عنهم أكبر من أولائك الرجال الذين تحذرني منهم أمي، وربما أكبر مما أعتقد. لكنهم، ولله الحمد، ليسوا أكبر من الله، ومن سيدنا النبي. إن أمي تقول لي دائما: "كن مهذبا ولطيفا، وكن وَلَد الناس"، وإن كنتُ جائعا وشريدا؟ وإن أرادوا أن يخلعوا عني سرابيلي؟ وإن أهانوني وضربوني؟ وإن أرادوا أن يفعلوا لي وبي شيئا قبيحا..؟

أنا أعرف أنني ولد الناس، ولست ولد الثعالب أو ولد الذئاب، أو ابن أي حيوان آخر، وأمي تعلم ذلك أيضا، لكنها مع ذلك تطبخ لي رأسي بلازمتها التي لا تمل منها. لكن من يدري؟ فهناك من الناس من هم أولاد الكلاب، ومنهم حفدة آوى أيضا! ثم إنني أقول بأنه أحيانا أن تكون ابن حيوان خير من أن تكون ابن إنسان لا يفعل أكثر مما يفعله أتفه حيوان على وجه الأرض.

لكنني لا أستطيع أن أقول كل هذا الكلام لأمي؛ لأنها قد تضربني حتى تزرقّ مؤخرتي، أو تحمرّ وجنتاي، أو يصفرّ وجهي كله من اللطم والقرص. إن لم تفعل، فقد تموت غيظا، وأنا لا أريدها أن تموت، لا بالغيظ ولا بغيره، ولا أريدها أن تمرض أكثر مما هي مريضة. ولا أريدها أن تغيب كما غاب أبي عن دنيانا.

السماء صافية وخاوية من كل شيء، تماما كمعدتي. ولكن الشمس كانت تتوسط وجهها الأزرق، وكانت تشوي قفاي، وتشوي ظهور النساء المثقلات بالسلع، وتشوي حتى سمك السردين الذي لم أجد إليه سبيلا لأسكت به معدتي الباكية.

كان في المحطة أيضا متسولات، ومتسول هرم يتقرفص عند البوابة الرئيسية باسترخاء كأنه رجل من رجال الجمارك. كان الرجل يشبه فزاعات حقول الشعير التي كان أبي ينصبها في حقول عمي الحاج قدور. يبدو جامدا لا يهش بيديه على الذباب الذي لن يجد مكانا للعيش أخصب من جسد المتسول النتن. يمد يده بإلحاح لكل آدمي تطأ قدمه أسفلت المحطة المثقوب والمحفر والمغبر والملوث. والشرطي الذي يشخر في الركن المقابل للمقهى الخنِز الذي تنبعث منه رائحة الدخان، ورائحة الأحذية، ورائحة عرق الإبط، وعرق شيء آخر، لا يفعل شيئا. لا يحمي الناس من مضايقة المتسولين، ولا يسألني أو يسأل أمي الضائعة وسط زحام الحياة عن وجهتنا، ولا يطرد القطط التي تجوب

المحطة، ولا يهش بعصاه -التي تبدو بلاستيكية- على الكلاب التي تزاحم القطط على رؤوس السردين التي يرميها صاحب مطعم المحطة، وتزاحم الناس على زوايا المحطة التي يتبولون فيها سويا.

صارت تحدوني رغبة حادة في التبول. لكن أين؟ في مرحاض المحطة الذي تسكنه رائحة العفن؟ إن الدخول إلى المرحاض يستوجب التوفر على درهم، وأمي لن تعطيني الدرهم. لو كانت تملكه لأعطتني إياه لشراء نصف خبزة، أو شيء ما نُمَوِّه به أمعاءنا التي تقرقر. أأبول في الزاوية كما يفعل ذلك الرجل ذو الكرش البرميلية؟ أمي قد لا يروقها ذلك. وقد لا يروق ذلك الشرطي أيضا، فيضربني؛ لأنني صغير، والصغار هم وحدهم من يُضربون، ليس الصغار في السن فحسب، بل الصغار في كل شيء. أبول في سروالي إذن؟ لا، أمي حذرتني وما تزال بأن من يبول في سرواله لن يكبر أبدا. قد تضربني أيضا إن فعلتها. وقد ضربتني من قبل حيث فعلتها مرارا، ولم يزدني ضربها إلا بولا على بول! ماذا أفعل؟ أصبر. إلى متى؟ أنا لا أعرف.

كانت الشمس تشوي يد المتسول الهرم الممتدة، وتشوي وجه الشرطي النائم، وتشوي أقفية المسافرين الذين يبدون مستعجلين. الشمس لا تميز بين هذا وذاك، وليست كشيخ القبيلة الذي يفضل كلبه على أبي، ويعطي لقطه سردينتين أو ثلاثا، "ويعطي" لي ركلة أو اثنتين، يتبعهما بقوله:

- اذهب يا ابن الكلبة اللعينة.

كان الشيخ يموت كل مرة في خيالي، لكن، ابن اللعينة، يبقى حيا في الواقع. أبي لم يمت ولا مرة في خيالي، ولما طعنوه، مات دفعة واحدة، فراح بلا رجعة. كم تمنيت أن يتبع الشيخُ أبي، وكم تمنيت أن لا أرى وجهه الأخدودي، وكم تمنيت أن يرجع أبي ويأخذ الشيخُ مكانه. كل شيء بيد مولانا، وبيد سيدنا النبي، ووكلنا أمرنا لك يا مولاي عبد القادر الجيلاني، كما كانت أمي تقول. سمعت النساء يقلن، يوم مات أبي، أن الذين يموتون لا يرجعون، ولو كانوا يفعلون ما طلبنا من الله شيئا آخر. لن أنتظر أبي بعد اليوم، ولن أصدق أكذوبة أمي التي تقول فيها أن أبي ذهب إلى مكان ما، وسيعود بعد أيام، تماما كما كان يغيب من قبل بضعة أيام ليعود، ومعه بعض الحلوى، وبعض الأحذية المستعملة التي كنت أفرح لها كثيرا.

كان في المحطة أيضا الكثير من الجباة. كانوا يتبعون أي مسافر كما تفعل الكلاب بالكلبة الواحدة في مواسم التزاوج! يعوون بصوت عال:" ربَاطْ رباط.. كازا كازا.. وجْدَة وجدة وجدة وجدة.. فَاسْ فَاسْ فاس..." وأنا لا أفهم من كلامهم شيئا. اقترب منا واحد منهم:

- إلى أين ستسافران آ الشريفة؟

لكن أمي لا تجيبه، وأنا لا أستطيع أن أجيبه، فأنا لا أعرف إلى أين سنذهب. قد تكون أمي أيضا لا تعرف إلى أين نحن ذاهبان. فنحن مطرودان من طرف الشيخ، وقال لنا البارحة:

- اذهبا بلا رجعة، وإن سمعت أنكما نشرتما خبرا لا يسرني، فعلت بكما الأفاعيل. اغبرا عن وجهي يا سلالة العفن.

أنا أعرف أن سلالته، هي سلالة العفن، لكنني لا أستطيع أن أقول له ذلك؛ أمي حذرتني من فعل ذلك كما قلت.

الشيخ طردنا، وتستر على قاتل أبي؛ لأن أبي لم يكن ذاك المدشر مسقط رأسه، و"مقطوع من شجرة" مثلي؛ "المقطوعون من الشجر" يتوارثون هذه الصفة، وأنا ورثتها عنه. وإلى جانب كل هذا، كان أبي عاملا وفلاحا تافها. القاتل ابن الدوار، بل هو ابن أخت الشيخ. ابن أخت الشيخ قتل أبي لأنه أراد من أبي أن يعطيه سبعة دراهم لشراء علبة سجائر رخيصة، وأبي أبى أن يعطيه لأنه لا يملك الكثير، وربما لم يكن يملك تلك الدراهم السبعة حتى. ولأن ابن أخت شيخ القبيلة خنزير صغير العقل كبير الجثة يحمل معه خنجرا حادا دائما، طعن به أبي، فمات في مكان سقوطه. تمرغ المسكين كثيرا في بركة دمه، وتحلق حوله الناس، وقالوا كلمتهم الشهيرة: "اللهم إن هذا منكر". لكن الشيخ حذرهم من أن يعيدوا هذا الكلام، أو أن يذيعوه بين الناس. أزبد، وأرعد، وتوعد، وكشر عن أنيابه. حقا، الأسود لا يوقف زئيرها

أحد. تمَّ دفن أبي، وتستر الدوار عليه، وحذرني الشيخ، وحذر أمي من قول شيء ما؛ لأن مصيرنا لن يقل عن مصير أبي إن نحن قلنا شيئا. ولأن أمي درويشة لا تعرف شيئا، قالت لي أننا سنهجر الدوار، ولن نرى وجوه هذه الكلاب البرية التي تحاصرنا من كل مكان مرة أخرى.

غادرنا الدوار رجالا وركبانا. وها نحن هنا في المحطة بلا أكل، ولا شرب ولا مأوى، تماما كجراء ضالة.

- إلى الرباط يا الوالدة؟

لكن أمي لا تجيب، وأنا لا أعرف هذه الرباط التي يتكلم عنها، ولا أعرف أننا سنسافر حتى. أنا لا أعرف شيئا! كرهَنا الجابي، وكره نفسه، وغادرَنا، وهو يهرف بكلمات من ذلك النوع الذي لا أستطيع أن أذكرها بحضرة أمي. أمي لم تلتفت إليه رغم كل ذلك الخراء الذي كان يتساقط من فمه المرحاضي. فكرت في أن أسألها ما إن كنا سنسافر أم ماذا سنفعل، لكن الكلب الذي قصدنا، وعوى في وجهنا، أخافني، وأطار مني الفكرة، وكيفية السؤال. كدت أن أفعل ذلك الفعل الذي يكرهه كل الأطفال، وتكرهه كل أمهاتهم أيضا. بقيت قرب أمي التي تبدو كحبة يقطين ذابلة. ذابلة كانت أمي. ذابلة من الجوع والعطش. ذابلة من الهم والغم. تأملتها، فتذكرت يوم قالت لي:

- سأنجب بنتا أو ولدا آخر يلعب معك يا ولدي. لا تيأس.

وكنت لا أقول شيئا وقتئذ. أما الآن سأقول، لكن في داخلتي فقط، أن الله أحسن إلينا إذ لم تلد مخلوقا آخر يقتسم معنا ويلات الرحيل هذه، ويذوق معنا مرارة الجوع والعطش. مع ذلك، فأنا أتخيل الآن أمي تمسك الطفل الذي كانت تتمناه، وترضعه من ثديها الناشف. من أين سيأتيها اللبن، وهي لم تأكل منذ يومين؟! حمدت الله، لأن الفقيه السي علال كان يقول لنا في "المسيد" دائما أن نحمد الله على كل حال. وأنا أحمد الله أننا لم نمت بعد، وقد مات أبي، ومات قبله رجال ونساء كثر. وأحمد الله أن أمي لم تلد مخلوقا آخر، والنساء الأخريات ولدن، ومازلن يلدن قطيعا لكل واحدة. وأحمده على أن الكلب لم يعضني. وأحمد الله أنني لم أفعل ذلك الشيء، الذي تعرفونه، في سروالي بعد أيضا.

تراجعنا قليلا إلى الخلف لنلتصق بالجدار الذي يفصل داخل المقهى عن ساحة المحطة المتعفنة. كنا نهرب من سياط الشمس التي تطاردنا، لكنها تفتح ثغرها التنيني، وتقترب منا على مهل، وبخبث مضمر. كانت تبتلع جثثنا الهزيلة بانتشاء، ونحن نتمرغ في ألمنا دون أن نفعل شيئا. وضعية جلوسنا ستمنح لنا فرصة مشاهدة بواب المرحاض العمومي الذي لا يمد يديه إلا ليلتقط دراهم زوار "ضريحه"! كان البواب يدخن سيجارة، بدت لي من النوع الرخيص، كالتي كان أبي يدخنها، والتي كنت أشتريها له من عند العياشي ابن الزاهية الذي تنكر لجميل أبي هو الآخر، وتبرأ منا، وقال قولة الشيخ فينا. تبا له. كلبه خير منه؛ لأنه تبعنا حتى بلغّنا

قنطرة أولاد حَدُّو، ثم صار يراقبنا بعينيه اللتين كانتا تبدوان ذابلتين من الحزن ومن الجوع. كان البواب يدخن السيجارة، ويحك شعره الأشعث المغبر، ويحفر في ثقبي أنفه بمعاول يديه العشرة كلها. أمر مقزز، ومقرف، وتافه أن تراقب مثل هذا الرجل، لكن لا بأس، فأنا أيضا، لم أكن مشغولا بأمر آخر.

أخيرا، خرجت أمي من بحر سكونها. دفعتْ بقدميها إلى الأمام بعُسْر وملل. لست سائلا أمي عن مقصدها. ما علي أن أفعل هو أن أراقب كيس الملابس، وكيس بعض الأثواب القديمة التي جلبناها معنا. الكل يقول بالدوار أن أهل المدينة يسرقون. لذلك، فأنا لا أستطيع أن أفارق كِيسَيْنَا. إن حدث شيء لهما، لا قدّر الله، فقد تضربني أمي، وقد لا أجد ما ألبسه بعد ذلك الحين.

غابت أمي لحظات، وعادت معها بخبزتين كبيرتين، وأربع بيضات مسلوقات. رباه! أين وجدت أمي هذا؟! هل صارت هي الأخرى متسولة مثل أولاء النساء؟ ومثل الرجل الهرم الذي يجلس عند عتبة مدخل المحطة؟! أم أنها كانت تملك هذه الدراهم من قبل، وكنت لا أعرف؟ لا يهمني هذا كله. ما يهمني، هو أنني سأسقط على إحدى الخبزتين! كما كانت تفعل الذبابة في كؤوس شايي. وأنهشها، وأدهسها، وأسحقها، وأطحنها مع بيضتين أو ربما ثلاث، فالأمهات دائما يؤثرن على أنفسهن حين يكون ذلك لصالح أولادهن، رغم أنهن يعلمن بأن

هؤلاء الأبناء لن يكونوا إلا نعاجا تجرُّها نساءهم حين يتزوجون. لكنني أعد أمي أنني لن أكون مثلهم، إن هي أعطتني ثلاث بيضات، واحتفظت لنفسها بواحدة فقط!!

أخيرا خرجت أمي من قمقم صمتها أيضا. دارت برأسها نحوي، وقد شبعنا الآن وارتوينا، بحركة بُومِيَّة، وقالت بصوت شَوَّهَهُ فغور فاهها:

- سنذهب إلى خالتك سعيدة في بُوعَرْك، ولن نركب أي حافلة. ليس لدينا من المال ما يكفي لنركب به للذهاب إلى مكان أبعد، ولا أحد غيرها سيرحب بنا. عند خالتك سعيدة، هناك الكثير من الخضر، وهناك الخبز والطعام أيضا، وهناك ابنها الذي ستلعب معه كل وقتك.

أعجبتني الفكرة، لكنني أخشى من زوج خالتي هذه التي لا أظنها سعيدة معه، رغم أن أمي تقول أن اسمها سعيدة. أخشى أن يكون فِرْعَوْنًا أعتى من شيخ القبيلة الذي طردنا، ومن ابن أخته. صرت أكره الرجال. الرجال كلهم عدا أبي المقتول، والأموات مثله، لا أكرههم؛ لأنهم لن يفعلوا شيئا للأحياء. النساء لسن سعيدات على الإطلاق؛ لأن أمي ليست سعيدة! أخاف زوجها الذي قد لا يروقه ذهابنا إلى بيته، لكن أمي تطمئنني، وتؤكد أنه مات منذ زمان. وتحلف بسيدنا أحمد، وسيدنا ادريس، وتحلف بسماء المدينة التي نوجد تحتها، وبالخير الذي أكلناه، أنه ميت. لم يبق منه في البيت إلا معاوله التي كان يسقي بها أحواض الطماطم. أمي قد تكون كاذبة، رغم أن الأمهات توجد

تحت أقدامهن الجنة، هكذا قال السي علال، وهو يتمنى أن تكون هذه الجنة تحت قدمه فيطأها بشكل محكم كي لا يدخلها معه أحد!!

قد يكون زوج خالتي هذا مقتولا مادامت أمي تقول أنه ميت. وقد استفزتني رغبة السؤال عما إن كان هذا الرجل فعلا مقتولا مثل أبي، أم أنه خيال تخيلته أنا فقط. أمي قد تكذب هذه المرة أيضا. قد يكون زوج خالتي هذا قاتلا، فهذا احتمال وارد جدا. على كل حال، فالناس إما قاتل، أو مقتول، وفي أحسن الظروف، هناك من الناس من يقف موقف المتفرج؛ لا يَقتل ولا يُقتل!

أعرف أن أمي تنحدر من مكان اسمه كرسيف، وعرفت فيما بعد أنها خرجت من بيتها، واشتغلت مهربة للسلع بمعبر مليلية، تلك قصة طويلة ومعقدة. خالتي هذه ستكون حتما من هذا المكان أيضا رغم أنها الآن في مكان آخر اسمه بوعرك، لكنني لا أعرف مسقط رأس أبي. ما أعرفه أنه ليس من المدشر الذي طُردنا منه، وليس له فيه حبيب ولا قريب. وقد لا يكون لأبي قريب في أي مكان من هذه الدنيا التي تقول عنها أمي أنها كبيرة جدا، وتتبع قولها ب "وحق جاه سيدي النبي". كلما سألت أمي عن مسقط رأس أبي تقول أنها لا تعرف. قد تكون كاذبة كما يمكن أن تكون صادقة أيضا. ما تخبرني به دائما هو أنها عرفت أبي في مكان نسيت اسمه، وتزوجته ثم سكنا المدشر الذي لم يعد لنا الحق في السكن فيه. كان أبي إذن ذاهبا إلى ذلك المدشر ليموت فيه، أو

ليُقتل بالأحرى. وفي كل الحالات فإن الإنسان أينما ذهب؛ فإنه يذهب ليموت، أو ليَقتل، أو ليُقتل ليس إلا.

كانت أمي من قبل تشتغل في الدوار عند خالتي الحاجة منانة. كانت تغسل لها الملابس، وتكنس لها الفناء المترب، وتطبخ لها اللحم والدجاج الذي كانت تحمل منه البعض إلى البيت.

الشمس صارت الآن تزقزق فوق رؤوسنا، وتتلذذ أكثر، وبشكل أفضل بشيّنا. أمي عزمت أمرها على الذهاب إلى أختها، قالت لي:

- سنركب طاكسي من هنا. إياك أن تتقيأ مرة أخرى كما فعلت في الصباح حين كنا قادميْن من المدشر.

أمي محقة، فالتقيؤ في السيارة ليس جيدا؛ لأنني قد أوسخ ثوب رجل، والرجال يضربون، ويصرخون، ويغضبون، خصوصا في وجه طفل مثلي، أو في وجه امرأة، يقال عنها ضعيفة، مثل أمي. لذلك، طلبت من أمي أن تفرغ الكيس البلاستيكي من الجوارب التي تسكنها منذ البارحة، وتضعها في الكيس الكبير رفقة الملابس الأخرى تحسبا لأي طارئ. ركبنا الطاكسي، وسرنا نحو تلك الخالة التي لا يعلم أحد ما كان ينتظرنا في بيتها..

إلى الشمس..

رواية بديعة

كان عزيز من قبل -وحين أقول من قبل فإنني أقصد؛ قبل العثور على مخطوطته التي ظلت تشغله مؤخرا- لا يأخذ حاسوبه الشخصي إلى مكتبته إلا نادرا. وكان يعزو ذلك إلى كونه لا يحتاجه أثناء العمل، وقد علقت أكثر من مرة على قوله "أثناء العمل" بأن عمله لا يشغله كثيرا عن قراءة كتاب ما، أو الاشتغال مستعملا الحاسوب، إلا إذا توصل بدفعة من الكتب التي تتطلب منه بعض أعمال الترتيب والتبويب والإصلاح والتنظيم.. كان كل مرة يجيب أن ثمة بالمكتبة ما يشغله عن كل ذلك، وقد فهمت بأن عمي حسن -صرت أنا أيضا أناديه بعمي حسن- هو الشخص الذي كان يعنيه. وقد كان يخبرني أنه قلما يسرق قراءة بعض الصفحات في الفواصل التي تكون بين مستملحات عمي حسن، والتي يحدثها خدمة زبون ما أو أداء صلاة من الصلوات. كان عمي حسن ينشغل هو الآخر، أحيانا، بقراءة القرآن أو كتاب أذكاره، كما حكى لي عزيز، مما يستغل هو بدوره تلك الفرصة لقراءة صفحات من كتاب ما.

كان عمي حسن رجلا يملأ فراغات عزيز كلها، وقد باح لي أكثر من مرة أنه صار يحب مهنته الجديدة التي كان يبدي إزاءها بعض الاعتراض في بداياته، أو حين اقترحت عليه ذلك. عمي حسن هو فاعل وصانع

كل تلك المحبة إذن. لم يسبق لعينيّ أن وقعت على وجهه، لكنه كما يبدو، وكما يصفه عزيز، فهو شيخ جاوز الستين، وجهه أخدودي ومجعد نوعا ما. يميل إلى القصر أكثر مما يميل إلى الطول. كثير الكلام، لكن لا يقول أي كلام؛ تنبعث من فمه قصص وحكايات ونكات تخلو من الكلام البذيء وحديث الفجور. يكثر من لبس الجلاليب وطرابيش الصوف والبلغة. لم ولن يكون عمي حسن غريبا عني، الشيوخ في المغرب يتشابهون كما تتشابه العجائز أيضا، نفس طريقة اللباس ونفس طريقة الكلام ونفس الاهتمامات، عدا بعض الاستثناءات والاختلافات التي لا مناص منها. هذا ما كنت ألاحظه في الريف كثيرا، وفي تطوان أيضا، وقد أكون مخطئة في هذا التعميم وهذا الحكم.

قلت أن عزيزا لم يكن يصطحب حاسوبه الشخصي إلى دكانه من قبل. أما الآن، فقد صار يفعل ذلك. وإلى جانب هذا، فقد أخذ معه قاموس المعين "اسباني-عربي" ليوسف رضا، والذي كان يزين خزانة صغيرة ببيتنا، وقد كان يقصده عزيز أحيانا للبحث عن معنى بعض المصطلحات. إضافة إلى ذلك، فقد أخبرني أنه يستعين بقاموسين آخرين معروضين للبيع في دكانه أو مكتبته. كان يضطر أحيانا إلى اللجوء إلى تصفح بعض القواميس التي تتيحها بعض المواقع على شبكة الإنترنيت. مذ استقامت المخطوطة بين يدي عزيز، وهو منكب على الاشتغال على الترجمة في المكتبة، ما إن تسنح الفرصة، وفي البيت

أيضا. كنت أساعده أحيانا بطلب منه، في مراجعة النص العربي حين ينهي ترجمة جزء من الأجزاء.

L'homme classique

حكاية علاء بشيري

قبل أن أعود إلى عزيز أو "آخر الكتبيين" وما استجد في أمر مخطوطته التي يعمل على ترجمتها، والتي صرت أنتظر جديدها، وربما ينتظرها غيري من أصدقائه الافتراضيين، أود أن أتحدث قليلا عن ما قمت به في الأسبوعين الماضيين، وأنا في ضواحي تاونات. في الحقيقة، كان الجو غائما طول المدة التي مكثتها بمقر عملي هذه المرة، يتخلله أحيانا هبوب رياح تصيبني بقليل من التطير والضجر، ويتخلله هطول أمطار خفيفة بين الفينة والأخرى أيضا. لم يكن بد من البقاء طول فترة الراحة داخل البيت، ذلك أن الأجواء لا تساعد على التجوال ولا الخروج، بل إنني لم أشاهد مُبَارَيَيْ الريال هذه المرة حتى، والتي انهزمت في إحداهما، للأسف الشديد.

لهذا السبب، فقد ارتأيت أن أفعل أشياء أخرى أملأ بها فراغي بل فراغاتي التي تصل أحيانا إلى يوم كامل أو يومين. إلى جانب أنني قمت هذه المرة ببعض الترتيبات الضرورية في بيتي، والذي كان في أمس الحاجة إليها، وقمت بالاغتسال أكثر من مرة نظرا لقلة ما يمكن أن يفعل! وإلى جانب أنني شاهدت أكثر من برنامج ثقافي وترفيهي، وشاهدت أكثر من مباراة معادة لبطولات كل من المغرب وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا، ونمت أكثر من اللازم، فقد قمت أيضا بقراءة مقال

"صدام الحضارات" الذي سمعت عنه الكثير من قبل، وظل أحد أصدقائي يتحدث عن ذلك أياما بل شهورا منذ مدة، إلا أن فرصة قراءته لم تكن سانحة كلما فكرت في ذلك. وللتأكيد، فقد قرأته ثلاث مرات، محاولا وراء ذلك أن أضبط بشكل جيد ما كان صامويل هنتنجتون يتحدث عنه وما كان يعنيه ويرمي إليه. بعد ذلك، بدا لي أن أبحث عن محاضرة إدوارد سعيد "خرافة صدام الحضارات" التي كان صاحبي يطبخ لي رأسي بالحديث عنها أيضا. قرأت أيضا رواية "كفاح طيبة" لنجيب محفوظ، والتي كانت أيضا ضمن ما كنت أريد الاطلاع عليه.

إلى جانب هذا، قمت بمشاهدة فيلمين، أحدهما فرنسي للمخرج رومان بولانسيكي بعنوان "عازف البيانو". يحكي الفيلم قصة أو سيرة عازف البيانو البولندي اليهودي فالديك سبيلمان. وآخر أمريكي بعنوان "الميل الأخضر" وهو من بطولة توم هانكس ومايكل كلارك دنكان، وهي قصة مستقاة من رواية ستيفن كينغ التي تحمل العنوان نفسه.

حين قصدت بيت والدي نهاية هذا الأسبوع، فضلت أن أقصد، صباح يوم الأحد، مقهى فلورانس المحاذي لمكتبة باريس في منعطف زنقة المجاهدين؛ بالضبط، أمام مركز الأمن الوطني سابقا. النادل يعرفني والقهوجي أيضا، كنت أقصد هذا المقهى أيام تحضيري لأطروحة نيل

الماستر. كنت أقضي داخله، أحيانا، اليوم كله، وبعضا من الليل أيضا، إن اقتضى الحال. أقصده قبيل العاشرة، ولا أغادره إلا بعد أن يسدل الليل ستاره وزيادة. اليوم، لم يكن جلوسي فيه لتحضير شيء ما يتعلق بمتابعة دراستي، ولم تكن علي فروض أو تحضيرات أو أشغال متعلقة بالدراسة الأكاديمية، التي كنت قد تركتها منذ سنة، ولم يكن أيضا لمتابعة مباراة من مبارياتي المفضلة. كل ما هناك، هو أنني رغبت في احتساء كوب قهوة سوداء، وأنا متصل بشبكة الإنترنيت حيث سأتذكر محاضرة إدوار سعيد التي ترد على مقال هانتنجتن، فأبحث عنها، وأجدها، وأظل أشاهدها بشغف، وأنا أتابع الترجمة المثبتة على الشاشة بكثير من الانتباه والاهتمام. وللرجوع إلى أمر الفيلمين، فقد أعجبني "الميل الأخضر" أكثر من الآخر، وأعجبت أكثر ببطليه، ذلك أنني أعرف توم هانكس من قبل، وقد سبق لي أن شاهدت أكثر من فيلم من أفلامه، والتي تكون في غالب الظن جيدة إن لم تكن رائعة. فيما بعد، وضعت ضمن ترتيباتي قراءة رواية ستيفن كينغ التي بني عليها الفيلم، بعد أن أبحث عنها، وقد أسأل عزيزا عنها، فقد تكون ضمن ركام الكتب التي يبيعها في تطوان، لكنني بالتأكيد سأبحث عن نسخة مترجمة إلى العربية إن كانت متوفرة.

للإشارة أيضا، فقد وضعت ضمن ترتيباتي أن أقوم بزيارة عزيز متى ما قمت بالسفر إلى تطوان. سألته من قبل، فأخبرني أنه يتواجد في حي

العيون، ذي البنيان القديم. فهمت من خلال كلامه أن العيون جزء من المدينة القديمة في تطوان. وسأسأله أن يصف لي مكان تواجد مكتبته في العيون بالضبط حين سأعزم على زيارته.

بعد قرابة ساعة، أنهيت مشاهدة محاضرة إدوارد سعيد، وصرت أتجول في دروب الشبكة العنكبوتية، كما يحلو للبعض أن يسميها، دون موجه. تذكرت عزيزا ومخطوطته. في الحقيقة، قلما صرت أنساه. حين يغيب عن ذهني، فذلك لا يكون إلا لدقائق أو ساعات قليلة ليس إلا. صار عزيز ومخطوطته يأتياني في المنامات، وأفكر فيها وأنا ماض إلى عملي، أو وأنا أعد الغذاء، بل حتى وأنا أستحم أحيانا. صرت أيضا أتخيل شكل عزيز، وشكل مكتبته، وشكل حي العيون الذي لم يسبق لي أن زرته.

حين تذكرته ومخطوطته، عن لي أن أعرج على الفيسبوك لأرى ما إن كان ثمة جديد. لم أكن أضع عزيزا ضمن من سينشر جديدا، خصوصا أن نشر الجزء الأول لم يمض عليه أسبوع بعد. أعلم جيدا المتاعب التي تسببها الترجمة، خصوصا حين يتعلق الأمر بترجمة شيء ما يشتمل على مفردات ومصطلحات غريبة، وقد سبق لأحد زملائي، الذين كانوا يقتسمون معي نفس الغرفة، أن اشتغل في بعض بحوثه الجامعية، حيث كان بصدد التحضير لكتابة أطروحته لنيل الدكتوراه على ترجمة بعض النصوص الطويلة من الفرنسية إلى العربية.

إلا أنني وجدت أن عزيزا قد أتى بالجديد، وذلك بنشر الجزء الثاني من المخطوطة، حسب ما سماه هو. وقد كتب قبل ذلك أنه عكف عكوفا على الترجمة دون كسل ولا ملل..

الطريق إلى النعيم..

سيارة الأجرة تطوي الطريق طيا، وتأكل منه كما كنت من قبل آكل الخبزة الكبيرة. لا شك أن هذا السائق لن يترك لمن بعده طريقا!! سائق الطاكسي يتحدث عن الكثير، ويحدث الكل عن كل شيء. من راديو السيارة، يصدر غناء يقول فيه صاحبه: "حُبِّي الجميل". حاشاكم!! فهذا الكلام قبيح! وغير صالح ليذكر أمام أمي، وبحضرة عائلة محترمة! لكن هذا السائق اللعين يفرض علي وعلى أمي أن نسمع هذا الكلام القبيح سويا، رغم أنني متأكد أن بالها غير حاضر معنا. لا شك أنها تفكر في أختها التي تنوي الذهاب إليها، وتفكر في الخبز الذي نبحث عنه، وتفكر في خم الدجاج الذي خلفت فيه ديكا صغيرا واحدا. كانت تنثر له كل يوم شيئا من الحَبِّ، حب أي شيء، لا يهم، فالمهم هو أن ينسى الديك جوعه، ويكفَّ عن النقر على باب الكوخ القصديري. كانت أمي تقول،كلما طلت على ديكها، أننا سنذبحه في عيد الفطر المقبل. عيد الفطر لم يصل، وأبي مات، وأمي لم تأخذ معها الديك؛ لأنها كرهت الدوار والدجاج، وكرهت كل شيء، حتى نفسها، وربما أنا أيضا.

أمي تفكر في كل ما تركناه وراءنا، رغم أن ما تركناه لا يساوي شيئا، وتفكر أيضا فيّ أنا، وربما في أبي المقتول أيضا. في الحقيقة، لم أكن ألحظ أن أبي يحب أمي، أو أنها تحبه، وربما كانا كذلك، وأنا لم أكن أعرف؛

لأني في آخر المطاف أبقى صغيرا لا يعرف شيئا، أو على الأقل لا يعرف الكثير.

لو كنت أكبر بقليل، لكان من الممكن أن أطلب من السائق أن يطفئ مذياع سيارته ليتوقف عن التفوه بهذا الكلمات التي لا يسمعها إلا الرجال والنساء الذين لا يستحون، لكنني صغير، وأمي أنثى لن تقدر على الكلام في حضرة الرجال!

يا لسعدي! لم أعد صغيرا، هكذا قال سائق الطاكسي. لن أركب على فخذيْ أمي مستقبلا. أنا أتلذذ بهذا رغم أن أمي لا يعجبها الأمر؛ لأنها تريد أن توفر المزيد من الدراهم. لا بأس، فهي لن تعرف بفرحي هذا الذي يحزنها؛ لأنني لن أقول لها عني شيئا.

أتحسس جلد الكرسي الذي تتكور عليه مؤخرتي الصغيرة، فأفرح أكثر، وأتلذذ أكثر، وأتذكر قول السائق لأمي:

- يا سيدتي، هل هذا الذي معك ما زال صغيرا؟!

ويستيقظ في أحشائي شيطان أخرص، فأشجع السائق. أقول له، لكن في داخلتي:

- معك حق، لقد كبرت الآن.

لكنني متأكد أنني ما زلت صغيرا، وأعرف تماما أنني ما زلت أتبول في سروالي ليلا، وأحيانا نهارا أيضا، حين يضربني أحد، أو حين لا أجد مكانا أبول فيه كما هو الحال في محطة الناظور. أنا ما زلت صغيرا،

على الأقل بالنسبة لأمي، وأبي، وشيخ القبيلة، ولقاتل أبي. لكنني كبير بالنسبة للسائق، وقد أكون كبيرا أيضا بالنسبة لأحد آخر مثل خالتي الحاجة منانة التي كانت ترسلني لشراء قنينة الغاز الكبيرة، وتقول لأمي: "إنه كبير، ويستطيع أن يحملها في العربة اليدوية." أمي كانت تشفق علي، ولا شك أنها كانت تبكي في داخلها أيضا.

أمي كانت تتباكى أمام السائق، وأمام الركاب، وصارت تقول، بعد أن حاججها وأقنعها بأن القانون لا يسمح بذلك:

- يا ولد الناس، يا ولد الخير، أنا لا أملك أكثر من هذا، لا أستطيع أن أدفع عنّا نحن الاثنين.

وأنا لا أعرف إن كانت أمي تكذب، فأنا لا أعرف كم تملك من المال. وحتى لو كنت أعرف، فما علي أن أفعل في مثل تلك الحالات إلا أن أغلق فمي كي لا يدخله الذباب، وكي لا يدخله شيء آخر من غير الذباب، كَيَدِ أمي مثلا!

السائق لا يلين، وقد يكون كل السائقين مثله. لا يهم، فأنا أريد أن لا يلين لكي لا أجلس على فخذ أمي، لكن يلين مكانه رجل كان الوقار يبدو على محياه. ساعد أمي لتدفع ثمن تذكرتي. فرحت كثيرا لكوني سأجلس على جلد الكرسي لأول مرة.

كنت أسمع كثيرا أن الأطفال الصغار لا يركبون على الكراسي كالرجال، بل يجلسون على أفخاذ أمهاتهم، أو آبائهم، أو أفخاذ أي واحد من

أقربائهم. فرحت، وأحببت الرجل الوقور كثيرا؛ لأنه جعلني أجلس على الكرسي مثلي مثل أي رجل منهم، وأخرج أمي من ويلات دفع الثمن أيضا. لقد أسعدنا الرجل الوقور معا، أنا وأمي.

اهتزاز هيكل الطاكسي الذي يحدثه شيء ما في السيارة كان يدغدغ كل أطرافي. كان يدغدغ أكثر مؤخرتي التي تلتصق بالكرسي، ويدغدغ ذلك الشيء الذي يقابل المؤخرة من جهة الأمام أيضا! كان يدغدغني حد الضحك، لكنني كنت أكتم الضحكة كل مرة، فالضحك في حضرة الناس أمر سيء وغير مقبول! إن فعلت، قد يظنوا بك شيئا، وقد يضربوك إن هم اعتقدوا أنك تسخر منهم. هكذا كان أبي يقول قبل أن يموت، أما الآن، فلم تعد لديه القدرة على قول أي شيء. لقد كف عن الكلام بشكل نهائي. لم يبق في هذه الدنيا من يحدثني سوى أمي، وربما هناك غيرها، كالفقيه إن عدت إلى المسيد، المعلم إن أنا ذهبت إلى مدرسة، أو ربما غيرهما كخالتي إن هي استقبلتنا وأعطتنا الطعام والمسكن.

كان السائق يتحدث عن أشياء كثيرة لا أفهمها. هناك الكثير من الأشياء التي لا أعلمها في هذه الدنيا. أواه، يحق لأمي، ويحق للكل أن يقولوا عني صغيرا لا يعرف شيئا. هؤلاء الكبار يعرفون الكثير!

ابتلعت الطاكسي كل الطريق، ولم تترك لغيرها من السيارات شيئا! قال الرجل الوقور لأمي:

- ها هي كَمْبَرْتُو يا امرأة، هنا تريدين النزول؟

كانت أمي غافية. كانت تسند رأسها على كتفي الصغير، وكان اللعاب يسيل من ثغرها. يمكن للواحد أن ينام في السيارة، خصوصا إن كان متعبا مثل أمي. أيقظ أمي ما قاله الرجل، لكنها تبدو أنها لم تفهمه، أو ربما لم تسمعه. كان السائق يركن السيارة إلى حاشية الطريق المتربة. أمي لا تعرف المكان الذي سننزل فيه أم ماذا؟ أمي مدوخة من النعاس. لا تعرف أين نحن الآن حتى. قال السائق بعصبية بادية:

- يَالَّاهْ. يا سيدتي، إنك تُؤَخِّرِينَنَا، وتُضيعِين وقتي.

لكن رغم غضب السائق وعينيه المنتفختين، لم تلق له أمي بالا. كانت حقا نائمة، وكنت قربها لا أعبأ بشيء. لم أتقيا، وأمي، لا شك، ستكون سعيدة بي، ولن تغضب بعد اليوم إن أنا ركبت سيارة ولم أتقيأ. هؤلاء الأمهات تسعدهن أشياء بسيطة، وتافهة أحيانا. لكن من يسعد بسرعة، وبالقليل، قد يغضب بسرعة، وبلاشيء أيضا.

أمي لا تغضب كثيرا، حتى وإن كسرت شيئا من أوانيها المطبخية. حدث أن كسرت فنجان حساء من الفنجانيْن اللذين كانا في بيتنا، لكنها كتمت غيظها، وهدأت أعصابها، ولم تقل لي شيئا، ولم تقل شيئا لأبي أيضا. لا شك أنها خشيت أن يغضب، إذ لم نكن نملك إلا

فنجاني حساء فقط؛ واحد له وواحد لأمي، أما أنا فكنت أشرب معها في فنجانها وبملعقتها. لم يكن أبي يملك الكثير، وأحيانا لم يكن يملك شيئا ليشتري به الفناجين والكؤوس. تُرى أي فنجان كسرتُ يومئذ؟ فنجان أمي؟ أم فنجان أبي؟ لا شك أنه فنجان أمي. الرجال فوق كل شيء، والنساء دائما تحتهم! أشياء الرجال لا يمكن أن تضيع، والرجال لا يضيع من حقهم شيء، ولا يذهب منهم شيء، إلا إذا ذهبوا كلهم، كما حدث لأبي الذي ذهب بكامله، ولن يرجع رغم أن أمي كانت تقول لي أنه سيرجع يوما ما، حين كنت أسألها ما إن كان أبي سيعود من هذا الموت الذي تتحدث عنه.

أمي عوضت الفنجان المكسر من عند جارتنا خالتي فاطمة. هكذا كانت أمي تفعل دائما، وكذلك النساء الأخريات المسكينات البئيسات الفقيرات السيئات الحظ. الزمان صعب كما تقول أمي، ولكي نتغلب عليه، علينا أن نستنجد بالآخرين اللطفاء، وأحيانا بآخرين كيفما كانوا، حتى وإن كانوا ذئابا يترصدون كبواتنا للفتك بنا، حتى وإن كنا نرى حتفنا في الاستنجاد بهم؛ لأنه دائما تبقى هناك فرصة النجاة، وإن كانت ضعيفة. جارتنا، خالتي فاطمة، لم تكن ذئبة، فهي على الأرجح كانت نعجة مسالمة. لكن أمي لم تكن تأكلها كما تفعل النساء الأخريات!

الطَريق إلى بيت خالتي سعيدة كانت متربة ومغبرة كثيرا. لكن حذائي لا يظهر عليه أثر الغبار؛ لأنه كان بلون التراب. أمي تحمل بكفها اليسرى كيسا على ظهرها، وتتأبط الآخر الصغير مستعينة بساعدها الأيمن. تسرع في مشيها كأنما تخاف أن ينتقل بيت أختها من مكانه. لكن رغم ذلك، كان كفها الأيمن يمسك بكفي الصغير. تسرع أمي أكثر. تعرق كفُّها. تتزحلق كفي، فأنفك من قيدها. أتقهقر برهة، فتنظر خلفها لتتأكد من ملاحقتي لها، وتزجرني بين الفينة والأخرى:

- أسرع يا المسخوط. بسرعة، خالتك تنتظرنا.

خالتي لم تكن تنتظرنا، وربما لم تكن تنتظر أحدا. على الأرجح كانت تلوك الهم مثل أمي ما دام زوجها قد مات كما تقول. أمي تتعب، فتسرق من الزمن لحظات صغيرة من الراحة، ثم تعود لتحمل الكيس الظَّهْرِيّ، وتتأبط الإِبْطِيّ، وتمسك بكفها المشقوق كفي الصغير. كفي تنزلق كل مرة. تتعب أمي، فتنسى وجودي برهة. أتأخر خطوات، تنظر كل مرة لتتأكد من وجودي ومشيي خلفها. أطأطئ رأسي كي أطمئنها، لكنها تكرر لازمتها كل مرة:

- أسرع يا المسخوط. بسرعة، خالتك تنتظرنا.

على جنبات الطريق المغبر توجد كثير من الحقول التي تسيجها الأشجار أو الأشواك. كانت تباشير الطعام الذي حدثتني عنه أمي تتراءى لي، لكن من يدري؟ فقد لا يكون الأمر كذلك. ما علي إلا أن أتبع أمي،

وأكف عن الكلام، وعن أسئلة الصغار التي تضجر الكبار. فعلا، لقد كنت ألهث خلف أمي كجرو صغير لا يتقن المشي السوي، وكانت قدماي تتشابكان فأسقط أرضا. أمي تضطر للوقوف عن مشيها السريع. تضطر للرجوع إلي لمساعدتي على الوقوف، ونفض الغبار، وإسكاتي أيضا ببعض الخبز الذي تبقى من حصتها. أقضم الخبز بانتشاء. أنظر وراءي لأتحقق من عدم تعقب أحد لنا. أمي لا تخاف من المشي وحدها، لكنني أخاف ولا أُشعرها بذلك.

الصغار يخافون، ويأكلون، ويفعلون ذلك الشيء في المراحيض، وفي سراويلهم أيضا، ولا يعرفون شيئا، ويطرحون الكثير من الأسئلة. أمي كانت غاضبة مني طول الطريق، وكانت تلعنني، وتلعن أبي أيضا. تسبني، وتسب الرجل الذي تزوجها وتلعن نفسها أيضا. تلعن أجدادي وأجدادها، وأجداد كل من وما لا يروقها. أضحى الغضب يفعل بها الكثير، لكن أمي كانت تحبني رغم ذلك. لولا ذاك، لما أعطتني خبزة كاملة وثلاث بيضات مسلوقات، واحتفظت لنفسها بواحدة فقط! ولو لم أكن عزيزا على قلبها، لكانت باعتني، أو ربما تخلت عني. أنا لا أعرف ما إن كنت أحبها؛ لأنني لا أعرف كيف أحبها، وما يعني أنني أحبها حتى.

أمي تقول لي دائما بعد أن تتفرس جيدا في ملامحي، وتمسح مخاطي الذي يطل من ثقب أنفي، وتمسد على شعر رأسي الأشعث:

- اكبر يا ولدي كي تخدم أمك، كي تعينها على عواصف الزمان.

ثم تقبل خدي الذي يلتصق به دائما شيء من المرق، أو من التراب، أو من أي شيء آخر. أنا لا أقول لها شيئا. قد أكبر، وقد أموت قبل أن أكبر. قد أكبر، ولا أخدمها، لكنني حتما أريد أن أخدمها. قد تكون كل النساء ينتظرن أولادهن ليكبروا ويخدموهن ويساعدوهن.

بيت خالتي الذي أشارت إليه أمي من بعيد يبدو ككوخ مهجور، لكن أن يملك الواحد منا كوخا مهجورا خير من أن لا يملك شيئا. أمي متلهفة لِلُقْيَا أختها التي ظلت تقول لي طول الطريق أنها تحبها كثيرا. دَنَوْنَا أكثر من الكوخ الطيني. جرو خالتي ينبح بصوت مبحوح. دجاجاتها التي تطل من خلال فجوات القصب، الذي بَنَتْ به الخم لها، تصدر قوقآت تنذر باقتراب شيء غريب من البيت. أمي تحاول إسكات الجرو المبحوح، تبحث بِتَفَانٍ عن حجرة تلقمها إياه، لكنها لا تعثر إلا على كومات الطين. تعطي له بقوة. يعوي أكثر. نباحه هذا يملأ دنياي حزنا. أنا مثله أنبح حين كان الأطفال يضربونني بالدوار، وينعتونني بالغريب ابن الغريبة. الأطفال المضطَهدون والكلاب ينبحون سويا.

إلى الأقمار الثلاثة..

رواية عزيز

حين عدت إلى البيت يومئذ، وكان ظهيرة ثلاثاء من ثلاثاءات شهر ماي، وجدت بديعة في الفناء. لن أقول وحيدة. حتما، جنينها الذي شارف على شهره السابع كان معها، بل لقد كان معها غير ذلك. وجدتها على عتبة إكمال كتاب "الأيام"، ووجدت رفقتها رائعة "أَنْدَرْ أُكَشُوذْ" (تابوت ،أو قبر، الخشب) لخالد إِزْرِي. كانت الأغنية تنساب برفق وصوت خفيض جدا من التلفاز الذي ضبطته بديعة على الإذاعة الوطنية، قسم أمازيغية الريف.

جررت الكثير من التعب والكثير من حكايات عمي حسن إلى البيت يومئذ أيضا، والكثير من حكايا مرتادي حي العيون وتجاره. المستملحات لا تنضب في مثل تلك الأحياء العتيقة. نويت أن أناقش، مع بديعة، الكتاب الذي تشارف على إنهائه. كانت قد مضت سنين على قراءته، وبقيت أتذكر بعض فصوله. كنت أبتغي وراء نقاشه استرجاع البعض مما تلاشى وغاب عن ذاكرتي، لكنني وجدت نفسي أخوض في الحديث عن الأغنية التي كانت بصدد الاستماع إليها والاستمتاع بها أيضا. لم تكن بديعة قد سمعت عنها من قبل، بل لم تكن تعرف الكثير عن الفنان الذي يؤديها باحترافية عالية حتى. قدّمت لها نبذة قصيرة عنه، وشرحت لها بعض الكلمات التي استعصى عليها

فهمها أو التقاطها بشكل صحيح، ووعدتها بعد ذلك بأن أجلب لها مجموعة من أغانيه.

وافقت بديعة على ذلك، وصمّمت في داخلتي أن أضع أغانيه في قرص مدمج، وأقدمها لها لتستأنس بها متى ما شاءت. وزدت فضولها اشتعالا بذكر بعض أغانيه الرائعة أيضا من قبيل"أَصمِّيطْ "(الريح) و"ثَقَسِّيسْتْ" (الحكاية) و"ثْمُورْثْ إِنُو" (أرضي).

بعد ذلك، حيث لم يتبق من كتاب "الأيام" إلا بضع صفحات، وضعتْه بديعة جانبا، تأملتني، وسألتُها:

- كيف وجدته؟

- جيد، حتما لن أقوله بأنه كتاب سيء.

- رباه، ماذا تقولين يا بديعة؟ إنه العميد. وأنت بنفسك نعتته بهذا اللقب حين سلمت لك الكتاب. كيف تقولين أنك لن تصفي الكتاب بالسيء؟!

- هكذا فقط. أعجبني الكتاب حقا، وثمة من يكتب بطريقة أجمل، وتروقني أكثر.

- هذا أمر حتمي، لكن لا تنسي أن طه حسين كان أعمى، ولكي يصل مثله إلى ما وصل إليه ليس بالأمر الهين ولا اليسير.

- أما هذه فنعم. من ينكر أنه من الصعب على صاحب عاهة أن يصل إلى ما وصل إليه هو. لكن لا تنسى يا عزيز أنه ثمة غيره من فعل

نفس الشيء، أنا لن أتحدث عن حفّاظ القرآن والمتون، وهم كثر في الريف، وأنت تعرف هذا.

- حتى فقهاء الريف العميان لن أحتقر جهدهم وبراعتهم وقوتهم في الوصول إلى ما وصلوا إليه. أنا لن أنكر هذا أيضا.

- أعرف، لكن ما سأتحدث عنه أمر آخر. ثمة من هم أعلى من العميد، وأنت تعرفهم. خذ المعري مثلا، ألم يفقد بصره وهو دون سن الخامسة؟ ووصل إلى ما وصل إليه من الشعر والفسفلة والأدب.

- صحيح، لكن هذا لا ينفي أن العميد له الفضل الكبير على الأدب العربي خاصة والأدب عامة. ألا توافقين؟

- أوافق، لكنني أود فقط أن أسرد عليك آخرين هم في نفس المرتبة التي وصل إليها أو هم، ربما، أعلى. هذا بشار بن برد كان أعمى، والكميت بن زيد كان أصما، وقد نقشا اسميهما بمداد الذهب على صفحات تاريخ الشعر العربي. زد على ذلك الأديب مصطفى صادق الرفاعي. وهذا بتهوفن الذي يعرفه القاصي والداني. أتفهم ما معنى أن يفقد الشخص سمعه، ويبرع في الموسيقى والتأليف الموسيقي؟ إنه شيء عجيب يا عزيز. صاحب "الالياذة" "والأودسية" أعني هوميروس كان أعمى أيضا. أما أمهم وسيدتهم وأعجوبتهم، فهي هيلين كيلر، صماء عمياء بكماء، وصلت إلى تعلم الكثير من لغة، ووصلت إلى درجة

التأليف. في الحقيقة، لا يحق لنا أن نطلق عليهم هذه الصفات. في الواقع، نحن من أصيب بالصمم والعمى والبكم.

وافقت بديعة على ما قالت في الأخير: وأنهيت الأمر بابتسامة مطولة سائلا:

ماذا أعددت اليوم؟

- ألم تشم شيئا.

- شممت. لكن..

- لكن ماذا؟

- لم ..

- لحم في طاجين. أعد نفسك للغذاء. يبدو لذيذا، وأنا أعرف أنه غذاءك المفضل.

همت أن أنصرف، فأضفت:

- بديعة، ثمة شيء جديد، نسيت أن أخبرك به. على الأرجح، تناسيت قليلا. قلت في نفسي أنني سأخبرك حين نكون على طاولة الغذاء، لكن ديدان إخبارك بذلك لم أستطع أن أقاومها. قلت:

- أنهيت الجزء الأطول من مخطوطة خالد، أكثر من خمسين صفحة بقليل. تعبت كثيرا في ذلك، لكنني استمتعت بالمقابل. وقد نشرتها. بعد الغذاء، سأطلعك عليها. وأتركك تقرئينها بعد "الأيام".

ابتسمت بديعة لذلك، وتحمست للاطلاع على جديد مخطوطة خالد، كما صارت هي تسميها. أما أنا، فقد كنت أسميها أحيانا: "رواية الجراء الآدمية الضالة".

L'homme classique

حكاية علاء بشيري

كانت رغبتي في إطْلاع زملائي وأصدقائي على مخطوطة عزيز تحدوني منذ البداية؛ أعني منذ شرع عزيز في نشر ما يترجمه من أجزاء.

كنت جالسا يومئذ في الركن الأيسر من مقهى النرجس قبالة التلفاز الذي ينتصب أمامي. أنتظر بداية المباراة التي بقي على انطلاقها أزيد من ساعة. المقهى نصف مملوء، وكان الرواد يتدفقون الواحد تلو الآخر. بالقرب مني، حجزت كرسيين لصديقيّ عبد المجيد وعمر، حيث شاءت الأقدار أن ألتقي بعمر وتجمعني به جلسة على نفس الطاولة، بعد فراق دام أكثر من سنة.

كان المقهى من قبل محلا لتخزين المواد الغذائية، كان في ملكية أحد تجار المدينة الذي أصيب بالإفلاس نتيجة تجارته في المخدرات. حين علمت بذلك، قلت: "الوَاحَد مَاخَصُّوشْ يْخَلَّطْ النعاج مع الذئاب." حين كنت صغيرا لم أر هذا المكان إلا مرة أو مرتين. أتذكر أنني تعجبت كثيرا لحجم السلع التي كانت داخله، إذ صادفت لحظتئذ وقوف شاحنة كبيرة ملأى بالسلع يتم إنزالها وتخزينها في المحل. وقد تساءلت أيضا عن حجم النقود وعددها التي يملكها صاحب المحل، بينما أبي لم يكن يشتري من تلك المواد الغذائية إلا القليل الذي يكفينا، وقد لا يكفينا أحيانا. كان أبي في تلك الأيام بائعا متجولا للأسماك. يجوب بدراجته

النارية ربوع المدينة وأحياءها الهامشية، قبل أن يحصل على مكان قار بالسوق البلدي حيث يمتهن تجارته إلى يومنا هذا. لكنه صار الآن محدودب الظهر، ولم يبق في رأسه إلا القليل من الشعر، رغم سنه الذي لم يتجاوز الستين بعد.

كان عمر من رفاق الطفولة، يسكن نفس الحي الذي أسكنه ويقتعد على نفس الطاولة التي كنت أقتعدها بمدرسة المختار السوسي. نلعب سويا، ونعبث سويا، ونعد تمارين الرياضيات والتعبير والنشاط العلمي سويا في بيتهم أو في بيتنا. كانت أمه إنسانة لطيفة. تقدم لنا الحلويات والشاي وتتركنا نشاهد التلفاز بعد ذلك، لكن أباه لم يكن بتلك الدرجة من الطيبوبة. بقينا على ذلك حتى انتقل إلى فاس رفقة عائلته نظرا لطبيعة عمل أبيه الذي كان يشتغل في سلك الأمن الوطني على ما أعتقد. لم يكن عمر ابن مدينتي، بل كان قاطنا عابرا،كما سيكون سكنه في فاس أيضا. حسب ما حكى لي، فإن أباه ينحدر من بني ملال، وأمه من نواحي إفران.

اليوم، بعد أن أخبرني بذلك، قام بزيارة إحدى خالاته التي تسكن المدينة، وقد طلب مني أن نلتقي لنستعيد ذكريات الطفولة والصبا سويا. كان عمر آنذاك يشتغل محررا قضائيا بمدينة زرهون بعدما حصل على الإجازة في الحقوق من جامعة مكناس. أما عبد المجيد، فلم يكن بينه وبين عمر أية علاقة، لكنه كان في علاقة وطيدة معي. دامت

صداقتنا لأزيد من عشر سنوات. على الأقل، من نهاية سلك التعليم الإعدادي. كان عبد المجيد آنئذ موظفا بمحكمة تازة بعد أن حصل على الماستر في التاريخ وانخرط في نضالات الجمعية الوطنية لحملة الشهادات العليا المعطلين. استغرق في الرباط نحو سنة من الاحتجاج، وتمت الاستجابة لمطالبهم. في الحقيقة، وكما يبدو، لم تكن دراسته تتناسب مع طبيعة الوظيفة والمهمة اللتين أنيط بهما، لكن عبد المجيد لم يكن يمانع. حصوله على عمل يحفظ ماء وجهه هو هدفه الأسمى الذي حصل عليه. وكان يردد دائما: "هذه ليست غلطتي أنا."

بعد أن قمنا بالنبش في ذاكرة الطفولة والصبا والمراهقة، وبعد أن شاهدنا المباراة التي لم تكن بالروعة التي توقعتها، قمت رفقة كل من عمر وعبد المجيد بجولة حول المدينة. نسلي بها أنفسنا ويسترجع عمر من خلالها ذكرياته، ونتبادل أطراف الحديث بعيدا عن ضوضاء المقهى، وإزعاج الرواد. أخبرني عمر بالكثير عن حياته الجديدة بمولاي ادريس زرهون وعن مهنته التي كان يتوقعها ويحبها. وأخبرني برحيل أبيه إلى مدينة الجديدة، وأنه يقوم بزيارة أسرته كلما سنحت الفرصة بذلك. زيارة خالته، كانت بطلب من أمه التي لم تسمح لها مشاغل الحياة زيارتها منذ غادروا تازة.

في تلك اللحظات، عنّ لي أن أستغل فرصة تواجد هذين الصديقين لأخبرهما بأمر المخطوطة، وقد كنت على علم بهوس عبد المجيد بقراءة

المذكرات. بعد حديث مطول عن ذلك، وكانت تباشير الليل قد صارت تتبدى في الأفق، ذكرت لهما الاسم الذي يحمله عزيز على الفيسبوك. كان عبد المجيد جد مسرور بهذا المستجد، وهذا شيء توقعته بقوة. ودعناه، واصطحبت عمر معي ليقضي الليلة بعد أن حاول جاهدا رفض استضافتي له، وهو الأمر الذي رفضت أن أتنازل عنه.

مجنون السِّيَر..

حكاية عبد المجيد

ما إن زودني صديقي علاء بالحساب الفيسبوكي لصديقه الافتراضي "آخر الكتبيين"، قصدت حاسوبي الشخصي، وقمت بالبحث عنه. حين وقعت عيناي على اسم الحساب المبحوث عنه، قمت بتصفحه. كان "آخر الكتبيين" يضع على الإطار المخصص للصورة الشخصية صورة بالأبيض والأسود لإرنستو "تشي" غيفارا، وفي المكان المخصص لصورة الغلاف، يضع صورة تمثل منظرا عاما لمدينة ما. حين سألت عنها علاء، أخبرني أنها مدينة الحسيمة التي ينحدر منها عزيز.

تجولت لدقائق في دروب صفحة "آخر الكتبيين" الخاصة، فوجدت داخلها صورا كثيرة لكتب ومناظر طبيعية ومقاومين وزعماء للحركات التحريرية على مر التاريخ، وفي كل أصقاع العالم من أمثال مهاتما غاندي ونيلسون منديلا ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وتشي غيفارا وغيرهم. إضافة إلى كل ذلك، ثمة أشياء أخرى وجدتها منشورة على صفحته.

فعلا، وجدت ماوعدني به علاء، إذ نشر "آخر الكتبيين" أجزاء من المخطوطة التي يترجمها. الحق يقال، كنت مهووسا بقراءة المذكرات، وذلك ما دفع علاء إلى إخباري بأمر نشر المخطوطة على الفيسبوك. وقد عرف علاء ذلك من خلال مصاحبتي له طول فترة التعليم الثانوي والجامعي، ونحن مسجلين في شعبة التاريخ سويا. كنت قد قرأت أيام

الثانوي كتاب مذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم، ورواية الخبز الحافي لمحمد شكري، ثم بعدها قرأت له زمن الأخطاء. قرأت، في تلك الفترة أيضا، كتاب الأيام لطه حسين، وقد كان هذا الأخير باقتراح من أستاذ اللغة العربية آنذاك السي الداودي عبد الغفور.

في فترة الجامعة، قرأت الكثير من الكتب التي لها علاقة بالسير الذاتية والمذكرات. أذكر منها مذكرات هدى شعراوي وسيرة حياتي لعبد الرحمن بدوي، وقصة حياتي العجيبة لهيلين كيلر وحياتي مع الجوع والحب والحرب لعزيز ضياء، والسيرة الذاتية لمالكوم إكس، والبحث عن الذات لأنور السادات، وحياتي لأحمد أمين. وقد وجدني علاء، مؤخرا، في مقهى شهرزاد أقرأ مسيرة طويلة نحو الحرية لنيلسون منديلا.

أنا الآن أنتظر، مثلما يفعل علاء، ما ينشره "آخر الكتبيين" من أجزاء مخطوطته. وقد وجدت حين زودني صديقي بالاسم الفيسبوكي أن صديقه نشر إلى ذلك الوقت ثلاثة أجزاء؛ اثنان مر عليها ما يقرب من الشهرين، أما الثالث فقد كان حديث العهد إذ لم تمر عليه إلا ساعات..

نقطة ضياء وسط السواد..

-1-

دقّت أمي الباب القصديري بلطف، لا صوت يعلن وجود الحياة. البيت يبدو من الخارج خرابا لم يعد يسكنه شيء عدا دجاجات خالتي، وجروها المبحوح. دقّت بقوة، أطل الولد الذي قالت عنه أمي أنه ابن خالتي. عاد إلى الداخل. سَمِعْتُه ينادي، وهو يلهث، ويتنفس بعنف ومشقة:

- أمي.. أمي.. هناك غرباء بالخارج.

سمعت صوت أقدامها، كانت خالتي تقصد باب بيتها مهرولة. طلت بلهفة. وقعت عيناها على أمي، فارتمت في أحضانها:

- الله.. الله.. الله يا أختي. كثير.. كثير.. كثير من الغياب.

- ها أنا يا أختي. ذائبة في مياه الدنيا العكرة كما أيامي الفائتة.

- أين سيدي أحمد؟ لم يأت معك؟

أمي لن تجيب هذه المرة. تبوس رأسها، تقول خالتي:

- حاشاك، حاشاك يا أختي.

تنظر إلي. تنسى أمي. تضمني بحرارة. تقبل خدي. تمرر على شعري الأشعث، ثم تسأل أمي:

- هذا هو الولد الذي كنتِ قد قلت لي أنك ولدته عند القابلة فاطنة بنت علي؟

– كلا يا أختي. ذاك الجنين مات، ولم أجد كيف أخبرك بذلك. لو بقي حيا، لكان أكبر من هذا بكثير.

– والتوأمان؟

– مات واحد منهما، وبقي هذا الذي ترين.

– أجرك عند سيدي ربي يا أخيتي. أجرك عند ربك.

أنا لا أعلم أن أمي ولدت أحدا غيري. أمي لم تقل لي شيئا عن هذين الأخوين اللذين ماتا؛ توأمي والآخر.

تعود خالتي لتسأل ثانية:

– وسيدي أحمد؟

تنزل من عيني أمي قطرات من الدمع، تسأل خالتي باندهاش:

– لابأس عليك يا عزيزتي..؟!

أمي تؤجل الإجابة. ربما تريد أن تنفرد بخالتي، وتقول لها كل الذي أعرفه، وكل الذي لا أعرفه أيضا.

فعلا، لقد وجدتُ خالتي تملك ما يكفينا نحن الأربعة من الخضر والخبز والشاي والقهوة وحليب الماعز، ومن أشياء أخرى. لم أكن أعرف خالتي من قبل، ولم يسبق لي أن رأيتها، لا في بيتنا، ولا بيت آخر، ولم تتكلم أمي عنها من قبل، ولست أدري لم؟ يبدو كل شيء غامضا في حياة أمي وأبي! كل شيء غامض. لم أفهم شيئا من حيواتنا كلنا. خالتي كانت غنية مقارنة معي ومع أمي، رغم أنها لا تسكن إلا كوخا طينيا

مسقوفا بالقصب والطين. وجدت أن زوجها غير موجود، لكن أن يكون ميتا أو غائبا فقط، فهذا لا يعلمه إلا الله، وخالتي، وربما أمي أيضا. ووجدت عندها الابن الذي وعدتني أمي باللعب معه. ما لم تخبرني به أمي، أو ربما ما لم تعرفه، وقاله لي الطفل الأشقر الذي كان يلعب معنا، أنا وابن خالتي وباقي أطفال الدوار، هو أن الذي سمَّته ابنا لخالتي لم يكن كذلك. لقد أتت به خالتي من دار "الخيرية" لتربيته ليس إلا. قال لي "الطفل الأشقر" أن خالتي لا تلد، لذلك لم تنجب أطفالا! يا إلهي، كم يعرف "الأشقر" من الأشياء والحيل والمتاهات..! شيطانا كان، وسيظل، لكن كان يقول لي ذلك، وينظر إلى ابن خالتي الذي كان يلعب بعيدا عنا ببضعة أمتار. يهمس في أذني ويحذرني أن لا أخبر ابن خالتي أو امه أو أمي بهذا الأمر؛ لأن أمه هي التي قالت له هذا، وحذرته هو الآخر من قول هذا للغرباء!

كان ابن خالتي يحمل اسم سعيد. قد يكون له اسم آخر، وربما أسماء، مادامت خالتي لم تلده بنفسها. وربما سمته كذلك تيمنا باسمها هي، وبالسعادة التي لم تنلها بعد، وقد يكون هو من نالها!

كوخ خالتي كان يتوسط حقلا شاسعا من الطماطم. كانت تعمل في الحقل نفسه، وكان زوجها، الذي قالت عنه أمي أنه مات، يعمل فيه أيضا. كانت خالتي حقا غنية! تأكل وتشرب وتحمد الله تعالى مثلما نصحنا الفقيه السي علال أن نفعل تماما. خالتي لم تتلمذ على يد

الفقيه السي علال، لكن قد يكون هناك فقيه آخر غيره يقول للنساء وللأطفال بأن يحمدوا الله، إذا ما وجدوا كسرة خبز يقتاتون عليها، حتى وإن كانت يابسة، بل حتى ولو لم يجدوا شيئا على الإطلاق.

صاحب حقل الطماطم جَادَ على خالتي بكوخه، ويجود عليها بالطماطم، وخالتي تزرع بعض الخضر الأخرى، كل واحدة في موسمها، وراء الكوخ الذي تقاسمته معنا بعد أن سمعت أخبار أمي، وبكت لها طويلا. لكن خالتي ليست كأمي التي قالت أننا سنهرب من الدوار، ولن نرى وجوه تلك الكلاب البرية، بل إنها انتفضت، بعد أن بكت كثيرا، وقالت:

- لن نسكت على هذا المنكر يا أختي. آو..!!

- الله يهديك يا أختي. أنت تعرفين؛ الشيخ سيقتل لي ابني، وسيقتلني أيضا معه.

- لا، لا، أفوضى هذه يا أختي؟

- حفظك الله يا أخية، أتركيني في خير وسلام معه. الرجل مات، ولن نرده بما تريدين أن تفعليه.

خالتي تريد أن تصفي حساباتها مع الشيخ، رغم عدم وجود حسابات معه، ومع غيره أيضا. وأمي تستسلم كما النعجة ذات الأذنين المتدليين، وأنا كذلك أستسلم؛ لأنني أعرف الشيخ الوحش، وخالتي هذه لا تعرفه. لكن من يدري، فقد يكون ما تريده خالتي ذا نفع. تبقى أمي محقة،

فلا شيء يقدر على إرجاع أبي من موته ليعمل عند الحاج قدور في حقوله التي تسيج الدوار. لا شيء يستطيع أن يرجعه ليشتري البطاطس والبصل من سوق الثلاثاء، ويرسلني لشراء علبة سجائره الرخيصة من عند العياشي ابن الزاهية.

أمي تطلب من خالتي أن تلعن الشيطان، وخالتي تقول:

– الله يلعنه ويخزي أباه، ولكن ما علاقة الشيطان بهذا الشيء يا أختي؟!

أمي لا تجيب لأنها تعلم أن الشيطان قد لا يكون له دخل فيما تريد أن تفعله خالتي، وقد يكون له دخل فيما فعله ابن أخت الشيخ، وما فعله الشيخ نفسه. كان على الشيخ وابن أخته أن يلعنا الشيطان، أو يلعنا نفسيهما قبل أن يلعنهما الناس كلهم. قد تلعنهم خالتي بدل أن تلعن الشيطان الذي تتحدث عنه أمي.

في الليلة الأولى تعشينا أرنبا مطهيا في طاجين مع خضر كثيرة. كانت خالتي تأكل وتقول: "كان سيدي علي، وتعني بذلك زوجها، يحب الأرانب، وهو من طلب مني أن أربيها هنا. لقد أبقيت عليها، رغم ما تحدثه من حفر وخراب، حفظا لذكراه." وتردف كلامها ببكاء خفيف. ثم تمسح ما جادت به مقلتاها من قطرات ماء العين المالح. تعود إلى الطاجين الذي التهمناه أنا وأمي التهاما. أسرق نظرة إلى وجه أمي فأجدها تبكي هي الأخرى. لست أدري ما إن كانت تبكي موت

زوجها، أم أنها تتعاطف مع خالتي التي أصابها ما أصابها. أنا لا أعرف كيف مات زوج خالتي. كل ما تأكدت منه هو أنه فعلا مات، فلا يمكن لخالتي أن تبكي، وتنعي زوجها، وهو لم يمت. أقول في نفسي: "إن كان زوج خالتي مات ميتة الله، فلا بأس، فكلنا سنموت" كما كانت تقول لي أمي حين أدركتُ أن أبي قُتل وأبكي. فعلا، كلنا سنموت يا أمي، لكن ليس ضروريا أن يقتلنا أحد كما فعل ابن أخت الشيخ بأبي. قد يكون قتل أبي أبشع من موت زوج خالتي. أمي هي من يحق لها أن تبكي حتى تموت، أو يموت البكاء، أو يموت فيها الكثير. أما خالتي، فتبالغ في بكائها على رجل مات منذ مدة لا أعرفها. موت أبي وقتله ما زال طريا طازجا. أبي لم يقتحم الدود جثته الخشنة بعد. أما زوجها هي، فقد يكون الدود الآن أنهى وليمته فيه.

أنا لا أقول شيئا. ألتهم البطاطس اللذيذة، وأفترس فخذ الأرنب الذي أكرمتني به خالتي. ابن خالتي لا يفعل مثلي؛ يأكل بأدب وروية. خالتي ترقب طريقة أكلي بعد أن حسبتها منشغلة ببكاء زوجها الآفل، وأمي تعلم أن خالتي لم ترقها طريقة أكلي، فتومئ لي أنْ كُلْ بلطف. النساء بالنساء أعلم! تقول ذلك أمي بعينيها، وشفتيها، وجبهتها، وكل ما فيها، لكنني لا أبالي بها، وبما ومن حولي. ابن خالتي يضحك حين يكتشف ما يدور على طاولة العشاء، وربما يضحك بلا سبب. رغم ذلك، لا أبالي به وبأمي وبأمه أيضا. الأسد لا يبالي بمن حوله حين

يحصل على فريسة بعد جوع شديد. صحيح أنني لست أسدا، بالكاد أستطيع أن أبلغ جشع جرو جوَّعه صاحبه، أو جوَّعه الكل.

الليلة الأولى التي سأنامها ببيت خالتي سأتقاسم فيها الفراش مع ابنها. خالتي سمعتها تقول لأمي أن ابنها يخاف، فلا بد أن تنام قربه، وبما أن أمي معها، ستناماني في غرفتها، وستتركني أنام مع ابنها. كان الجو ساخنا، مما دفعني إلى الارتماء على الأرض الإسمنتية تاركا لابن خالتي فراشه الذي فعل فيه ذاك الشيء الذي ستضربه عليه خالتي حين تتسلل أشعة الشمس إلينا من شباك النافذة الحديدي. أما أنا، فلم تكن ليلتي البُوعَرْكِيَّة الأولى ليلة افتتاح موسم السقي الليلي!! كانت ليلتي هانئة وهادئة. وكان النوم في بيت خالتي الطيني رائعا. لا شيء يُسمع، لا أنين العابرين، ولا ضجيج الساهرين، ولا عويل السافلين. نباح كلب خالتي وحده كان يهزم صمت المكان، وسكون الليل. بيت خالتي والمبيت فيه يشبهان بيوت آيت سعيد، والمبيت فيها. الدجاجات نامت بعد المغرب بقليل، والأرانب نائمة هي الأخرى. كل شيء نائم بجوار بيت خالتي. الدنيا تموت عندها ليلا؛ لا جيران محاذين ملتصقين بها، ولا طريق تمر عليها السيارات التي تلوث هدوء الدنيا، وتكسر أجنحة السكينة. الليل عند خالتي لذيذ كلذة الأرانب المطهية في الطاجين، وكطعم قطع الحلوى التي كان يبتاعها أبي من سوق الثلاثاء.

الأصباح هي الأخرى لذيذة كبراريد الشاي المنعنع، وأباريق حليب ماعز خالتي التي تحلبها كل صباح. اللذة تسيج حِمى خالتي رغم فقر المكان والمسكن، ورغم بؤس الوجوه والملامح. كانت أشعة الشمس كل صباح تقتحم غرفتنا التي تتوسطها النافذة ذات الشباك الحديدي، فتدغدغ أشيائي اللحمية. تضحكني وتشعل في داخلتي فُرْنا يفور. كل شيء جميل في الدنيا إلا الشيخ وابن أخته، وبائع السجائر الذي تنكر لأبي، وانتصر لفعل ابن أخت الشيخ. قد يكون على حق، فأن تنتصر لرجل قوي حي خير من أنت تقف في صف رجل ميت، أو في طابور امرأة أرملة وطفل يتيم لن يحسن المسير في متاهات الحياة حتى. كل شيء جميل في دنيا خالتي، حتى ابنها المدلل جميل، إلا أنه يضايقني بدلاله وخنوثته، ويضايقني خوف خالتي المبالغ فيه عليه أيضا، رغم أنني أعرف جيدا أنه ليس بابنها حقا. النساء لا يبالغن في حب من هم ليسوا بأبنائهن. خالتي تحب ابنها هذا كما هو، وتخالف عادة النساء في ذلك. وأنا؟ أتحبني أمي كما أنا أيضا؟

لا أتذكر يوما أن أمي قالت لأبي أنها تحبه، أو أن أبي هو الذي قال لها ذلك. ولا أتذكر أيضا أنهما معا قالاها لي يوما. كل ما هناك هو أن أبي يشتري كل سوق أسبوعي حلويات كانت في خيالي نادرة، وكانت أمي تقلي لي بعض البيضات أحيانا، أو تسلقها أحايين أخرى، وكانت تضمني وتعدني بشيء جميل سيأتي في ما بعد. الوعود التي كانت

تكررها أمي على مسامعي لم تأت بعد، وستموت أكثر بقتل أبي. ربما، لن تعيد أمي تكرارها مرة أخرى. كل الذي هناك هو هذا الضم، وهذه الحلويات، وهذه البيضات، وتلك الوعود التي لا أستطيع أن أسميها كاذبة. أمي قد لا تكذب، بل قد يخونها الحظ فقط. كل هذا كان شيئا محسوسا أكثر من الكلمة التي تقولها خالتي لابنها.

كل هذا ليس بالأمر المهم. المهم هو أن الحياة الآنية عند خالتي عذبة وجميلة، رغم أنه لم يمض عليها أكثر من يوم واحد. على الأقل، ما وعدتني به أمي عند خالتي كان واقعا غير مزيف؛ الخضر ولحم الدجاج والأرانب وبعض الفواكه والخبز الطري، وابنها الذي سألعب معه طول الوقت كان واقعا ملموسا محسوسا.

-2-

الديك الذي يتربع على عرش حوش خالتي يتهادى إلي صياحه كل صباح. لم تكن أمي تملك ديكا يصيح بشكل جيد كديك خالتي. أمي، كانت تملك في الغالب دجاجات يبضن بيضا قليلا، فتلعنهن أمي صباح مساء، وتبصق في وجههن، وتتكلم معهن بعصبية، رغم أنها تعلم يقينا أن الدجاجات والديكة وغيرها لا تفهم كلامها. كان أبي أيضا يؤنب أمي على هذه الدجاجات التي تضيع في تربيتها وقتها، وتضيع بعض الكيلوغرامات من الشعير أحيانا، ولا تبيض بيضا كثيرا. كانت أمي تهدئ أعصابه كل مرة، وتقول:

- ننسى بتربيتها بعضا من الملل والكلل يا رجل.

لكن أبي لم يكن يعترف بهذه التفاهات. كان يقول لها أن الواحد منا يجب عليه أن ينشغل بما فيه الفائدة، ويردف قائلا بصوت مسموع جدا:

- لِّي مَا فِيهْ النَّفْع اذْفَعْ.

تمر المشادة الكلامية بينهما بإنزال العشاء الناضج، فيهوي عليه أبي كما تهوي الصقور على كتاكيت خالتي الحاجة منانة، كما كانت تحكي لأمي. كانت خالتي منانة تتباكى قدامها، وأمي تهدئ من روعها، وهي تلعن هذه الحاجة التي تبكي على الكتاكيت، ولا تحمد الله على ما بقي لها. أمي لا تبكي بتاتا رغم أنها لا تملك كتاكيتا، ودجاجاتها لا يبضن

الكثير، وأمي لا تملك البيض الذي ستحضنه هذه الدجاجات أصلا. أمي، ولا شك، كانت تتمنى أن تمتلك كتاكيت تخطفها الصقور على الأقل، وتتباكى هي الأخرى، أو تبكي في حضرة نساء الدوار. أن تملك كتاكيت تخطفها الصقور خير من أن لا تملك شيئا على الإطلاق، كما تقول أمي.

كانت أمي تحاول أكثر من مرة لجمع بعض البيضات لتضعها في مكان تحضنها دجاجة من الدجاجات، لكن أبي كان يسأل دائما ما إن كان في دلو البيض بيضة يفطر بها ليغادر البيت نحو حقل الحاج قدور. كان أبي يغتال كل بيضة تقع عيناه عليها، وكنت آتي من بعده لأغتال ما تبقى. أمي، رغم كل ذلك، لا تتذمر ولا تمل. عجبا للصبر الذي أودعه الله وقذفه في قلوب هؤلاء النساء!

كانت أمي سعيدة بإسعادنا، أبي وأنا. كانت لا تتذمر كثيرا، على عكس أبي الذي يلعن الحاج قدور كل مرة سبعين مرة أو أكثر قليلا. لست أدري لم كان أبي لا يحب الحاج الذي وفر له العمل؟ وسهل عليه أمر إطعامنا؟ لست أدري لم تكون الأمور في الحياة أحيانا مقلوبة؟ كنت لا أعرف، وما زلت، لكن لا ضير ولا عيب، فالصغار كلهم لا يعرفون شيئا، أو لا يعرفون الكثير على الأقل. حين أكبر، سأعرف أكثر، وسأعرف الكثير. سأعرف لم كان يلعن أبي الحاج الذي شغّله، وسأعرف لم قتل ابن أخت الشيخ أبي، ولم لم تتحدث أمي عن حقها

كما تقول خالتي، ولم تريد خالتي هذه الحديث عن هذا الحق، وسأعرف لم يمد المتسول يده يوما كاملا عند بوابة المحطة للمسافرين، ولم ينام الشرطي ولا يقوم بعمله، ولم تتعب تلك النساء، ولم يتعب الكثيرون. سأعرف الكثير الكثير، على الأقل حسب ما تقوله أمي. وهل تعرف أمي كل هذا؟ هل تعرفه هي التي كبرت الآن؟ وخالتي، أتعرفه؟ وأبي الذي مات، أكان يعرف هذا؟ أبي حين كان حيا، أما الآن، فلن ينفعه ما كان يعرفه من قبل.

سألت أمي أكثر من مرة من قبل، حين ماتت جارتنا خالتي عائشة، عن المكان الذي يذهب إليه الذين يموتون. قالت أنهم يذهبون إلى الله، وهل ذهب أبي إلى الله أيضا؟ تقول أمي: "نعم". أتأملها باستغراب، وهي تعصر دمعة أو دمعتين من مقلتيها. أشفق عليه، وأشفق عليها، وأشفق على نفسي أيضا. الأحياء هم الذين يكتوون بنار الرحيل، أما الأموات فيذهبون إلى الله. قلت بصوت شبه جهوري: "أن تذهب إلى الله خير من أن تبقى مع هؤلاء الذين يقتلون الآباء، ويقتلون بذلك نساءهم، وأبناءهم من أجل سيجارة رخيصة"، ثم لا تقول أمي شيئا، ربما لأنها لا تملك شيئا تقوله، وربما تملك الكثير ولا تريد قوله. يبقى أبي أفضل منا في هذه المسألة، فأن يذهب إلى الله خير من أن يبقى مع ناس يحفرون له كل يوم سبعين ألف حفرة عساه يسقط في واحدة، وخير له أيضا من أن يبقى بغلا طيعا ذلولا في حقل الحاج قدور. أمي

تنظر إلي باسغراب هي الأخرى؛ ربما لأنها تشفق على جهلي، وربما ترى فيّ أشياء لا أعرفها. أبي ذهب إلى حيث ذهبت جارتنا خالتي عائشة، ولن يعود بتاتا، فكل الذين يذهبون إلى أي مكان يعودون، إلا الذاهبون إلى الله!

يبدأ الصباح عند خالتي ببراد الشاي، أو بإبريق حليب الماعز، والقهوة التي قالت لأمي أنها لا تشتريها، بل يأتي بها ابن سيدها الحاج عبد الرحمن من بلجيكا. أمي تستغرب، وتغبطها، ربما، على على الخير الكثير، وتسأل باستغراب:

- كم يجلب لك من أكياس القهوة؟

تجيب خالتي بحماس زائد:

- كل صيف يأتي بالكثير. يعطي لي ما يكفي لسنة كاملة تقريبا.

لكنني لا أضمن لخالتي هذه المرة أن تكفي لها تلك القهوة سنة كاملة! أنا وأمي جروان ضائعان جائعان سنأتي على كل شيء، أخضرا كان أو يابسا، حلوا أو مرا، أصفر كالشاي، أو أسود كقهوة بلجيكا تلك. سنأتي على القهوة، وعلى حليب الماعز، وعلى حقل النعنع المغروس بالجوار، وعلى البطاطس والطماطم. سنحلب الدجاجات التي تبيض البيض اللذيذ! وننهش الديكة والأرانب التي تجود بها أيضا، وكل الأشياء الأخرى التي لم أر بعد. تبقى خالتي كائنا كريما لا يمل هو الآخر. خالتي كانت أما لنا معا، أنا وأمي.

يبدو أن الصيف، هذا اليوم، يريد أن يريحنا من حره قليلا. كان الصباح غائما، ولم تكن دجاجات خالتي نشيطة كالعادة، وكذلك عنزاتها كانت. وحدي كنت منتشيا، ونشيطا، وربما ابن خالتي أيضا. سمحت له أمه ولي أن نذهب خارج الحِمى للعب. بعيدا بعض الشيء، ذهبنا. ابن خالتي يعرف الطفل الأشقر الذي يسكن رفقة أبيه وأمه وثمانية إخوانه وأخواته. الأشقر هو "الجني" الذي قال لي كل ذلك العجب عن ابن خالتي. كم كان يعرف من الأشياء ذاك الأشقر اللعين! حين رأيته لأول مرة، بدا لي عاديا، عاديا جدا، رغم أن ابن خالتي كان يقول لي قبل أن ندق على باب دارهم، ويخرج إلينا أبوه السمين متبوعا بثلاثة صغار لا يتجاوزون ركبة أبيهم في الطول، أنّ الطفل لطيف ورائع. لقد كان رائعا بالنسبة لي، لكنه يبقى كائنا كارثيا. نحن الصغار نعرف عنا أننا لا نعرف الكثير، لكن ذاك النمس كان يعرف الكثير الكثير. حقا، لقد كان أكبر من ابن خالتي ومني، لكن رغم ذلك يبقى صغيرا بالنسبة للكبار. يبقى صغيرا.

في البدء، قال الطفل الأشقر أن هنالك ساقية كبيرة غير بعيدة عن دارهم يمكننا أن نلعب في ماءها ونستحم أو أن نسبح هناك إن أشرقت الشمس وسخن الجو. تحمست كثيرا، وكذلك فعل ابن خالتي. الوديان المائية شيء جميل ورائع. في الطريق، كانت عناقيد العنب تتدلى، ليس

كأثداء الكلبات الضالة، بل كأثداء معزات خالتي! وكانت كفّا الطفل الأشقر تتطلع كل مرة لِتَغْتَالَا واحدا منها. ابن خالتي الساذج كان يحذره كل مرة من أن الناس قبيحون، وسيضربوننا جميعا إن أمسكونا نسرق عنبهم. الأشقر لا يبالي بشيء، ويقول بكل ثقة:

- هذا خير الله. كلنا نأكل منه. نحن الأطفال كالطير!

يصمت ابن خالتي. أفعل مثله. أتأمل الأشقر. يضيف، وهو يتمطط إلى عنقود آخر:

- وهل يوجد على الأرض من يقول للطيور: لا تأكلي؟

ابن خالتي لا يجيب، وكذلك أفعل. ألزم الصمت، رغم أنني أعرف أن الناس يقولون دائما للطير لا تأكلي من قمحنا وشعيرنا، ويتأففون دائما، ويشكون، ويتذمرون من الطيور التي تجتاح حقولهم. لطالما حمل أبي قوارير بلاستيكية، وقطع أثواب متهالكة إلى حقل الحاج قدور ليصنع بذلك فزاعات تخيف الطيور التي تعزم على الأكل من حقوله.

يضيف الأشقر:

- نحن طيور على هذه الأرض المنسية، نأكل من كل شيء، كل شيء نجده في الطريق، أو على قارعته.

بالنسبة لي، يعجبني أن آكل ما يوجد في الطريق، وما يكون على أطرافه، وما يكون في جيوب الناس أو أفواههم حتى، إن اقتضت الضرورة. ابن خالتي وحده ينغص علي نشوة الاتفاق مع الأشقر فيما

بفعله. وحده يجبرني أن ألوذ بالصمت، وأغرق فيه أحيانا. وحده يستطيع أن ينقل كل كبيرة وصغيرة إلى خالتي وإلى أمي. وحده يستطيع أن ينقل تفاصيل التفاصيل ليعبث بصورتي النقية عند خالتي التي تستضيفنا. ابن خالتي أوْلى من الأشقر على كل حال، أولى أن أتفق معه، وأكون على هواه. يبقى الأشقر غريبا حتى وإن اتفق معه هَوَايَ، واتفقت معه في كل شيء تقريبا؛ أَكْل العنب، والذهاب إلى الوادي، وسرقة شيء آخر أيضا، والآتي أجمل وألذُّ!

في الطريق إلى الوادي، عثرنا على نصف خبزة قمحية ملقاة على الأرض. ارتمى عليها الأشقر. مسح ما علق عليها من غبار، ومن حصى بِكُمّ قميصه. أيرمي الناسُ الخبزَ في الطرقات؟!

- انظروا إلى الخير، أليس هذا خيرا؟ أنتركه؟!

يقول الأشقر.

قسمها إلى ثلاث قطع ليست بالمتساوية! مد لي حصتي. احتفظ بواحدة له، وأعطى الأخرى لابن خالتي. لكن ابن خالتي تأفف، وقال:

- خخخخخخخ، أنا لا آكل خبزا عثرنا عليه في الطريق. خخخخخخ..

الأشقر يأكل كل شيء، وأنا أيضا؛ نأكل الخبز الذي عثرنا عليه، ونأكل العنب العفن، ونأكل حتى ما أكلت منه الكلاب والقطط الضالة. مد له الأشقر الخبز ثانية، لكن ابن خالتي ظل رافضا ما يعطيه.

قطعة الخبز كانت تتجول عليه بعض النملات أيضا، لكن لا ضير.
يظل ابن خالتي عنيدا، يضيف:
- أنا لا آكل ذلك، ولو قتلتني يا ابن خالتي.
أرد عليه في سري:
- أنا لن أقتلك؛ لأنك ابن خالتي العزيز، وخالتي عزيزة أيضا؛ لأنها تكرمني وتكرم أمي، لكنني يا ابن خالتي سآكل الخبز الذي لم تأكله بدل أن أقتلك!
وكذلك كان؛ اقتسمنا، أنا والطفل الأشقر، حصة ابن خالتي ليس بالتساوي ثانية؛ الحصة الكبرى دائما من نصيبه. شبعنا بشكل جيد. سيمنح لنا ذلك الفرصة للبقاء في الوادي طول اليوم لأن الشمس سوف تدفئ الجو، وأنا لم أسبح في مكان كذاك. من قبل، كنت أسبح رفقة أطفال صغار مثلي، سنهم لم يكن يتجاوز الست سنوات، في بركة ماء عكر يأتي إليها من عين، قيل لنا عنها أنها بعيدة.
كان ابن خالتي يريدني أن نغادر كل مرة مدعيا أن أمه ستبحث عنه، وستعاقبه على ذلك، وقد تعاقبني أنا أيضا، ويدعي أنه جائع أحيانا. رغم تهديداته، وإخافتي بأمه، لم أرد أن ألين له ولرغباته. خصوصا وأن الطفل الأشقر كان يغمز لي بالبقاء، ويقول لي أن الجوع سوف نسكته بالعنب الذي سيسرقه من هناك؛ مشيرا إلى حقل مجاور. حقول العنب

تلك تغريني أنا أيضا. الخير ملقى في كل جانب، وأنا أعتقد أنه لا أحد يلتقطه، فلِمَ لا نلتقطه نحن معشر الجراء الضالة؟

سرقنا ثلاثة عناقيد. كانت الظهيرة مناسبة لكي لا يلحظ أحد تسللنا إلى البستان. وحدنا نتقافز في الساقية الكبيرة كضفادع طائشة. وحدنا ننهش العنب الذي يتطاير ماءه من أفواهنا المتسخة. ابن خالتي، أكل هو الآخر. حين لا يكون لك خيار، لابد من أن تنصاع لمن يفرض عليك الانصياع. أنا وأمي، انصعنا للشيخ الذي أمرنا بالرحيل والأفول عن دواره، وقد ترغمنا خالتي على أن ننال من ذاك الشيخ إن لم تلعن الشيطان الذي تطلب من أمي أن تلعنه. كثيرا ما انصاعت للكثيرين وللكثير من الأمور. حين يكون الآدمي رقما ضائعا تافها تائها لا بد له من الرضوخ ليستمر في العيش. لا بد له من أن يلحس معاطف الآخرين، ويمسح الغبار على أحذيتهم. إن اقتضت الضرورة، قد يفعل شيئا أقبح وأشنع من هذا، شيئا لا يستطيع أن يتفوه به الصغار أمثالي! لا بد للصغار والتافهين أن يتسربلوا برداء الانحناء والمسكنة.

ابن خالتي قوي في بيته، ضعيف أمام الأشقر، وضعيف أمامي أيضا. كنت دائما قويا بهذا الأشقر اللعين. سبحنا حتى شبعنا السباحة، وسبح ابن خالتي هو الآخر رغم أنه في البداية كان يخشى على نفسه من اللاشيء. أكلنا العنب، وزدنا، وعدنا إلى البيت نجر أذيال التعب

الذي سيجعلنا ننام دون أن نأكل العشاء الذي أعدته خالتي وأمي مما تبقى من أرنب البارحة.

لم تقل أمي شيئا عن غيابنا طول اليوم، ولم تنبس خالتي ببنت شفة. كان ابن خالتي دائما يريد أن يشي بشيء سيء لأنال ما أنال من الإهانة من كلتا الأُمَّيْن. كان اللعين اللقيط يفشل كل مرة. يفشل الطفل الذي يباع ويشترى ويعطى! تفو على سلعة العدم! أكلنا شيئا آخر قبل النوم، ولم نر بعضنا البعض إلا حين تهادت خيوط الشمس الصباحية إلى غرفتنا وداعبت أفخاذنا العارية الصغيرة.

-4-

لم يكن الصباح الموالي للعب كما الأيام الفائتة:

- اذهب أنت وابن خالتك إلى الخم.

قالت أمي بحزم لا يمكن أن أجد في ثناياه نفحة مزاح أو هزل. لم أكن أعرف لم تطلب أمي مني ذلك:

- ماذا نفعل هناك، أمي؟

- تنظف أنت وهو الخم هذا اليوم.

لكن، لم لا تقوم أمي أو أختها بهذا العمل؟! نحن صغار، والصغار لا يعرفون شيئا. أليست أمي هي التي تقول هذا؟! أليست هي من علمتني أن أصمت، وأن لا أقول شيئا في حضرة الكبار؟! أليست هي التي كانت تأخذ مني شيئا كنت أنوي به فعل عمل ما؟! وتقول لي مؤنبة:

- انزل "الزبل" من يديك، أنت مازلت صغيرا على العمل.

وهل صرت الآن كبيرا؟! قبل أيام، قال السائق لأمي أنني لست صغيرا. هل صدقته أمي؟ واعتقدت ذلك فعلا؟! لكن خالتي تقتل كل هذا التأويلات، وتقول:

- يا ولدي، سقف الخم ليس عاليا، ونحن لا نستطيع أن نقف فيه منتصبتين. أنتما ما زلتما صغيرين تستطيعان فعل ذلك.

تضيف خالتي بنبرة الاستعطاف:

- نظفا ما استطعتما. لا تجهدا أنفسكما.

هممت أن أفعل ذلك بحب وشغف كبير. إنه شيء عظيم أن يشركك الكبار في حياتهم، رغم أن خالتي قالت مرة أخرى كلاما ذكرني أنني فعلا ما زلت صغيرا. أنا لا أريدني أن أبقى دائما صغيرا يعبث مع الصغار، وصغيرا لا يعرف شيئا، وصغيرا لا يتقن شيئا إلا اللعب. إن أبي كان يهمس لي في أذني، ويقول:

– اكبر يا ولدي. أنت ستصير رجلا عظيما. يجب أن تكون كذلك.

لم يكن أبي كما أراد لي أن أكون؛ لو كان كذلك لما تمنى لي أن أكون رجلا عظيما، ولربما قال لي: "لتكون عظيما مثل أبيك." تُرى كيف يمكن وصف هؤلاء الرجال العظماء؟ ولم هم عظماء؟ عظماء كثيرا أم قليلا؟

لا يهم، فالمهم أنني أدنو إلى أن أكون ذلك الرجل الكبير بتؤدة. أمّا أن أكون عظيما، أو لا أكون، فذلك لا أستطيع أن أبث فيه بنفسي. لا ضير، حين أكبر قليلا، ربما سأسأل أمي عن معنى أن أكون رجلا عظيما. الرجال كلهم كبار! أم أن هناك رجالا صغارا؟!

انكببت على العمل بحب. خالتي أذكى من كل شيء! خالتي لطيفة ناعمة، وسعيدة ربما أيضا. شجعتنا أكثر حين قالت لنا من خارج الخم:

– إن نظفتماه جيدا، سأعطي لجميليّ شيئا رائعا.

أواه، شيئا رائعا؟ كيف يكون؟ يُأكل؟ يُلعب به؟ يُركب عليه؟ يُشرب؟ لا يهم. المهم أن العمل سيُكَلَّل في الأخير بمكافأة. هذا أمر رائع جدا.

رفرفتْ في خاطري أفكار تقول: "قد تكون خالتك كاذبة أيها المغفل، اعمل بمهل، لا تكن خِنَّوْصاً غبيا." سعيد يعمل هو الآخر بجد. سرقت نظرة إليه، قلت في نفسي: "ولكن لم يعمل هذا الطفل الضائع بجد مثلي؟ لا شك أنه جرب هذه المكافآت من قبل."

همست بصوت لا يكاد يسمع:

- سعيد.. سعيد..

- آه.. ماذا؟

- ما هذا الشيء الرائع الذي ستعطينا أمك؟

- لا أعرف. لكنه لا بد أن يكون رائعا.

- ششششششششت.. تكلم بصوت منخفض أيها الجرو.

- لابد.. لابد أن يكون رائعا.

- جربتَ هذا من قبل؟

يبتسم:

- نعم.. نعم.. وأكثر من مرة يا صاحبي.

جميل ما يقوله هذا الصغير الوديع، جميل.. جميل.. سألت مرة أخرى، وأنا أغمزه، وأزيد في خفض صوتي:

- ماذا أعطتك من قبل؟ قل لي.. مثلا..

صوت خالتي يقتحم علينا المكان ليقول:

- إوا.. اعملا بصمت، اعملا واسكتا.

أواه، هل تسمعنا خالتي؟

قلت لسعيد:

- قلت لك يا جحش تكلم بصوت منخفض، سمعتْ ما نقوله.

يطمئنني:

- لم تسمع يا هذا، سمعت الوشوشات فقط. لا عليك، إن أمي لطيفة. ستعطينا الشيء الذي وعدتنا به سمعت وشوشاتنا أم لم تسمع.

أزيد في العمل بنشاط. كم هو جميل أن تعمل لتنتظر مكافأة بعد ذلك! وكم هو قبيح أن لا تجد عملا، وكم هو أقبح أن تعمل دون أن تفوز بمكافأة.

أعود لأسأل بحماس، وأنا أكاد أطير من شدة الفرح:

- ماذا ستعطينا أيها التافه؟! ماذا؟! ماذا؟!

- شيئا جميلا يا صاحبي، ألا تثق بي؟

أجيبه في سري: "أنا لا أثق حتى بأعضاء جسمي التي تخونني دائما، وتخونك أنت أيضا. لقد خانتك قبل أيام، وأنت تعرف ذلك جيدا!" أبي كان يقول: "لا تثق بأحد، الناس ذئاب تنتظر الفتك بك." وأنا لن أثق بالكبار، فما بالي بالصغار. كنت أثق بشيخ القبيلة مثلما كان يفعل أبي وأمي، وأخافه أيضا لأن أمي تقول ذلك. ما قالته الأمهات يجب أن يحتذى به. لكن شيخ القبيلة خيب ظن أبي، وخيب ظني وظن أمي، وظن آخرين لا نعرفهم. فمن يُخَيِّب ظنهم كثيرون جدا، كثيرون كما

النمل الصغير أو أكثر. الشيخ ليس جديرا بالثقة إذن، إنه وحش صار يأتيني في مناماتي وأحلامي، ويأتيني في كوابيس أشبه بالواقع. لكن، من يدري؟! لن أقول شيئا عن الشيخ ولا عن غيره كي لا أحرض علي سربا من الزنابر، وأسرابا أخرى من الحشرات التي لا تعجبني، ولا تعجب أحدا على الإطلاق. أنا الصغير الذي لا يعرف الكثير، أو لا يعرف شيئا على الإطلاق، علي أن أسكت، وأغلق فمي، وأحكم إغلاقه جيدا أكثر من أي وقت مضى، كي لا يدخله الذباب والبعوض، وكي لا يدخله شيء آخر لا يشبه يد أمي بتاتا، كيد الشيخ مثلا.

قلت بعد لحظة:

- لا.. لا.. أنا أثق بك يا صاحبي، ألسنا أصحابا وأحبابا؟

يهز رأسه الكروي. يعمل بسذاجة هو الآخر، ولا يقول بعد ذلك شيئا، لكنه يتجاهلني، وينسى أنني سألته عن هذا الشيء اللعين الذي يمكن لخالتي أن تعطينا إياه. أسأل نفسي: "من أين يمكن لخالتي أن تأتي بهذا الشيء؟ من الحقل؟ من هذا الخم نفسه؟ من..؟ من أين ياربي؟ من أين؟ أمن تلك الأشياء التي يجلبها ابن الحاج عبد الرحمن مع علب القهوة؟" التفتّ إلى سعيد، سألته بحماسة:

- هل ما ستعطينا إياه سيكون آتيا مع القهوة من البلاد الأخرى؟!

- اعمل، واصمت يا صاحبي. لا يهمك. المهم أنه دائما هناك شيء جميل تعطيه أمي. اعمل واسكت.

رغم ذلك، يظل دود الفضول يدغدغني من كل الجهات، وينهشني من الداخل، وهذا الكلب الصغير اللعين لا يريد أن يسدل الستار عن الأشياء الجميلة التي تعطيها خالتي في مثل هذه المناسبات.

نظفنا الخم تنظيفا يليق بمقام الأرانب، والدجاجات التي تعطينا بيضها ولحمها، ولم نقل لخالتي أنها وعدتنا بشيء يجب أن تفي به. تركناها تتذكر دونما تنبيه. خصوصا، ونحن ننفض الغبار من على سراويلنا، ونصفق بأيادينا لنزيل منها ما علق بها من براز الأرانب والدجاج. أمي تقول أنه يجب علينا أن ندخل للداخل لغسل أطرافنا، وتقول أنه يجب علينا أن نتعلم الاعتناء بنظافتنا منذ صغرنا. فَعَلْنا ما قيل، لكن ما يهمنا، هو أن تتزحزح خالتي من مكانها، وتمنحها ذاك الشيء الغريب والجميل والرائع.

كنا نتزاحم على سطل الماء ، الذي نغسل منه سويا، حين سمعنا طقطقات نعل خالتي البلاستيكي تقترب منا شيئا فشيئا. كانت تحمل شيئا، فما هو؟ ما هو؟ ماهو؟ إنه شيء يشبه الفول السوداني، ويشبه اللوز والجوز الهندي! لكنه ليس بجوز، ولا لوز، ولا فول سوداني. إنه حقا شيء رائع ولذيذ. آكله لأول مرة. لا يهم أن أعرف اسمه، أو أن أعرف أين ينبت. أو أين يُصنع. فمن يدري؟ يبدو لي أنه يُصنع، وقد

سألت فيما بعد ابن خالتي، وقال لي أن هذا المخلوق العجيب الذي أكلناه قد أكله من قبل، ولم يفكر في أن يعرف ما إن كان يُزرع أم يُصنع. وقال أيضا أنه يأتي فعلا مع القهوة التي يأتي بها ابن الحاج عبد الرحمن من بلجيكا، وقال أنه في الغالب يُصنع ولا يزرع.

لم أقف عند هذا الحد. سألت أمي، وخالتي عن الشيء اللذيذ الذي أكلناه. أيزرع أم يصنع؟ إن كان يزرع، فقد تفعل ذلك خالتي أيضا لنأكل منه الكثير دون أن يحاسبنا على ذلك أحد، ودون أن ننتظر أحدا ليجلبه لنا من مكان آخر. لكنهما لا تعرفان ما إن كان يصنع أو يزرع، وأقسمتا على ذلك بعد أن ألححت في السؤال. قالت خالتي: "كلْ يا ولدي ولا يهمك ما تسأل عنه." قرصتني أمي قرصة مركزة، وقالت لي: "قم أيها الفأر، لا تسأل كثيرا، ألم أقل لك ذلك من قبل؟" ثم توجه كلامها لخالتي:

- هؤلاء الصغار يسببون كثيرا من الغضب والغيض للكبار يا أخية، يا لطيف..

- خلي داك الجمل راكد، حتى أنا تعبت من ذلك الجرو. يا أختي كم من سؤال يسأله كل يوم! يسأل عن كل شيء.

ترفع أمي يديها، وتزم شفتيها علامة الإعجاب والإنكار. أنصرف في عجالة هاربا من حذاء أمي البلاستيكي الذي تعقبني! سمعت ابن خالتي يضحك من قلبه، وأنا أرمقه في النظرة الأولى التي القيتها على

وجهه الغارق في الضحك. كرهته في داخلتي. سَبَبْتُه، ثم تصالحت معه في نفسي، وانصرفنا سويا ونحن نمضغ الشيء اللذيذ الذي لا أعرف اسمه، ولا أعرف ما إن كان يصنع أم يزرع!

الصيف لذيذ في بيت خالتي، وأجمل؛ لأن الطفل الأشقر يصطحبنا إلى ساقية الماء لنسبح ونستحم كما نشاء. اليوم، لن نذهب معه، أنا وابن خالتي فقط، بل إن أطفالا آخرين سيكونون رفقاءنا في الرحلة. قال الأشقر قبل يوم من الذهاب إلى الساقية أنه يجب على كل واحد منا أن يأتي معه بالطعام الذي سيأكله، وأخبرنا بأننا سنقضي اليوم كله هناك. أعجبتني الفكرة، ولم أقل شيئا رغم أنه لا يمكنني أن أقول شيئا للأشقر، فهو الزعيم الذي لا يشق له غبار، ولا أحد من الأطفال الآخرين يقول شيئا رغم أنهم أترابه، أو أكبر منه قليلا أحيانا. أما أنا، فأصغر منه، وجديد على الدوار. هم أبناء الدوار، ولا أحد يمكن أن ينازعهم على السدة. لكنني تساءلت في نفسي عن السبب الذي جعل الأشقر يغير رأيه في الخطة السابقة التي قمنا بها. في المرة السابقة، سرقنا العنب وأكلناه، وأكلنا الخبز الذي لم يأكله ابن خالتي، وقال أنه لن يأكله حتى ولو اضطررت أن أقتله! لكنني لم أفعل، بل أكلت الخبز بدلا من أن أقتله! وهذه المرة، يريد الأشقر أن يكون نزيها نقيا، وربما لا يريد أن يبين لرفاقه أنه سارق. لا، هم أولى بالمعرفة بأحواله مني؛ لأنني غريب، والغريب هو من يجب الحذر منه. الغريب يبقى غريبا دائما. ابن خالتي يبدو هو الآخر غريبا عنهم، وهو الذي سكن الدوار منذ كان رضيعا. لم تكن خالتي تتركه للذهاب معهم بعيدا، وقد قال لي هذا

الأمر الأشقر نفسه. تبقى خالتي محقة، فهذه الجراء، يصعب أن تثق بهم، وترسل معهم طفلا صغيرا جدا كسعيد الذي لم يكن قد تجاوز عامه السابع. ربما أراد الأشقر أن نأكل أكلا "ممرقا" خير من أكل العنب والبقاء طول اليوم في الماء كالضفادع.

أن يكون الواحد ضفدعا بين الفينة والأخرى شيء جميل. الحق يقال، صرت أحسد الضفادع التي نجدها تستحم معنا وتسبح. فهي على كل حال خير منا، ومن بعض الأطفال الآخرين الذين يشبهوننا. نُهُرُ ذاك الصيف كانت رائعة، ولياليه كانت أروع. كانت الأرانب تُطبخ بعد المغرب بقليل في طواجين. كانت خالتي تنتقم من بعض الدجاجات، التي تقول عنها أنها لا تبيض من البيض ما يجعلها تستحق العيش، بذبحها وطهيها في القدر الضاغطة، وليس في الطواجين، وأنتم تعرفون لم تفعل ذلك. أما الديكة، فلم تجُد لحد الآن بواحد منها. كانت والدتي لا تقول لها شيئا، ورغم ذلك أسمع خالتي تقول لها، وكأنها تعتذر عن شيء طلبته أمي:

- إن ذلك الديك ذا العرف الكبير أتركه للدجاجات يا أختي. أنت تعرفين لا بد من ديك ليكون البيض صالحا للفقس!

تهز أمي رأسها، وتشعر بالخجل، وأنا أيضا. أقول في سري: "ما تفعلين يا خالتي من أجلنا يكفي وزيادة. نحن لا نريد منك أكثر من

- لا.. لا.. هذا الرجل كان ثمة قبل تسع سنوات فقط. أنت قديمة هناك بعض الشيء! حين جاء إلى بني انصار، كنتِ قد تزوجت، وربما كنت قد ولدت الجنين الأول، الله يرحمهما، ويرحمنا معهما، وربما كان خالد مولودا أيضا.

تهز أمي رأسها علامة الاتفاق، ثم تمضي لتقول أن الحصول على كسرة خبز أمر صعب في كل الحالات.

- من لم يخرج من الدنيا، يا أختي، لم يخرج من عواقبها. قد تعطيك الدنيا وقد لا تفعل، والعاطي هو الله، وقد تعطيك حتى تنسيك في كل شيء، تنسيك في سيدي ربي وسيدي النبي، وأحيانا تأخذ منك حتى تصيرين عدما. أسأل الله أن يكون في عوننا، وفي عون المساكين. كل شيء صار صعبا.

ثم ترجع خالتي لتقول أنه يجب عليها أن تجمع عشرين بيضة لتعطيها للمرأة حين تلد أيضا، وتقول أمي أن ما تريد أن تفعله أختها غاية في الكرم والجود. ثم تضيف أمي أسئلة أخرى كثيرة:

- هل سبق لهذه السيدة أن ولدت من قبل؟

- هذه هي المرة الخامسة التي تلد فيها، لكن لم تكتب الحياة لأحد منهم.

تستغرب أمي:

- لا إله لا الله. أجرها عند الله. هم ملائكة في الجنة إن شاء سيدي ربي، وهي كذلك إن صبرت.

- أمر صعب، يا أخية، أن يموت الأربعة، بل الخمسة، مرة ولدت توأمين.

- ربنا يرزقها الصبر. حتى أنا، بكيت كثيرا حين مات ولداي. الله يرحمنا بهم.

- آمين يا أختي. آمين. عسى الله أن يسمح لنا، ويغفر لنا الذنوب.

أضافت خالتي:

- قيل أن هذه المرأة المسكينة مصابة بالداء القبيح!

- السرطان تقصدين؟!

تهز خالتي رأسها علامة الإيجاب. شهقتا وزفرتا بقوة، وذابتا في الصمت للحظة. خالتي، ولا شك، تذكرت أنها مست الوتر الحساس عند أمي. كيف لها أن تذكرها بما تكره، وبما يؤرقها وبما يتعبها؟ كيف؟ كيف؟

يُسمع أذان الفقيه للمغرب، ثم تدلفان إلى الداخل، وتنكبّ أمي على تقشير البطاطس والجزر، وتنشغل خالتي بقلي فخذين، وقطعتا لحم صدر دجاجة مسنة، كانت خالتي قد ذبحتها من قبل. تسللنا، أنا وابن خالتي، أيضا إلى البيت لنكمل ما تبقى لنا من لعب النهار، لكي لا

نتأخر كثيرا الليلة عن النوم! أمي تزجرني، وتقول: "لا تحدث الضوضاء في بيت خالتك." خالتي تعقب مبتسمة:

- دعيهما يتعبان كي يناما باكرا.

ثم ننساب كقطط لم تكف بعد عن الرضاعة من أثداء أمها.

-6-

سَحَبَ الصيف بساطه الأصفر الشاحب رويدا رويدا، وراحت تتهادى إلى سماء بوعرك سحابات بلون رماد فرن خالتي. لكنها سرعان ما تتلاشى، وتضيع في الأفق الفسيح. كل شيء ظل جميلا، حقل خالتي الصغير الذي وهبه لها الحاج عبد الرحمن يبقى أخضرا يانعا، وخالتي لم تعد تعمل في الحقل الكبير مع بقية النساء الأخريات، بل صارت تقوم بأعباء بيت لالة الحاجة فاضمة، وعمي الحاج هو الذي طلب منها ذلك. كانت المسكينة تَعْبُدُهُ! وأمي تقوم بدور خالتي في بيتها، وتساعدها في فَلْح الحقل الصغير الذي نقتات منه نحن الأربعة. عمي الحاج، هكذا قالت لي خالتي أن أناديه، وكذلك كان ابنها يفعل. وأمي تقبل رأسه حين تصادفه في الجوار، وكذلك تفعل مع خالتي الحاجة فاضمة. كان خالي الحاج يبتاع للخالة بعض الأسماك، والأغراض الأخرى التي تحتاجها. أخبرت أمي أنه يذهب كل يوم إلى السوق. أخبرتها أنه يذهب إلى مكان اسمه العروي ويذهب إلى سلوان يوم السبت، وإلى قرية أركمان كل أربعاء. كم يملك هؤلاء الناس من المال! هل يكفيه ماله للذهاب إلى هذه الأسواق كلها؟! الحق يقال: "كثير من المال!" كان أبي يذهب إلى سوق الثلاثاء فقط، حين كان حيا، أما الآن فلن يذهب إلى أي مكان، لقد ذهب إلى سيدي ربي، وإلى الجنة كما تقول أمي. وتتبع ادعاءها بقولها: "إن شاء الله." أحيانا، لا

يستطيع أن يرتاد سوق الثلاثاء كل أسبوع، فكان يذهب أسبوعا، ويرتاح أسبوعا آخر، أو يريح جيبه المنهار بالأحرى.

حين ابتلع الشهر التاسع حر الصيف في تلك السنة، قالت خالتي لأمي:

- سيذهب طفلي هذه السنة إلى المدرسة. المدرسة قريبة، توجد بالجوار فقط. إنه في عامه السابع، أو ربما تجاوزه بقليل. لم تكن خالتي تعرف سن ابنها سعيد، وهذا دليل على أنها أتت به من مكان ما!

ثم أضافت:

- عليك أن تخبري مدير المدرسة، التي كان يدرس بها خالد من قبل، بأنك تريدين أن يدرس مع ابني هنا.

ترتسم على جبين أمي علامات تشويش، وتسأل باستغراب:

- أخبر المدير؟! أخبره بماذا؟! ولِمَ؟!

- عليك أن تذهبي إلى المدرسة التي كان يدرس فيها من قبل، وتخبريهم بذلك هناك.

تضيف:

- ليس ثمة ما يستدعي الخوف، الشيخ؟ فليذهب إلى الجحيم. أنت إن كنت تريدين أن تنسيه، فانسيه، لكن أن لا تذهبي إلى هناك من أجل مصلحة ابنك فلا.

لكن أمي لم تفكر بتاتا في الشيخ، كل ما في الأمر هو أنني لم أدرس من قبل في مدرسة! عدا جلوسي على حصير المسجد الذي كان يعلمنا فيه الفقيه السي علال. وقد استغربت خالتي كثيرا، وأنا وأمي لا نرى ما يستدعي الاستغراب. هو ذاك إذن؛ حين لا نملك شيئا، لا نرى غرابة في أن لا نمتلكه، حتى وإن كان ضروريا. وحين لا نعلم شيئا ما، لا نرى غرابة في أن نجهله أيضا. حقا، لقد تجاوزتُ عامي التاسع. لكن لا ضير، لا ضير في أن لا أذهب إلى المدرسة. ليس ثمة أي إشكال، تسعة أعوام أو عشرة. المشكل الوحيد يكمن في امتلاك خبز اليوم وقوته.

قالت خالتي بنبرة أدخلت جثة أمي في أرضية المطبخ الذي كانتا تعدان فيه غذاء اليوم، بعد أن أخبرتْها بأنني لم أسجَّل قطُّ في مدرسة:

- لم يدرس من قبل قط؟!

ردَّت أمي بنبرةِ حزينٍ اكتشف أنه فقد شيئا غاليا للتو:

- لم يفعل ذلك من قبل يا أختي..!

- ولِمَ لمْ يسجله الرجل؟ أقصد سيدي أحمد.

- لم يسجله، وكفى. وأنا لم أفكر في ذلك أصلا.

استدركت أمي:

- ثم إن الرجال هم الرجال يا أختي، درسوا أم لم يدرسوا.

- لا، لا يا أختي. لا بد للأطفال أن يدرسوا. سأسأل سيدي الحاج كيف سنسجلهما معا هذا العام.

وكذلك فعلت خالتي؛ فقد سألت عمي الحاج، وأُدخلتنا إلى تلك المدرسة التي تحدثت عنها، وكانت حياتي هناك مختلفة عن الحياة التي عشتها من قبل.

-7-

كان الطفل الأشقر جالسا تحت شجرة الخروب. كان، ولا شك، يفكر في شيء ما. يضع سبابته في ثقب أنفه الأيمن. يحركها جيدا بحركة لولبية. يستلها كما تُستل السيوف. يتأملها، ويتأمل المخاط الذي علق بها. يتمنى، ولا شك، أن يتذوقه. يشمه أولا. يلتفت في كل اتجاه. يخزر جيدا. ثم ماذا؟ ثم يفعل ما كان متوقعا. لو أتيحت لي الفرصة، لسألته: "كيف وجدته؟" سينكر في البداية أنه تذوقه، لكنه لن يتأخر كثيرا ليقول، وهو يبتسم: "خخخخخ.. قبيح." لكنني أعلم يقينا أنه كاذب، وأنا لا أنتظر جوابه، بل سأقول له ذلك تهكما. أنا أعرف مذاقه جيدا لأنني أفعل ذلك كثيرا، وقد أكون أفعله أكثر مما يفعله زعيمنا الأشقر. يشحذ سبابته بجذع شجرة الخروب. يعدها لتباشر عملها النشيط، ثم يدخلها في الثقب الأيسر. أف.. الأيسر نظيف، لا مخاط فيه. حين يستلها، ويتأكد أنه بالفعل خاو كجيوبه وجوفه وكل شيء فيه، يرجعها ثانية. يخرجها، إنها خاوية. يدخلها ثالثة ورابعة و.. و.. و.. لكنها لا تجني من ثمار المخاط شيئا! يكره نفسه، ويكره سبابته، ويكره ثقب أنفه الأيسر أيضا.

يشحذ السبابة ثانية، لكن هذه المرة، بحجر أصلع مكور كرأس أبيه. يدخلها للأيمن، الأيمن يتوفر على مخزون جيد. يشمه كما فعل من قبل، ثم.. ثم لا يتذوقه؛ لأنه يعرف مذاقه مسبقا!

ينتظرني، وينتظر الرفاق الآخرين. ينتظرنا لنلعب الكرة أو الجري أو القفز أو الغميضة أو أي شيء آخر، وربما ينتظرنا لنخطط لسرقة البيض من خم دجاج العجوز يامنة. تملك يامنة من البيض العدد الكثير، ولا أطفال في بيتها ليأكلوه، هكذا يقول الأشقر، أو أحدهم دائما. وربما لنخطط لسرقة دجاجة كاملة لشيها، ولم لا؟ فالدجاج هو الآخر كثير، والحاجة يامنة لا أطفال في بيتها، ولا أسنان في فمها! وقد نخطط لسرقة شجرة الخروب التي يجثم عند جذعها الآن حين تنضج.

لكنه لن يتحدث لنا عن كل هذا تحت الشجرة، فالمارة كثر، والمتجسسون كثيرون كالنمل، والأطفال الذين يحسدوننا يتكاثرون كأبناء الكلاب والخنازير! أين إذن؟ في أي مكان آخر غير هذا، في أي مكان لا يرانا فيه أحد. يعرف الأشقر أن الله سيرانا في كل مكان لأن أمه والفقيه سي عبد القادر كانا يقولان ذلك حين كان يجثم عل حصير المسجد، وأباه والرجال الكبار والمعلم كلهم يقولون بأن الله يرانا في كل مكان. لكنه لا يخبرنا بذلك كي لا يخيفنا. نحن نعرف ذلك أيضا، لكننا نلوذ بالصمت.

سينتظر الأشقر مجيء كل الأطفال لنبدأ عملنا، ولن يبدأ بالعدد القليل. هو الآخر، لا يثق في ثقتنا به. إنه يدارينا ما دمنا معه في داره وصفه وطريقه. إن زغنا، زاغ هو الآخر، وانقلب علينا كما تنقلب الأفاعي على مروضيها.

في كل شيء هناك زعيم، والأشقر زعيمنا. حتى الدجاجات التي سنخطط لسرقتها لها ديكها الزعيم. إلا أنه يلعب دور الديك في الحوش، أما خارجه فإنه يصير هو الآخر دجاجة. تبقى الدجاجة، على كل حال، أفضل منه إذ أنها تبيض البيض الذي ننوي سرقته. يشبه الأشقر الديكَ في كثير من الأوصاف، فهو بدروه ديك في حوش رفاقه، وديك عليهم، لكن حين يُقبض عليه في سرقة ما، أو أفعال قبيحة، فيفعل كل شيء ليتخلص من ممسكه؛ كأن يبوس يده أو رجله أو رأسه أو أي شيء آخر قد يخطر على بالكم أيضا! قد يستعطفه قائلا: "يرحم الله حلمة ثدي أمك!" يصير هو الآخر دجاجة. لكنه يظل أقل من الدجاجة التي تبيض البيض الذي يسرقه الأطفال!

على كل حال، يبقى الأشقر مصونا عند رفاقه، إذ أنه يتقدم المجموعة دائما، وبالتالي لا بد أن يكون الضحية. في كل شيء، من يلعب على ثرى الملعب ليس كالذي يشاهد من بعيد. الطفل الزعيم لاعب في الميدان وليس بمتفرج، ولا يقبل لنفسه أن يكون كذلك. اللاعبون هم الذين يلحقهم الضرر دائما.

قد يأتي الأطفال كلهم، وقد لا يأتون. قد لا يبدأ الأشقر العمل بمن سيأتي، وقد يبدأ، لكن لا بد من الأفعال السيئة، و سرقة شيء ما، وضرب طفل أو اثنين! لا بد من فعل شيء ما. لا يمكن ليوم أحد أن يمر خاويا تذرو فيه الريح العدم.

نسيت أن أخبر باسم الطفل الأشقر. فتسمية الأشياء والأشخاص والأمكنة بمسمياتها أمر حسن لكي لا تختلط الأشياء. تحدث مشاكل كثيرة في الأسماء أيضا، لأنها تتشابه، فما بالك بالأشياء التي لا تحمل أسماء. الطفل يسمى ياسين رغم أنه أنكر ذلك ذات مرة في القسم حيث كان معلم العربية يتجول بين الصفوف، ويسأل التلاميذ بعشوائية عن أسمائهم وفي حالة ما اتفق اسم التلميذ أو التلميذة مع سورة من سور القرآن، طلب منه المعلم استظهارنا، فلما وصل المعلم إلى صاحبنا، خاف أن يخبره باسمه الحقيقي، فيطلب منه ما لا طاقة له عليه. لكن المعلم يعرفهم جيدا، ويعرف عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم، ففكر بأن يراوغ بإجابته: "أنا اسمي ياسين لكن ينادونني (قُلْ هُوَ)." أضحكت الإجابة المدير الذي حلف بالله أن يشتري قطعتي جبن للتلميذ الحاذق، أما المعلم فقد سال لعابه على الطاولة من كثرة الضحك والقهقهة حتى سمعه المعلمون الآخرون فهرعوا إليه، ولم يستطع أن يخبرهم بما حدث من كثرة الضحك. رغم ذلك، فقد ضحكوا حتى سال لعابهم أيضا. الضحك يكون أحيانا مجاراة للضاحك، كما أن البكاء يمكن أن يكون كذلك أيضا. التضامن كائن في كل شيء.

لما سمع المعلم أن المدير يريد أن يشتري لتلميذه قطعتين من الجبن، حلف بدوره يمينا أن يشتري له ثلاثا تنافسا مع مديره. كذلك كان، فالطفل أكل من الجبن خمسا، ولحسها جيدا حتى صارت أغلفتها

الخارجية كالمرايا. فرح كثيرا لكونه سيأكل هذا الشيء اللذيذ العجيب الرطب الأبيض لأول مرة، ثم إنه لا يمكنه أن يسرق الجبن من البقالة. ما يستطيعه ينحصر في سرقة البيض، والخروب، والمشمش الأخضر، واللوز، والرمان، والدجاج أيضا إن اقتضى الحال. هنيئا لزعيمنا المبجل الذي حاز جائزة الجبن هذه برده الجميل المراوغ.

إلا أن ياسين لا يعرفه الأطفال في الساحة والرفاق في الدوار إلا باسم "بُورجلين" (ذو الرجلين). وتعود هذه التسمية إلى سنوات قليلة ماضية حيث رآه أحد الشيوخ يهرول نحو الكرة التي كادت تسقط في حقل الشعير الذي يملكه الحاج حمو. حاول ياسين أن يدرك الكرة، إلا أنها وصلت الحقل وعانقته، وحدث ما حدث من السب والشتم والضرب وقول ما لا يحق قوله بين الحاج حمو وياسين والأطفال الذين كانوا يلعبون. تشاجر آباء الأطفال أيضا معه بدعوى أنه شخص حاسد حاقد لا يترك الأطفال يلعبون في راحة وطمأنينة، بل إن العدوى انتقلت إلى الحاجة الضاوية، زوج الحاج حمو، أيضا حيث لم تترك لها النساء من الكلام، الذي لا يجب أن يقال، شيئا.

لما رآه الشيخ يهرول لاحظ أن ياسين يملك رجلين كبيرتين غير عاديتين، فما كان للشيخ إلا أن يصيح في وجهه قائلا: "اِجْرِ يا بُورَجْلِينْ اِجْرِ." التصقت هذه التسمية بياسين، وما عاد الأطفال ينادونه باسمه الحقيقي، وقد سبق أن قال له أحد الكهول في الدوار: "يا

بورجلين، رجلاك لن تصلحا إلا للسرقة." كذلك كان، فقد صار "بُورَجْلِينُنَا" سارقا كما أرادوا له، إلا أنه بين الفينة والأخرى يناديه بعض الأطفال أيضا "قُلْ هُوَ"، فهذه "الْقُلْهُوَ" إن كانت قد جلبت له خمس قطع من الجبن، وبعض الاهتمام في المدرسة، فقد جلبت له اسما آخر أيضا. الأشياء لا يمكن لها أن تجلب الجميل فقط، بل يمكن أن تأتي بالقبيح البشع أيضا. لكنه على كل حال، يبقى محظوظا، فكثير من الناس يتمنون أن يكون لهم أكثر من اسم، أو أن يغيروا أسماءهم ولو بالنقود، إلا أن صاحبنا حصل على ذلك مجانا.

ياسين أو "بورجلين" أو "قل هو"، إلى جانب أنه حصل على خمس قطع من الجبن واسم جديد، فقد حصل على اهتمام المدرس به، وتقريبه إليه رغم أنه كان كسولا متهاونا غير مهتم بدراسته ومتغابيا أحيانا. في نظر المعلمين، كان أيضا بليدا. لكنه هذه المرة سيثبت عكس ذلك، وهذا ما بعثر أوراق معلمه لهذه السنة الذي صار يفكر فيه كل يوم. كيف لتلميذ بالقسم الرابع ابتدائي يكتب اسمه "ياسين المرابطي" هكذا: "يَسِنْ لْمُرَبِتِ"، أن يكون صاحب جواب كذاك؟ لكن المعلم أحيانا يقول مع نفسه أن الغلطة ليست غلطة الطفل، بل غلطة من درسه قبله، أو غلطة أبيه، إلا أن أباه أيضا، كان ضحية غلطة أبيه أو غلطة الناس أو غلطة أحد آخر..

لا داعي للخوض في ما يفكر فيه المدرس وفي اهتمامته، وتأملاته وتفكيره في تلميذه الذي فاجأه بجوابه الحاذق، فما يهمنا هو ما حصل عليه صديقنا من امتيازات مقابل جوابه. لقد صار ياسين يذهب بنفسه لشراء السجائر لمعلمه سي عبد الهادي، وصار يرسله إلى البيت أيضا ليوصل رسالة ما لزوجته، أو أن يتسوق له أيضا.. لقد كان في أحايين أخرى يُدخله إلى المطعم المدرسي، ويريه حبوب الشاي والسكر والإبريق، ويقول له : "أعد لنا إبريقا يكون من صنعِ مُحترفٍ." كان المعلم يدخن سجائر من نوع "ماركيز"، ويحتسي الشاي الذي أعده ياسين، وهو يشرح دروسه المملة.

عرف ياسين الكثير الكثير بهذه الامتيازات التي حازها، فقد علم أن سي عبد الهادي كان يأخذ السجائر بالدين، ويدفع في آخر كل شهر، وعلم أنه أحيانا لا يدفع الثمن حتى، وهذا ما قاله بائع السجائر لياسين ذات يوم حيث طلب منه أن يخبر معلمه بأنه تأخر هذه المرة كثيرا، وبأن الثمن الذي يدين له قد فاق خمسمائة درهم. وعلم أن الأساتذة يتجادلون فيما بينهم حد الوقاحة، وأنهم أحيانا لا يُصَلُّون ولا يَصُومُون، ويتشاجرون أيضا، ويفعلون الأفاعيل. لقد علم ياسين كل هذا بعد أن كان يظنهم ملائكة تسير على الأرض بخطى ثابتة، لكن ياسين يظل مخطئا في حقهم، فقد عرفت فيما بعد رجالا منهم يعلمون أمثالي الجهلاء ما ينيرون به طريقهم. الناس حجر، وشجر، وماء، وطين..

اليوم، فكر ياسين في ما لم يفكر فيه من قبل. أرسله المدرس أن يشتري له كيلوغراما من الموز من الحانوت المحاذي للقهوة ذات الجدار الأصفر، ويقول سي عبد الهادي لياسين: "ولدي وليد يعجبه الموز كثيرا." قام ياسين بذلك بكل تفان، لكن نفسه حدثته اليوم بشيء لم يخطر بباله من قبل قط، ووسوس الشيطان له، فقرر أن يفعلها، خصوصا، وهو لم ير هذا الموز إلا في تلفاز جارتهم الحاجة طامو، وفي كراسة النشاط العلمي، وفي كتاب اللغة العربية ربما أيضا. معه حق، فليس من ذاق كمن رأى! قال ياسين في نفسه: "لم لا أقطف موزة من هذا الإكليل الموزي؟ والمدرس لن يعرف ذلك لأن الموز كثير، ثم إنه لا يعرف كم يمكن أن يكون من موزة في الكيلوغرام الواحد." فعلا، أخذ ياسين موزة، والأمر عاد جدا مادام يسرق البيض للعجوز يامنة، والبرقوق والمشمش للحاج و..و..و.. وأكلها وتلذذ كثيرا، وأحس بنفسه، وكأنه خُلق من جديد. إنه إحساس لن يعرفه أحد إلا إن كان من طينة يَاسِينِنَا.

إلا أن المشكل الكبير الذي لم يضرب له حسابا، ولم يترقبه ياسين هو أن سي عبد الهادي سيعرف أن تلميذه سرق الموزة وأكلها. يبقى السؤال المحير: كيف عرف هذا المدرس المسخوط ذلك؟ هل فعلا يعرف كل شيء كما كان ياسين يتخيل؟ قيل أن المدرس رأى أثر الموزة المغتالة طريا، وقيل أن ياسين لما أكل الموزة لم يمسح أطراف فمه، وفي رواية

أخرى، أن أحدا ما رأى فعلة ياسين، ووشى به. هذا احتمال وارد جدا لأن الواشين في القرية يفوقون عدد أشجار غابة سيدي صالح، بل ويفوقون عدد النمل الذي يتسلقها!

ربما كان ياسين محظوظا لأن سي عبد الهادي لم يضربه، ولم يعاقبه على فعلته، وربما كان سي عبد الهادي عاقلا في هذه، فلا يعقل أن يضرب تلميذه، أو قُلْ صديقه، على موزة واحدة. لكنه رغم كل ذلك، لم يترك ياسينا يعتقد أن مدرسه لم يكتشف سرقته، ولم يتركه يظن أن المدرس مغفل لا يعرف ما حدث. قال له: "أنظر إلي يا ولدي ياسين، إن كنت تريد شيئا، كيفما كان، أطلبه مني، وأنا أكافئ ولدي، وصاحبي."

ياسين أنكر ولم يكن سهلا. أنكر أنه اختلس الموزة، وحلف بحق سيدي النبي، وحلف بأمه وشرفها، وأقسم بكل ما لم يخطر ببال المعلم، وما لم يسمعه من قبل، إلا أن المعلم يعرف جيدا أن الأمر ليس عليه غبار. الموزة طارت هذه المرة، وليس لياسين ما يقوله. حاول ياسين أن يقنع المدرس قائلا أن مكان الموزة المخلوعة الطري الذي اتهمه بأكلها لم يكن إلا الأثر الذي تركه فصل إكليل الموز الكبير عن كيلو غرام المعلم. وعزى وشاية الناس به إلى أنهم يحسدونه، وهو يعرف جيدا أنه لا يملك شيئا يُحسد عليه، والمدرس يعرف ذلك أيضا. كان كل مرة يحاول التهدئة ويقول له: " لا بأس يا ولدي ياسين. ما فعلتَ شيئا قبيحا جدا. أكلت موزة، ليس عيبا. أنا أقول لك أنه من الأفضل أن تشاورني

في هذه الأمور، وفي كل الأمور أيضا. أنت كولدي. أَتَفْهَم قصدي؟"
رغم استدراج المعلم له للاعتراف بهذه الفعلة، كان ياسين لا يستسلم، بل ينكر ذلك بشدة.

الشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يدحضه ياسين هو بقايا الموز التي مازالت، إلى تلك اللحظة التي كان يتحدث فيها مع معلمه، على حواشي فمه. قالها سي عبد الهادي، واحمر ياسين كثيرا. مد يده إلى فمه ليتأكد بأنه نسي مسح فمه بكم قميصة الممزق. فعلا، لقد وجد آثار الجريمة التي حاول التهرب منها باقية شاهدة عليه. طأطأ ياسين الرأس، ولم يجد ما يقوله للمدرس، إلا أن المدرس تصرف بلطف شديد قائلا، وهو يَمُجُّ نَفَساً عميقا من سيجارة "الماركيز" التي أشعلها قبل دقائق: "ليس هناك أي إشكال على الإطلاق، أكلت موزة يا صاحبي، ليس عيبا، امسح فمك. في صحتك." خجل ياسين كثيرا من مدرسه ومن نفسه، لكنه حمد الله أن سي عبد الهادي انفرد به ليقول له ذلك، ولم يفضحه أمام رفاقه؛ لأنه لو كان ذلك لكانت فضيحة ومهزلة سيفقد بها صاحبنا كثيرا من أتباعه وأصحابه! وأنا الوحيد الذي حكى له ياسين مغامراته مع مدرسه حسب ما قال لي، ويؤكد كل مرة على أنه لا يجب علي أن أخبر أي شخص آخر كيفما كان.

دلف المدرس إلى القسم، وعاد ياسين بسرعة من محو آثار الجريمة التي اقترفها، ودلف القسم هو الآخر، وهو يتحاشى نظرات سي عبد

الهادي. سي عبد الهادي نسي الموزة، ونسي ياسين أيضا. رغم أنه يُعَدُّ أكبر بخيل في المدرسة، وأكبر مدرس تافه على الإطلاق.

لا أحد اهتم بياسين، وفعله، ولا أحد يعرف ما حدث. ما يهم هو أن ينتبهوا لما يقوله معلمهم، ويَهُمُّهُم أيضا حفظ الدرس جيدا لأن المسألة فيها الضرب والسلخ والقرص والصفع والركل، وأشياء أخرى قد لا تسع آذانكم لسماعها. المدرس يشرح بعصبية، والتلاميذ يأكلون جثته بخوف وفزع وياسين لا يوجد في القسم بتاتا! ولا يهمه أن يكون أو لا يكون. المهم هو أن يخطر ببال سي عبد الهادي شغل آخر يرسله لعمله لكي يتخلص من هذا الصمت الممل، ومن انتباه التلاميذ الذي يكرّهه في حياته.

السؤال الذي صار يفرض نفسه، والذي يطرحه ياسين على نفسه أيضا، هو: "هل فعلا سيرسل سي عبد الهادي صاحبَنا الأشقر لقضاء حوائجه له مرة أخرى بعد الذي حدث، وبعد الذي يمكن أن يحدث أيضا؟"

كان ياسين محظوظا للمرة الثانية، وربما أن سي عبد الهادي هو الذي كان متسامحا للمرة الثانية، وربما الثالثة، أو الرابعة، أو أكثر. وحده الله، وسي عبد الهادي، وياسين يعلمون كم من الحماقات اقترفها هذا الياسين. يبقى السؤال الذي حير الأطفال الذين يعلمون ببعض حماقاته وأخطائه القبيحة، والذي حير ياسين نفسه هو: "ألم يجد المدرس أحدا

يمكنه أن يعوض ما يفعله هذا الياسين؟" ربما هذا هو الاحتمال الوحيد، رغم أن هناك احتمالات تبقى تفرض نفسها هي الأخرى، كأن نقول أن سي عبد الهادي رجل ظريف لا يريد أن يجعل ياسين يحس بأن مدرسه تخلى عنه، وربما لأنه يعرف أن هذا الياسين لن يخطو قيد أنملة في الدراسة، وبالتالي لا ضير أن يجعله ساعي بريده أو قهوجيه وحماله وزباله و..و..و.. لكن السؤال يبقى حقا سؤالا محيرا عجزت الجن والإنس عن الإجابة عنه.

هذه المرة ستكون مهمة ياسين أكثر مسؤولية من ذي قبل. فأن يأكل موزة، أو يضيع دراهم معدودة، أو أن يطمع في قطف سيجارة ما، أو أن يخطف رشفة شاي طويلة لذيذة في المطعم المدرسي شيء لا يمكن مقارنته مع أن يحدث شيء قبيح لوليد، ولد سي عبد الهادي. كانت مهمة ياسين هي أن يوصل ابن المدرس إلى أمه التي توجد هذه المرة بدار لالة عالية التي أقسمت بسيدي صالح وسماء بوعرك، وأشياء أخرى لا يعلم مكانها إلا الله سبحانه لتأتين امرأة سي عبد الهادي إلى بيتها، وتشرب معها الشاي. شرف كبير للالة عالية أن تأتي امرأة المدرس إلى بيتها، وقد يسمح لها هذا أن تقولها لكل نساء القرية، وربما لرجالها أيضا!

المهم أن السيدة سميرة، زوجة المعلم، كنست البيت، ونظفته جيدا، وقامت بأشغالها كلها بعد أن تغذى زوجها، وغادر إلى المدرسة،

وغادرت هي إلى بيت لالة عالية، وقال لها السيد المدرس أن الولد لن يذهب معها، بل سيصطحبه إلى قسمه، لأنه لا يثق في النساء، وخصوصا البدويات منهن! وهو من هو، فهو مدرس ينظر إليه الناس أنه كبير، و يعرف في الدراسة الشيء الكثير إلى غير ذلك من الأمور التي لا تقال أيضا. لكن الطفل الصغير ضجر، ومل في المدرسة، ولأنه لم يتجاوز عامه الثالث بعد، راح يبكي حينا، ويتماوت أحيانا أخرى، ويقول بصوت يغضب ياسين كثيرا، ويجعله يتمنى أن يبول عليه إن أمكنته يداه وأمكنه شيء آخر! "أريد ماما يا بابا. أنا أريد ماما." البابا يقول: "أجل.. أجل يا بابا. ستذهب الآن. الآن.." تمر الدقائق، ويختلط درس السي عبد الهادي، وأصوات الأطفال، وهم يصدحون بقراءة القرآن جماعة، ببكاء وليد هذا، وفي الأخير لم يجد المدرس بدا من أن يرسل صغيره إلى أمه. ياسين يعرف بيت لالة عالية، ويعرف منازل القرية كلها. إذن، لا ضير أن يرسل معه هذا الصغير ليسلمه لأمه، لكن لا بد من أن يحذره أكثر مما حذره من قبل، لأن الأمر لا لعب فيه ولا هزل.

أمسك ياسين بيد وليد الصغيرة، وهو يطمئن مدرسه. "نعم يا أستاذ، نعم.. نعم.. نعم.. نعم يا أستاذ.. نعم.. نعم يا أستاذ.. نعم.." ذهب ياسين، وأوصل الصغير إلى أمه، وتأكد الأستاذ أن صغيره ذهب به إلى بيت لالة عالية، وليس إلى بيت امرأة أخرى، وأن التي تسلمته هي

السيدة سميرة، ولم تتسلمه امرأة أخرى. إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يستطع المعلم التأكد منه هو: "هل فعلا لم يقم ياسين بضرب الصغير ضربا خفيفا، وربما عنيفا أيضا، أو ربما عبث بأشيائه أو أخافه أو أسقطه أرضا، أو أي شيء قبيح آخر؟" هذه الأمور لن يتأكد منها إلا حين يبلغ البيت، ويرى وَليدهُ بمقلتيه، ويسأل سَمِيرَتَهُ عن حال الطفل حين تسلمته.

بقي الأشقر صديقا لمدرسه رغم كل شيء، ولم أحض أنا بنفس الصحبة مع معلمي. ياسين كان كسولا لا يعرف أن يقرأ الحروف، وهو في الصف الرابع. وكذلك أنا، وابن خالتي. تلك الأشياء التي كان يدرسها لنا لم ترد أن تستقر بمخينا، لكن الكسلاء يحضون بالاقتراب من مدرسيهم رغم ذلك، إلا أنه لم يحدث نفس الشيء معي!

يومئذ، لم أفعل شيئا مما طلبه المدرس منا. أنا لا أعرف ذاك الشيء الذي طلبه حتى. ابن خالتي جليسي في كل شيء، جليسي على طاولة الغذاء والعشاء والفطور، جليسي في اللعب والعبث الصبياني، جليسي في القسم. المقطوع من الشجر نسيب للمقطوع من الشجر. الكسول للكسول نسيب. ابن خالتي هذا لم يتذكر بدوره ما قاله المدرس، وكلانا لم نفعل شيئا، وكانت العصا مقابل من لم يعمل بعمل المدرس، وكذلك كان. أكثر من طفل أو طفلين أو ثلاثة وقعت عليهم عصا المدرس، أما ابن خالتي فقد فعل به المدرس ما فعل، حتى فعل في سرواله ما لا ترضاه خالتي، وصار يستعطفني بكل الأساليب والألفاظ كي لا أخبر أمه، وأنا أطمئنه أن لا شيء سيصدر من فمي، إلا أنني أذكره بين الفينة والأخرى أن خالتي ستشم الرائحة الكريهة في سراويله في أي لحظة، وقد تفعل به ما فعل به المدرس، ويفعل ما فعل في القسم ثانية! لكنه كل مرة يستعطف، ويطلب مني أن أحلف بسيدي صالح أن لا يصدر ذلك مني فقط، وكذلك كان. فِعْلُه قَبَرْتُه عند باب القسم، ولم يتخط العتبة اللعينة التي صارت تخيفني، وتجعل ابن خالتي يفعل فعلته الخبيثة. المعلمون قساة يا أصحاب، لكن سي عبد الهادي ليس مثلهم! وقد رأيته يضحك ويلاعب الأشقر، ولم أسمع لحد الآن صراخا يصدر من قسمه. ذاك الذي يدرسنا، يفقدنا وضوءنا يا رفاق!

خالتي هي التي فعلت كل شيء. أمي تقول أن الرجال رجال درسوا أم لم يفعلوا، وهي تصر على أن تدخلنا المدرسة التي لا أرى فيها نفعا على الإطلاق. ستنالين جزاء فعلتك يا خالة، وتنالينه بدءا من الآن، ها هو صغيرك سيعود عندك كل يوم بائلا أو فاعلا شيئا أكثر من ذلك حتى.

لم أكن أستوعب تلك الدراسة. عقلي فارغ من تلك الأمور. عقلي تسكنه أمور أخرى؛ الشيخ وابن أخته، وأبي الذي لم يعد أبا لأحد، وأمي التي لا تجد المبيت إلا بالاحتماء بأختها البئيسة، وبؤسنا، وفقرنا، وكوابيس ما مضى، وهواجس ما سيأتي، وابن خالتي الذي ليس بابنها الحقيقي؛ ابن مزور! والأشقر الذي لا يجد مكانا للنوم ليلا من كثرة إخوته وعماته وجده وجدته الذي يسكنون رفقتهم في نفس البيت، وأبوه الأصلع الذي يظل طول اليوم يدخن الكيف في مقهى الدوار، وأمه التي لا تكفيها أعضاء جسمها الهزيل للقيام بكل أعبائها، وكلاب المحطة وقططها، والشرطي الشاخر، والمقهى والمرحاض النَّتنَان، والمتسول المقرفص عند بوابة المحطة، والنساء المتسولات والمهربات. أمي كانت من هن كما سمعت. هذه أمور بدأت تُبَيِّض ليالي، وشرعت تمنعني من النوم أحيانا.

أحسد الأشقر على النعمة التي حضي بها. ينساه المدرس ويرسله لأغراضه. ينال منه بعض الدراهم أحيانا. حتى أنا، أتمنى كثيرا لو كنت بمنزلته عند مدرسي. أنا كبيرهم في القسم، وأطولهم، وأقواهم حتى. لم لا

يفعل بي مثلما يفعل سي عبد الهادي بياسين؟ أَعِدُه في سري أنني سأكون أفضل من ياسين، وأحسن قياما بالخدمة منه، لكنه بدل أن يفعل ذلك، يضربني كل الأصباح. يضربني عن أشياء لم أستوعبها بعد. ماذا يريد مني هذا البرميل؟! أنا لا أريد هذه الدراسة، ولا أريد هذه المدرسة اللعينة التي قيدتني. لقد جعلتْ مني طائرا يعبث به طفل شقي. أنا أريد أن أكون مثل اليمامات التي تشق الأرض كما تشاء، لا أحد يوقفها أو يطلب منها الوقوف عند هذا الحد أو ذاك.

أريد أن أقول كل هذا لأمي ولخالتي أيضا. حتى هي، صارت تتدخل في أموري وشؤوني، وتحاول أن ترسم لي مستقبلي. أريد أن أقول لهما هذا، لكنني أخشى أن تغضبا كثيرا. ما مثل هذا الكلام يقوله الأطفال الصغار. تقول خالتي أن الأطفال مكانهم المدرسة يا أخية. أمي لا ترد؛ لأنها على الأرجح لا تعرف ما إن كان فعلا مكان هؤلاء الصغار المدرسة، أم أن مكانهم شيء آخر لا تعرفه هي، ولا تعرفه خالتي، وربما لا يعرفه الكثير من البشر. لكنها تظل صامتة لا تقول شيئا.

أحسست أن أمي أيضا أعجبها أن يكون مكاني هو المدرسة؛ لأن ذلك لا يكلفها شيئا. كل ما هناك تكفلت به خالتي. ثم إنني أغيب عن دنياها أغلب الوقت، إلا حين تأتي الأصياف والعطل الأخرى فإننا، أنا وابن خالتي والأشقر وآخرون، لا نترك واديا ولا حقلا ولا مكانا لا نطؤه. الأشقر هو الذي يزيد نار تجوالنا اشتعالا وتهيجا.

أغيب أنا، ويغيب ابن خالتي أيضا عن دنياهما. نتركهما ليتحدثا في كامل الراحة والطمأنينة. لست أدري ما إن كانت أمي تحدث أختها عن أبي وحاله، وربما تحدثت لها عن زواجهما ولقائهما، وعن الدوار الذي سكناه، وربما عن الشيخ اللعين، وابن أخته الخنزير، وعن أشياء أخرى. قد تكونا تتحدثان عني، وعن ابن خالتي الذي اشترته فقط، وربما أُعطي لها، الأطفال يُعْطَوْن أيضا. قد يعطيك الإنسان طفلا، أو طفلة، ولا يعطيك درهما واحدا، سواء طلبت منه ذلك أم لم تفعل. لا يهم عم تتحدث أمي وخالتي في غيابنا. يهمني أن أقنع أمي وخالتي معا بأن هذه المدرسة لا تروقني بتاتا. سأقول لهما أن سعيدا تناسبه أكثر؛ لأنه أصغر مني بعامين أو أكثر. أما أنا، فإن المدرس ينعتني بالشيخ، وأمي تصر على أن تقول عني أنني صغير لا أعرف شيئا. المدرس مثل سائق الطاكسي الذي ركبنا معه من الناظور إلى بوعرك، ومثل الحاجة منانة التي كنت أبتاع لها قنينة الغاز الكبيرة، وأنا دون هذا السن بكثير. و كانت تحاول أن تقنع أمي أنني كبير، وقادر على فعل ذلك. هذا المدرس مثلهما، يقول لي دائما أنني طاعن في السن، ولن تصلح لي دراسة في القسم الأول، ويقول لي أيضا أن أترابي قد بلغوا أقساما أخرى. صحيح ما يقوله مدرسي، فالأشقر الكسول والغبي لا يكبرني إلا بسنة واحدة، وقد بلغ العام الرابع في المدرسة. أنا، لا أريد أن أبلغ شيئا داخل هذه الأسوار. أريد أن أكون طائرا لا يتحكم فيه أحد، ثم

إن المدرس يعرف أكثر مما تعرفه خالتي وأمي، ويعرف أكثر من كل شخص عرفته، وهو يقول أنه لا ولن تصلح لي دراسة. ترى لم يضربني كثيرا إن كانت الدراسة لا تصلح لي؟ فليدع هذا الطفل البئيس الذي كُنْتُه، ومازلت، أن يحيا حياته كجرو ليس أكثر.

حين شارفت السنة الدراسية على الانتهاء، قال لي المدرس أنني سأدرس مرة ثانية في القسم الأول، وربما ثالثة أو رابعة إن بقيت على حالي، وأنا لا أعرف حالي حتى أحاول أن أغيرها! إنني لا أريد أن أغيرها حتى. أنا أريد أن أكون هكذا، ومن قال أنني أستطيع أن أتغير؟ من..؟ من..؟ أنا مقطوع من شجرة، وأبي كذلك، وأمي تبدو كذلك. أبي قُتل من أجل لا شيء، وأمي قد تموت في أي لحظة بسبب المرض اللعين، والشيخ طردنا، ورأى فينا كلبين أو جروين لا يستحقان العيش بين ظهرانيهم ما دام قتل أبي هو النحس الذي جلبناه على الدوار اللعين. تفو على الزمان الذي جعل من الشيخ وأمثاله أسيادا!

إلى متى سأبقى في المدرسة؟ وإلى أين سأمضي إن أنا استمررت؟ من يدري؟ حتى خالتي التي تدّعي أن المدرسة تنفع الأطفال لا تعرف إلى أين يمكن لهذه المدرسة أن تسير بي وبابنها. إنها سمعت ذلك عند الحاج، أو عند زوجه الحاجة، أو عند واحد مثلهم. هؤلاء شبعوا الخبز، وشبعوا كل شيء أيضا، ولن أجد عجبا إن هم رأوا في هذه المدرسة نفعا. أما أنا فما زلت أحلم الخبز، وتأتيني كوابيس الجوع والعطش، وما

زلت أرتعد في الشتاءات بردا، فلا يمكنني أن أرى النفع فيها، ولا يحق لي أيضا أن أستمر داخل أسوارها.

ابن خالتي هو الآخر قال له المدرس ما قال لي، إلا أنه استدرك قراره قائلا:

- أنت لا بأس عليك، يمكنك أن تنقذ نفسك، ما زلت صغيرا، اجتهد أكثر لتنجح العام القادم.

أوه، ماذا يقول هذا؟! هل صرت كبيرا إلى درجة أن شيئا ما فاتني، ولا يمكنني أن أدركه؟ كيف؟ وأمي تؤكد ليل نهار على أنني ما زلت صغيرا؟ كيف؟ وآثار البول ما زالت تجثم على أطراف ملابسي، ورائحته الخانقة ما زالت تنبعث من سروالي الذي لم ألبس غيره مذ قدمت إلى بوعرك؟ ماذا يقول بحق جاه سيدي النبي؟ ماذا يقول؟ لكن رغم أنه يقول أن شيئا ما، ربما تافه حتى، قد فاتني، فأنا أقول أن كل شيء فاتني، وفات أمي أيضا. نحن الاثنان، وكثيرون مثلنا، ننتظر شيئا، أو أشياء لتأتي. هي لن تأتي، ونحن نعلم أنها لن تأتي، لكننا رغم ذلك، نظل ننتظر لأنه لا شيء عندنا يفعل حتى وإن كان ما نفعله لا يأتينا بشيء.

لا بأس، ما دام ابن خالتي أيضا سيكون معي على نفس الطاولة العام القادم. أمي لن تقول أن ابن خالتي الصغير نجح، وأنا لم أفعل. العزاء واحد. أن تفقد شيئا، ويفقده الآخرون فلا عزاء في ذلك. يبقى ذلك

خير من أن تفقده أنت، ولا يفقده هو، أو أن يحدث العكس. هكذا يبدو لي هذا الشيء، والله أعلم.

مر الصيف جميلا أيضا. قيود القسم، وأسواره تخلصنا منها، بشكل مؤقت على الأقل. الأشقر صرت أعرفه أكثر. يثق بي، وأثق به. الجراء الضالة سرعان ما تنسجم مع بعضها البعض، وسرعان ما تبني صداقات نفعية، إلا أن كثيرين حذروني منه، وقالوا أنه شيطان صغير قد يفعل الأفاعيل، ويفكر في أشياء لا يمكن أن تخطر ببالي أنا، ورغم ذلك، كنت أهوى مغامراته، وكنت أقذف بأقوال الأطفال الآخرين في قاع سحيقة كما كانت خالتي تقذف بأزبال بيتها في الحفرة المجاورة للحقل. ربما كان الآخرون يحسدونني على حسن التفاهم بيني وبين الأشقر، وقد يكون هذا هو السبب الوحيد الذي يجرهم إلى تحذيري منه، ومحاولتهم إبعادي عنه.

ذات الصيف، ستخرج أمي من قمقم بيت خالتي، إذ سمعت ذات ليلة مقمرة، حيث كان ابن خالتي نائما بعدما تعب كثيرا من اللعب، وكنت في الداخل أمثّل دور النائم، خالتي تقول لأمي، وهما جالستان في الفناء تستمتعان بضوء القمر، وبنسيم ليالي الصيف العليلة:

– قالت لي الحاجة أنك إن كنت تريدين العمل، فالحاج يريد ذلك. الطماطم تُقطف كل يوم، ويمكنك أن تفعلي ذلك مع بقية النساء. أنت ما زلت صغيرة قادرة على العمل.

أمي لا تقول شيئا، لكن لا شك أعجبتها الفكرة، تضيف خالتي:

- هذا أفضل لك، توفرين بعض النقود على الأقل.

تصمت لحظة، ثم تستدرك:

- أنا لا أقول لك هذا لتساعديني في شيء. المال مالك. أنت وابنك مرحبا وألف مرحبا بكما في بيتي. إنه مثل ابني أو أكثر. أنا أقول لك هذا من أجلك أنت فقط. أنا أعيش، وبخير، والحمد لله، وأنت تعرفين ذلك. سيدي الحاج عبد الرحمن، أمد الله في عمره، فعل الكثير من أجلي منذ توفي المرحوم. الله يرحمهما معا في هذه الليلة المباركة.

تهز أمي رأسها علامة الرضا، وتضيف خالتي دون أن تطلب منها ذلك أمي:

- من أجلك يا أختي، والله من أجلك، ومن أجل ابنك أيضا. دراسة ابنك أتكلف بها أنا، وإن كنت تعملين. لا مشكل عندي.

تغمغم أمي :

- يا أختي هذه الدراسة لا أرى فيها نفعا، وحق سيدي النبي. الطفل صار يكبر، ويفهم هو الآخر، ولم يبق له الذهاب إلى قسم يدرس فيه الصغار، أمضى سنوات بها بلا نفع. لو وجد عملا لكان أفضل له.

خالتي هذه المرة لا تعترض، وأنا لا أريدها أن تعترض، لكنها تقول:

- والله إن الطفل يكبر حقا، وأن يتعلم صنعة أو حرفة خير له من أن يبقى طول اليوم يلعب، ويعبث مع الصبيان هنا. الدنيا تتغير يا أختي،

واليوم لن يبق كما هو. معك حق في هذه. هذا اللعب مع الأطفال لن يطعمه خبزا، ثم إن هؤلاء الأطفال عفاريت ما بعدهم عفاريت. من قبل كان الدوار بأكمله مفتونا بهم، خصوصا ابن تلك التي كانت تتحدث معي البارحة حين كنت قرب بيت لالة الحاجة. رأيتِها؟

تهز أمي رأسها أن نعم، وتضيف خالتي:

– ابنها، لا حول ولا قوة إلا بالله. فتن الدنيا بأكملها. يا أختي، يسرق، يضرب الأطفال، يفعل كل شيء قبيح، والله كثير. كثير.. ولا شيء يقوله أبوه. لا ينه عن منكر يراه قدام عينيه.

تصمت لحظة، ترفع كفها علامة التعجب:

– ماذا عسى أبوه أن يفعل؟ حتى هو، لا حول ولا قوة إلا بالله، سكير، ومدخن بلا هوادة. قيل أن كل من في سوق الأربعاء دائن له بالكثير من المال. الناس يا أختي يريدون أن يعيشوا بالمجان. اللهم استر حالنا.

– آمين يا أختي. آمين.. هذه الدنيا ليس فيها ما يُحَبّ.

ابن خالتي يهرف بكلمات، وهو نائم. تدور خالتي جهة الصوت الذي ينبعث من الغرفة. يفعل ذلك ثانية، تنط من مكانها، تتبعها أمي:

– بسم الله الرحمن الرحيم يا ولدي.

تنظر إلي أمي. أتظاهر بالنوم. أفتح عيني اليسرى قليلا. تنظر إلي أمي. أفتحهما معا، تقول لي:

- لم تنم بعد يا خنزير. نم. ألم تعْيَ بعد من لعب النهار؟

أُغيّر وضع نومي، وأحاول أن أستسلم للنوم، لكن ما حدث اليوم عند الساقية التي قصدناها للسباحة لم يترك النوم يجثم على جفوني. مسخوط ذلك الأشقر، وحق النبي. لن أتبعه بعد اليوم. كان يريد أن يفعل شيئا قبيحا لابن خالتي! استغل الخنزير صغره. يقول لي: أنت اسبح، أما أنا وابن خالتك، فسنذهب إلى الحقل لسرقة المشمش. صدّقت الخنزير، وتركت ابن خالتي الصغير يذهب معه، ونسيت أن خالتي تحذرني دائما أن لا أتركه وحده. تقول دائما:

- الأطفال سيضربونه.

وأنا أطمئنها لتسمح له بالذهاب:

- يا خالتي من هذا الذي يستطيع أن يضربه، وأنا هناك؟ هل سيضربنا نحن الاثنين؟

لكن خالتي لم يخطر ببالها أنه بالإمكان أن يحدث لابنها الصغير ما هو أكثر من الضرب، وربما تعلم فهي أكبر مني، وأنا لا أستطيع أن أعرف أكثر مما يعرفه الكبار. كانت تعرف أن ذلك يمكن أن يحدث أيضا، لكنها تستحيي أن تقول لي أن أراقبه من ذلك أيضا بشكل مباشر.

خالتي كانت تقول: راقبه جيدا، وكان علي أن أراقبه في كل شيء. الحق يقال؛ حتى أنا لم أكن أحسب حسابا لما ينويه الأشقر الخنزير.

حمدت الله كثيرا كما فعلت أكثر من مرة من قبل. حمدت الله أن الأشقر لم يذهب بعيدا بابن خالتي، ولو ذهب به بعيدا لَمَا استطعت أن أساعده، وأنقذه في الوقت المناسب. ما إن شك الصغير في أن الأشقر يريد منه شيئا قبيحا لم يعهده منه من قبل، حتى سمعته يصرخ، ويستغيث بي، وكنت كخُطَّاف. اندفعت من الساقية، وركضت نحوه بشكل غير متوقع. كما خلقتني أمي أركض نحو حقل المشمش. عاريا إلا من تبان قصير مقطع من الجهة الأمامية، والخلفية أيضا. كيف لا أفعل ذلك، وخالتي تقول لي: " إياك إياك أن يحدث له مكروه، وتعود إلي به." لم أترك للأشقر شيئا إلا وسببته به. لم أخشه، ولم أحسب له حسابا. حسبته نملة، أو ذبابة تنط على صحن مرق. حسبته عدما. من هو ليفعل بابن خالتي، التي تطعمني، وتطعم أمي، وتؤويني، وتؤوي أمي، ذلك الشيء الذي يخجل منه الكل. كنت مستعدا أن أدافع عني وعن ابن خالتي، لكن الخنزير عرف فعلته القبيحة، فبرد ولم يقل شيئا. انصرف، وقلت له أن لا يبحث عني، وعن ابن خالتي من ذلك اليوم فصاعدا، وكذلك كان.

يكفي أن ابن خالتي أنقذته هذه المرة. يكفيني أنه عاد اليوم سالما، وحذرته كثيرا من أن يخبر خالتي بذلك، بل وبُسْتُ قدميه، وربما بست

أشياء أخرى من جسده لو أنه لم يلن. تستُّره وكتمانه لهذا الشيء كان مصلحة له أيضا، سيتأذى هو الآخر إن تفوّه بشيء. بسْت قدميه حتى يتستر على ما يريده الأشقر أن يفعله منه، وحتى لا يقول شيئا لأمه، وقلت له أنه إن نبس بشيء فقد تضربنا خالتي معا. وقد كان وفيا بكلمته في هذه، وكره الأطفالُ الآخرون الأشقرَ أيضا على فعلته التي لم ترقهم جميعا.

في الطريق كان الأشقر جائعا جدا؛ لأن المشمش الذي قال لي أنه سيسرقه مع ابن خالتي لم يسرقه! وكذلك كنا جميعا، وكان في الطريق كثير من أشجار التين التي بدأت تنضج، وكان علينا أو على البعض منا أن يتسلق الشجرة ليقطف حبات نضجت. وما كان على الأشقر إلا أن يفعلها، وكذلك كان. تسلق إلى أعلى فرع في شجرة التين الكبيرة، وقال وهو يطمئننا مقهقها:

– هذه الشجرة تملكها امرأة إن أرادت أن تمسك بنا ستحتاج إلى ثلاثة أيام لتبلغ الشجرة من بيتها!

قهقه كثيرا، وضحك بعض الأطفال أيضا، أما أنا، فلم يعد يروقني الخنزير. تفو على نسله. تفو!

ورغم أن الأطفال ضحكوا على قولته، فإن شيئا ما كان يدور في عقولهم الصغيرة.لم أكن أعرف شيئا مما يريد الأطفال أن يفعلوه، فقد بلغ الأشقر القمة، وهرعوا إلى جذع الشجرة يهزونه هزا، ويصرخون:

"فليسقط.. فلسيقط.. يسقط.. يسقط الخنزير الذي يدعي أنه أسد مقدام." وكذلك كان، فقد سقط فعلا، لكن لا شيء حدث لعظامه الكلبية! لا شيء حدث. كلب ليس من السهل أن يموت، أو تتكسر عظامه. انتصب واقفا. نفض الغبار. شتم، وأزبد، وأرعد، وهدد، وتوعد، لكن لا شيء يصلح له في هذه الحالة. كل الأطفال ضده. كل الأطفال كرهوه.

لم يعد يروقني. صار اسمه يصيبني بالغثيان حين يسقط على أذني. تفو على سلعة الكلاب. تفو.. ثم إني لم أعد أرافقه في شيء ما دام يريد أن يفعل ما هو قبيح لابن خالتي، وابن خالتي أيضا لن يعود إليه. كيف سيفعل ذلك، وقد صار الأشقر يأتيه ككوابيس في منامه. صرنا نلعب سويا في البيت، أو في الحقول المجاورة، وإن اقتضى الحال كنا نصاحب بعض الأطفال الآخرين الذين يكرهون الأشقر أيضا. مضى الصيف الأخير ببوعرك وقضى، إلا أنه لم يكن يشبه الصيف الذي قضيناه من قبل.

إلى الشمس..

رواية بديعة

كان شهر ماي يومئذ يجر معه الكثير من الحرارة وقيض الشمس الحارقة. وكانت نسائم البحر، رغم ذلك، تتهادى إلى المدينة فتنعشها وتنعش أجسادنا المتعبة. كانت خالتي مَغْنِيَّة تجر معها حفيدتيها، ماسيليا ونوميديا، كانت الفتاتان ابنتي ابنها البكر رشيد الذي يمتلك مطعما فاخرا على كورنيش مارتيل. يملك سيارة من نوع مرسيديس ومنزلا شبيها بفيلا. وقد أطلق على ابنتيه هذين الاسمين لتمسكه كثيرا بمبادئ الأمازيغ الأولين وأسمائهم وثقافتهم.

لم تعد خالتي تسكن بيتها المتواضع بحي كويلما، بل صارت تسكن رفقة ابنها، الذي عاد من ألمانيا بعد غياب مدة فاقت العشرين سنة. رشيد الآن يبلغ من العمر سبعا وأربعين عاما، تزوج ابنة عمه، بعدما أنهى كل علاقاته التي كانت تربطه بالمرأة الألمانية التي استغرقت أكثر من عشر سنوات، والتي كانت تحدثني عنها خالتي مغنية كثيرا حسب ما حكاه ابنها.

بنى رشيد منزلا في الطريق الرابطة بين تطوان والمضيق، واشترى المطعم بمارتيل بالأموال الطائلة التي جلبها من ألمانيا بطرق يقول عنها عزيز أنها مشبوهة. عاد إلى البلد بعدما توفي والده اعمار الذي كان يملك البيت بكويلما ويملك دكانا للمواد الغذائية في طريق سانية الرمل. باع رشيد

كل شيء، أعطى لفريدة حقها من الإرث، وذلك بعد أن حصلت على الإجازة في القانون وتزوجت ابن عمها، هي أيضا، والذي يعمل بالديار الهولندية. حين توفي عمي اعمار وعلم رشيد باقتراب زواج فريدة، لم يجد بدا من البقاء في ألمانيا، ففضل الرحيل بعد أن اطمأن على مستقبله بالأموال التي وفرها طيلة المدة التي قضاها هناك. وصارت الآن ماسيليا ونوميديا تملآن دنيا خالتي مغنية صخبا بعدما عاشت شهورا في صمت وسكون لم يكن يكسره إلا زياراتي إليها بين الفينة والأخرى.

خالتي مغنية افتقدتني، بعد أن مضى على آخر يوم زارتني فيه عدة شهور. جَرَّت حفيدتيها وأخبرتهما بأنها تعزم على زيارة واحدة من أقاربها في تطوان. وقد تعجبتا لكونهما ليستا وحيدتين، بل لهما أقارب في نفس المدينة التي تسكنانها. كانت البنتان توأمين لم تتجاوزا عامهما السادس بعد، لكنهما كانتا ذكيتين وشاطرتين تماما كأبيهما كما كنت أعرفه في الريف، وأنا طفلة دون السابعة. قبل أن يهاجر عمي اعمار في نهاية السبعينات، ومنها بعام أو عامين سيغادر رشيد مغادرة ستدوم تلك السنين التي كانت على والديه عجافا ثقالا.

جاءتني خالتي مغنية محملة بأكياس من اللحم والخضر والفواكه والمشروبات الغازية والخبز. تساعدها في حمل ذلك كل من ماسيليا

ونوميديا رغم صغر سنهما. فرحت كثيرا حين رأت عيناي وجهها الذي لا تفارقه البشاشة حتى في الشهور التي عاشتها وحيدة في بيتها القديم.

اتصلت بعزيز لأخبره بأمر مجيء خالتي، فرح هو الآخر لمجيئها. في الحقيقة، كان لخالتي هذه الكثير من الفضل علينا في أيامنا الأولى لنا في تطوان. سألني عزيز:

-ماذا ينقصنا بالبيت؟

- لا ينقصنا إلا النظر في وجهك العزيز.

ضحك عزيز كثيرا لعبارة "النظر في وجهك العزيز" لكون هذه العبارة كانت تُستعمل في الريف كثيرا في كتابة الرسائل التي ترسل إلى الأحباب والأقارب الذين يقطنون في أوروبا أو في مدن مغربية أخرى. عزيز بنفسه، طالما كتب رسالة من ذلك النوع لخالته السعدية التي ترسلها إلى زوجها الذي يعمل في حقول العنب بفرنسا. ينهي عزيز رسالة خالته السعدية بعد أن يخبر زوجها بكل شيء تقريبا. يحدثه عن فدان الشعير المحاذي للبيت وعن الثور الذي تركه، حين عاد إلى فرنسا آخر مرة، عجلا صغيرا، وعن الفقيه، السي المفضل، الذي تم استبداله بآخر من قبائل بني وراين من تازة، ويخبره بما ينقص خالته، وبما تحتاجه وبأشياء وتفاصيل أخرى...

اعتقد عزيز أنني أمزح باستعمال تلك العبارة، إذ أنني كنت أفعل ذلك مرارا، فكرر السؤال ثانية:

-بجد يا بديعة، ماذا سأشتري؟

-والله يا عزيز، كل شيء جلبته خالتي مغنية، ولا ينقصنا إلا النظر في وجهك العزيز.

هذه المرة، أنا من ضحكت من العبارة، لكن بصوت خفيض تفاديا لسماع خالتي لضحكتي، وأنا أحدث عزيزا، فتظن ما لا أحبه.

قبل أن أضغط على زر إلغاء المكالمة، أخبرني عزيز أنه يريد دعوة عمي حسن الذي لطالما كان يحدثني بذلك، استحسنت الفكرة ما دمت سأعد الغذاء على شرف خالتي وأميرتيها.

من خلف باب الغرفة التي جلست فيها رفقة خالتي، استرقت النظر لأرى شكل عمي حسن الذي كنت أتمنى رؤيته. كان كما تصورته تقريبا. شيخ وقور يميل إلى القصر كثيرا. جاء لابسا جلبابه وطربوشا صوفيا أخضر اللون. دخل عمي حسن البيت يتمايل يمنة فيسرة، وهو يتلو ما تيسر من الأدعية لمباركة بيتنا وأولادنا الذين قد يأتون. كان عمي حسن يقرأ أدعيته بصوت جهوري يُسمع في أرجاء البيت، وكانت خالتي تردد وراءه بصوت خافت بقولها "آمين" كلما تلفظ بدعاء من أدعيته.

بقيت يومئذ أجوب البيت وأطوف فيه كنحلة لم تهدأ، وأنا أصحب معي الجنين الذي يرقد بسلام في أحشائي أينما ذهبت! كان عزيز يقول لي أحيانا، وأنا أقوم لجلب شيء ما، من باب المزاح: "دعي الجنين قربي، لا تأخيذ معك، ستتعبينه بالجيئة والذهاب، وهو ما زال في طور التكون!" تكلمت خالتي مغنية عن كل شيء. وظلت الأميرتان طيلة اليوم تعدوان في البيت وتتقافزان كغزالتين صغيرتين تكتشفان تفاصيل الحياة من حواليهما. وبقي عمي حسن رفقة عزيز في بيت الضيوف أزيد من ساعة بعد تناول الغذاء يتبادلان أحاديث أزقة العيون ومستملحاتها، إلى أن دنا موعد أذان العصر، حيث انصرفا إلى حيث سيكملان مسيرة حكاياتهما.

انصرفت خالتي مغنية، وهي تعدني بعودة قريبة، وهي تدعو لي وللجنين ليكتب له الله الحياة. ودعتها على وقع قبلات ماسيليا ونوميديا التي انهالت على خدي، وهما تتقافزان علي، وخالتي تحاول أن تصدهما عني، وهي تقول: "هاتان البنتان تريدان أن ترهقاك يا بديعة، وأنت ما أنت عليه من عسر الحمل." مرّرتْ ماسيليا على بطني بلطف، وقبلت موضع الجنين، وهي تقول ببراءة ساطعة: " هذا الطفل سيلعب معنا حين يولد، أليس كذلك يا خالتو بديعة؟"

حين عاد عزيز في المساء، تحادثنا عن الجزء الثالث من المخطوطة الذي نشره قبل أسبوع. كانت ملاحظتي هذه المرة أن الجزء كان أطول مما

توقعت، وهو أمر كنت أود أن أحدث به عزيزا منذ إكمال الجزء بعد ثلاثة أيام، إلا أن أشياء أخرى كانت تشغلنا. عزا عزيز طول الجزء إلى كونه لا يريد أن يفصل الأحداث التي تبدو مترابطة فيما بينها عن بعضها البعض. وقد أخبرني أن ثمة الكثير ممن يرون ما ينشره على الفيسبوك. ثمة عشرات ممن يضغطون على زر الإعجاب، لكنه لا يستطيع أن يضمن أنهم يقرؤون ذلك. قال عزيز:

- على الأقل، سيوجد من بين أولائك العشرات من يقرأ ذلك.

بعد ذلك أضاف:

- يا بديعة، حتى ولو لم يكن هناك من يقرأ هذا غيرك، فهذا يكفيني، أنا ما ترجمت ليقرأ الآخرون. فعلت ذلك لتقرئي أنتِ، ولأستمتع بالترجمة التي تعرفين أنها هوايتي مذ وطئت كلية الآداب بفاس.

صمتت بعد ذلك. احتسى عزيز من كوب الشاي الذي كان موضوعا على حافة الطاولة، ومددت يدي أنا أيضا لأرشف رشفة. قال عزيز:

- أنهيت ترجمة الجزء الرابع، لكنه هذه المرة قصير.

مضى إلى غرفة النوم، أتاني بالجزء الذي تحدث عنه، وهو يقول:

- اقرئي أنت، كما تفعلين دائما، قبل أن يقرأ ذلك أحد.

تفحصت الأوراق وتصفحتها. غمرتني نشوة القراءة في نفس اللحظة التي كنا نحتسي فيه شاينا منتظرين دنو وقت العَشاء. قلت:

- حين تقع عيناي على ما تترجم يا عزيز تحدوني الرغبة في قراءة ذلك للتو. ألا تمانع أن أفعل في هذه اللحظة؟

-أوه، ماذا تقولين؟ اقرئي، وبصوت مرتفع لأتأمل الترجمة، قد تتضح لي أخطاء أو تعديلات ضرورية قبل أن أنشرها غدا.

قرأت، لعزيز ولي، الجزء بصوت جهوري بعد أن أنزلت مستوى صوت التلفاز إلى مستوى الصفر، وقد كان ما ترجم عزيز هذه المرة على الشكل التالي...

قدم على ممر آخر..

محطة الناظور، ثانية.

المحطة شاحبة، والوقت ظهيرة لعينة. المتسول يتقرفص عند بوابة أخرى، لكنه يتقرفص كما كان يفعل قبل سنوات. غيّر الباب فقط؛ "بَدِّلْ الرَّحْبَة تصيب الرحمة." الشرطي نفسه. لا، لا أتذكره جيدا. لا يهم، قد يكون الشرطي نفسه الذي رأيته من قبل، وقد يكون غيره. لكن هذه المرة لا يشخر، ولا يسند ظهره للحائط الإسمنتي. هذه المرة يتجول في المحطة كسائح أجنبي. لكنه لا يفعل شيئا هذه المرة أيضا. يفغر فاه. يتمدد. يتمطط. يرفع يده اليمنى. يلوح بها. يحك بها رأسه وظهره. يحك بها أشياء أخرى..! لكنه، في الواقع، لا يفعل شيئا. حتى لو سألت إحدى هذه الوجوه الذابلة التي تتمايل على أرصفة المحطة، لقالت نفس ما قلته.

الشرطي السابق ليس كهذا، يبقى هناك اختلاف على كل حال. هم ليسوا متشابهين على الإطلاق إذن. المرحاض العمومي ما زال مُمِيتاً، هذه المرة أملك الدرهم الذي أستطيع به الدخول إليه لفعل شيء لا يجب فعله في العراء. لكن ذاك الشيء لا تحدوني الرغبة بفعله. أحتفظ بدراهمي. الدراهم قليلة على كل حال، وفي كل الحالات، فأن تملك هذا القليل خير من أن لا تملك شيئا على الإطلاق. الحركة ضوضائية دؤوبة ضجيجية دائما. المارة والعابرون يعبثون بأرضية المحطة. المكان مثير

بالشفقة أكثر مني، أنا المقطوع من شجر الزيتون البري. بائعو التذاكر يلهثون كالعادة، لكن هذه المرة ككلاب عطشى، أو كأطفال جياع. يسألونني ألف مرة ومرة عن وجهتي، وأنا لا أجيب؛ لأن عمي الحاج عبد الرحمن، حين مد لي ورقة الخمسين درهما مساعدة منه، قال لي:

- لا تثق بأحد. الناس ذئاب.

صَمَت. ثم أضاف:

- في المحطة، اشتر تذكرة سفرك من الشباك. إياك أن تشتريها من أولائك الذي يسألونك عن وجهتك.

لكن، أين هذا الشباك الذي تتحدث عنه يا عمي الحاج؟ رائحة المحطة تجعل الداخل إليها يتقيأ بسرعة برق، لكنني لن أتقيأ. أمتلك قدرة خارقة على مكافحة الروائح الكريهة. حالتي تشبه رائحة كريهة، أو ربما أكثر. لا أستطيع أن أتأفف من رائحتي. لا، لا يمكن. أتحسس جيبي الذي تنام فيها الأوراق الثلاثة. أتأكد من وجودي! أعود لأتأمل حقيبتي المتآكلة. أجدها بسلام، ثم أمضي للبحث عن هذا الشباك الذي نصحني به عمي الحاج. ألتفت في كل اتجاه. يبدو علي أنني لا أعرف في الدنيا شيئا. يقصدني أكثر من جَابٍ، لكنني، كل مرة، أتحاشاهم، وأتصرف معهم بالتجاهل.

أين لي أن أجد الشباك الذي يمكنني أن أشتري منه تذكرة الذهاب إلى وجدة؟ أبحث أكثر. أظل عنيدا. أظل متماسكا. لا ألين لهذه الذئاب

التي تريد أن تأكلني على طبقها المقيت. قال عمي الحاج أنهم ذئاب. لا بد أن أبحث عن الشباك، لا بد..

قالت أمي أن وجدة كبيرة، وكذلك قالت خالتي، ولا أستطيع أن أقول أنهما تكذبان معا. قلت أنه يجب علي أن أتصرف بحذر مع هذه المدينة. في الحقيقة، أمي هي التي قالت لي ذلك، فأنا لا أكرر إلا ما قالته هي، أو ما قالته خالتي، أو ما كان يقوله أبي قبل أن يُقتل، أو ما كان فقيه الدوار في "المسيد" يقوله، وما كان يهرف به المعلم طيلة السنتين اللتين قضيتهما بين أسوار المدرسة. المدن الكبيرة والصغيرة صعبة على حد سواء. حتى الناظور كبيرة بالنسبة لي، وأنا لا أستطيع أن أخرج من المحطة؛ لأنني لن أعود إليها، وإن عدت فلن أعود سالما.

أرْكَبَتْني أمي سيارة أجرة من بوعرك، وقالت:

- حين تصل الناظور عليك أن تدخل المحطة، ولا تنظر يمينا ولا يسارا.

وكذلك فعلت، وأنا لا أستطيع أن أخذل أمي، أو أن لا أعمل بقولها، وقال عمي الحاج أنه يجب علي أن أشتري التذكرة من الشباك. يقول:

- تذكر دائما، من الشباك. الشباك..

يصمت، ثم يعود إلى قوله:

- من الشباك.. إن خدعوك، فقد يسرقوا مالك كله دون أن تحس، وتذكر دائما أن نقودك لن تكفيك إن هم سرقوا بعضها.

أقول في سري: "ليته يسكت. ليته يريحني من نصحه هذا. كفا يا عمي الحاج. أعرف. من الشباك.. من الشباك.. وأعرف أن المال الذي أعطيتني إياه وما أعطتني أمي وخالتي لن يكفيني، لأنه لا يكفيك أنت في شرب العصائر في المقهى. أعرف."

يقول هذا، وخالتي تهز رأسها، وتنظر إلي علامة الموافقة، وخالتي الحاجة فاضمة لا تقول شيئا. كانت تمرر على شعري الأشعث بكفها الذابل. أمي كانت قد غسلت لي شعري جيدا هذه المرة، ورغم ذلك يبقى أشعثا، ولو غسلته بأحسن الشامبوانات، أو بشيء آخر أيضا. وابن خالتي الذي لم يكن سعيدا برحيلي يتكور في ركن الغرفة التي كانوا يودعونني فيها. لا يقول شيئا، ولا يفعل شيئا، وربما يفكر في الكثير. تركت المسكين وحيدا في الدوار. تركته دون رفيق يلعب معه. هناك أطفال آخرون يمكنه أن يصاحبهم، لكنني حذرته كثيرا من الأشقر، وحذرته من الآخرين أيضا. هناك نعاج تستحيل ذئابا إن هي وجدت من تأكل! حذرته منهم جميعا، وقلت بأنه سيكبر هو الآخر، وسيستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه، ونصحته أن يدرس جيدا لترضى عنه أمه، خالتي سعيدة، ولكي تنفعه أيضا. أوليس هذا الذي تقوله خالتي؟ أنا لن تنفعني، ولا أريدها أن تنفعني.

غادرتُ رفقة أمي، وخالتي تتقاطر من مقلتيها دمعة أو دمعتين. تشيع رحيلي من بعيد، أما أمي وابن خالتي فقد رافقاني حتى أركبتني في

الطاكسي، وهي توصيني بكل شيء، وتؤكد على أن لا أنسى أن أبلغ سلامها لزوجة ابن عمي الحاج عبد الرحمن الذي سأذهب إليه بوجدة.

أمي أوصت صاحب الطاكسي كثيرا عني. تُرْكِبُني، وتسرق نظرة أو نظرتين إليه، وهي تقول له:

– هذا الولد صغير لا يعرف الكثير في الناظور. يرحم الله أمك وأباك وكل من هو عزيز إلى قلبك أن لا تتركه يتيه.

يطمئنها السائق، ويحاول إغلاق الباب، لكن أمي توقفه، وتضيف:

– إنه ابني الوحيد. إن ضاع، ضعت معه. من فضلك، حين تصلون المحطة أدخله إلى الداخل، وأَرِه مكان حجز التذاكر. يرحم الله أمك التي أرضعتك، يا ولد الناس..

– كوني مطمئنة يا لالة. كوني مطمئنة. ولدك لن يحدث له شيء.

– لا يا ولدي، الدنيا قبيحة. راقبه جيدا. الله يرضي عليك، ويعطيك ما تريد.

يغلق الباب، وينطلق دون أن يقول شيئا. كان بإمكانه أن يقول شيئا قبيحا عن أمي لو لم يجدني هناك، وربما قال ذلك بعد نزولي أو قاله حين يصل إلى بيته، أو إلى أي مكان آخر، وقد يحدّث بذلك رفاقه.

أمي أخجلتني. هي تقول للسائق ما تقول، وأنا يقول في داخلي شيء: "أنا كبرت يا أمي، كوني مطمئنة." وشيء آخر يقول: "مازلت صغيرا، دعْ أمك توصي السائق، دعها يا صغير."

السائق لم يدخلني المحطة، ولم يفعل شيئا مما قالته أمي. نزلتُ. وقفت كمن يتنظر شيئا ما، ثم قال لي من زجاج سيارته:

- ادخل إلى هناك، واسأل هناك شخصا يريك الشبابيك. اذهب..

فعلا ذهبت، وتصرفت ككبير يعرف كل شيء، ولم أعبأ بالسائق الذي لم يكن فأل خير. في البدء، تهت داخل المحطة، ولم أجد الشباك إلا بعد أن عييت بالبحث. لم أسأل أحدا إلا في الأخير. خفت أن يعرف من أسأله أنني تائه وسط ذاك الزحام، فيستغل ذلك ليفعل بي شيئا لا أريده، ولا تريده أمي، ولا خالتي، وربما عمي الحاج أيضا.

وجدت الشباك. دلفت خائفا وجلا. كنت حَذرا أكثر من المعتاد. سألت:

- من هنا أشتري تذكرة للذهاب إلى وجدة؟

- آه، معك نقود؟

- نعم..

هل يظن هذا التافه أنني متسول يريد منه تذكرة بالمجان؟

- أرني نقودك..

- أعطني التذكرة أوّلا.

ضحك كثيرا. سال لعابه على الكونتوار الذي يجلس وراءه. سمعه الآخرون، وجاءه صديق:

- ما بك يا الخنزير؟!

يضحك بائع التذاكر أكثر.

- ما بك تضحك يا ولد ال..؟

- قلت لهذا الطفل أعطني المال لأعطيك التذكرة، قال: اعطني أنت أولا.

ضحك الآخر كثيرا، ولم يكفا عن ضحكهما حتى كدت أنصرف، والبائع يقول لي:

- ارجع يا صاحبي. نحن نضحك فقط، والله أضحكتنا. الله يرضي عليك. اسمع يا صاحبي؛ التذكرة إلى وجدة بخمسة وعشرين درهما، لكنك ستذهب بعشرين فقط. أنت صاحبنا.

مد لي التذكرة. سحبت ورقة الخمسين درهما بحذر. أعطيتها له، قال لي:

- ولِمَ لمْ تقل لي هذه المرة أيضا أن أعطيك الصرف قبل أن أمسك ورقة الخمسين درهما هذه؟

ضحك صاحبه كثيرا، وخفت أن لا يعطيني الصرف. أحسب في أصابعي تحت الكونتوار الذي أقابله. أتيه في متاهات العد والحساب. أعيد الكرة ثانية، وثالثة بأسرع وقت. أجد أنه سيرجع لي ثلاثين درهما يعني ورقة العشرين، وقطعة العشرة دراهم، يعني اثنتان. مد لي الصرف؛ ثلاث قطع! لم أتأكد من الثلاثين درهما لأنني أدركت أنه أعطى لي زيادة على ما كان عليه أن يعطيني. هممت أن أنصرف. سمعته يقول:

– عند من ستذهب إلى وجدة؟

لماذا يستجوبني هذا التافه؟ ماذا يريد مني؟

– عند واحد من أقاربي.

– ها، ثعلب أنت..

يضيف:

– بعد ساعة، ستكون الحافلة خلف هذا الحائط. لا تذهب بعيدا.

شكرته في داخلي، وأنا أقول بصوت خافت جدا: "لن أذهب بعيدا، ولا قريبا. ستراني هنا طوال الساعة التي ذكرتها." أتحسس القطع الثلاثة اللواتي أعطاها لي. أقول في نفسي: "ها، أنا من سرقهم يا عمي الحاج، وليس هم!"

ارتميت بظهري على الحائط الإسمنتي الذي يقابل المرحاض العمومي. أرقب حركات العابرين والداخلين إلى المرحاض، والخارجين منه. أرقب الحركة الآلية لكف الرجل الذي يتكور عند بابه. أسحب الصرف الذي أخذته من البائع. أحسب جيدا، ثم أجدني، وللمرة الألف أو أكثر أنني صغير لا يعرف شيئا. لا يعرف حساب نقوده القليلة حتى. لا يحسن التفرقة بين الأوراق النقدية والقطع!

أحدق في الخواء. أسخر مني، أنا الصغير الذي لا يعرف شيئا، وأجد أمي على حق حين كانت توصي بي السائق، وأشكر عمي الحاج أيضا على الخمسين درهما، وعلى نصحه، و أتذكر سعيدا ابن خالتي، وأبي

المقتول. أتذكر كل من أعرف، ثم تنزل مني قطرات من ماء العين.. أكفكفها. "أترجل!" أحاول أن أمثل دور رجل كبير. أتأبط الحقيبة الصغيرة. أسأل أحدهم:

- هل وصلت الساعة العاشرة عمي؟

- بقي لها ربع ساعة.

كيف؟! ربع ساعة؟! كم من الوقت؟!

أسأل آخر.

يجيبني:

- لم يبق الكثير.

يسألني:

- تذهب إلى وجدة؟

أحرك رأسي علامة الإيجاب.

- ابق هنا، ستصل الحافلة بعد قليل.

لا أرجع إلى الجلوس، أبقى واقفا متيقظا حارسا كل الحركات، ثم تأتي الحافلة، ويومئ لي الرجل الثاني الذي سألته عن الساعة العاشرة من بعيد أن اركب. أنظر إليه. يشير إلى الحافلة التي استقرت بالمحطة. أقصدها، وأركب، ولأول مرة أركب سيارة طويلة كتلك!

L'homme classique

حكاية علاء بشيري

أجترع ثالث رشفة من قهوتي السوداء التي صنعها صديقي القهوجي باحترافية. حين ينزلها النادل على طاولتي يقول دائما: "هَادِي فِي خَاطَرْ السِّي الأُسْتَاذْ دْيَالْنَا، قَهْوَة مَاكَايْنَاشْ بْحَالْهَا في تَازَة". عقارب الساعة الحائطية التي تقبع في الجانب المحاذي للكونتوار تزحف نحو العاشرة والنصف صباحا. يوم خميس كسول وساخن، وأنا أعب من قهوتي بكسل باد أيضا.

لم يكن يومئذ يوم عطلة، بل إنني سئمت هذه المرة الجلوس في مقر عملي، خصوصا وأنني أمضيت أكثر من ثلاثة أسابيع دون أن أزور مدينتي. اضطررت إلى أن أرسل شهادة مرضية لمديري مخبرا إياه عبر الهاتف أيضا أنني "عِيَّانْ شْوِيَّة". السي عبد العالي رئيس طيب ويقدر ظروف العمل. يعلم أنني لست مريضا ولا مرهقا، كل ما في الأمر هو أنني ضجرت قليلا من القعود في البادية وقتا طويلا.

يأتيني مصطفى، نادل المقهى، بسيجارة من نوع مَالْبُورُو لاَيْتْ. أشعلها بثقل. في الحقيقة، لم أكن مدخنا مدمنا. كل ما في الأمر هو أنني ألجأ إلى سيجارة حين يكون مزاجي خاسرا، وهو أمر قلما يحدث، وقلما تسنح لي الفرص بتدخين تلك السيجارة التي أظنها ستعدل ميزاجي. في الواقع، تأتيني نوبة وشهوة تدخين السيجارة من شهرين إلى ثلاثة أشهر،

وقلما أجد صديقا لي يعرف بأمر تدخيني هذا. وحده عبد المجيد يعلم تفاصيل حياتي أكثر من غيره ممن عاشرتهم، ثم إن عبد المجيد يتقاسم معي نفس العادة، إذ يدخن هو الآخر بين الفينة والأخرى سيجارة أو سيجارتين، إلا أنه، بالإضافة إلى ذلك، قد يكرع مع تلك السيجارة أحيانا قنينة من نوع هِينِيكَنْ أو بَافَارْيا أو أَمْسْتِيلْ أو أي قنينة يجدها في طريقه...

قبل يومين، اتصلتْ بي هاجر، الفتاة التي عرفتها في فاس أيام متابعة الدراسة في سلك الماستر. لم تكن جميلة إلى تلك الدرجة التي تغري بالمجازفة. لكنني رغم ذلك، كنت أمضي معها أوقاتا تبدو حلوة بالمقارنة مع تلك التي قيضتها رفقة رجاء في دروب تازة، ونحن نتابع الدراسة في الكلية. كانت رجاء عنيدة كَأَتَان، وعصية وصعبة المراس كحيوان نافر. لكنني رغم ذلك، كنت أطاوعها وأسير سيرها كي لا تنفلت مني لحظات كنت أحسبها ستمر ثقيلة على قلبي دونها.

اتصلت بي هاجر وأخبرتني أنها قبلت الزواج بواحد من أقاربها الذي صار مديرا لإحدى فروع البنك الشعبي بفاس. جاءني الخبر، وكأنها تتحداني وتتجاوزني بقولها: "قَبِلْت." تأملت الكلمة جيدا لحظتئذ، وأدركت أنها لم تكن هي الأخرى تتوسم فيّ زوجها المستقبلي، وربما كانت تفعل، لكنها تقول في داخلتها: "إن جاء من هو أفضل، ركلت الأول." ربما اعتقدت هاجر أن خطيبها أفضل مني. في الواقع، لم أكن

أعرفه حتى أعرف السبب الذي جعلها تستبدلني به. ثم إن الحقيقة الوحيدة التي سأصدقها هو أنها فضلته لأنه تقدم بالزواج، وبقيت أنا أعبث وألهو، أو ربما أدركتْ أنني لم أكن أنوي ذلك. والحق يقال، فإنني لم أكن أنويه فعلا. كنت أحسب هاجر فترة عابرة في مرحلة من مراحل حياتي التي صارت محطاتها ودروبها تتشعب كلما تقدمت بي السنون. قبل أيام، كررت أمي لازمتها التي تُشعرها بانتشاء طفل يتذوق شيئا لأول مرة. قالت:

-أمَا زلت يا علاء لا تريد أن نرى أبناءك. سنموت، ولن نفعل!

أكتفي بابتسامة عريضة دون أن أرد. تعيد الكرة ثانية وثالثة، وأحيانا تقول ذلك بحضرة أبي الذي يعلق هو الآخر:

- أُولاَدْ هَادْ الزّمَانْ والله مَفْهَمْنَا آشْ بَاغْيِينْ!

أنصرف وأتركهما يخوضان في الموضوع بكل أريحية، وهما يعلمان أنهما لن يفعلا شيئا إن لم أقبل.

همت أن أحتسي من قهوتي، لكنني ألفيتها فارغة. ووجدت نار السيجارة يقترب كثيرا من العقب، فألقيتها في المنفضة، وأنا أمسح بعيني جثة مصطفى الذي ينتقل باحترافية عالية. تذكرت يوم حكى لي كل مشاكله مع زوجته التي تركت له البيت خاليا و أبوابه مفتوحة وانصرفت إلى حيث لا يعلم أحد، آخذة معها كل ما أحب عزيز من الأثاث، وكلما كد من أجله كثيرا. لم يكن مصطفى من النوع الذي يروع النساء

أو ممن يحقد عليهن، لكن، حسب ما حكى لي، كانت زوجته في علاقات غرامية مع أكثر من رجل في نفس الوقت الذي كان هو زوجا لها. قال لي أنها، حين شكّت في أنه يعلم بذلك، وبإنه عازم على إحضار الشرطة إلى البيت بعدما يتأكد من وجود شخص غريب داخل بيته، انصرفت، ليس إلى بيت أبيها، بل إلى حيث لا يعلم هو ولا أبواها.

كان مصطفى، كلما حكى لي هذه القصة، يحمد الله أنه لم تنجب ولدا يجعله يقاسي الكثير جراء ذلك. وكنت كل مرة أتأسف كثيرا لما عاناه، لكنه كان يعزيني هو بقوله:

-مَا ضرَّاتْ غِيرْ رَاسْهَا يَا الصَّاحِبْ.

يقول مصطفى ذلك، لكن ما حدث مع زوجته أمر أثر في نفسيته إلى الدرجة التي يكره فيها سماع من يدعوه أو يحرضه على الزواج ثانية.

كان يسكن وحيدا في بيت آخر، بعدما غير الذي كان يسكنه من قبل كي لا يتذكر شيئا من تلك "العَقِيصَة" كما يحلو له أحيانا أن يسميها. وقد ترك أبويه رفقة أخيه الأكبر في "حَدْ أُولاَدْ ازْبَايْرْ" ممتهنين الفلاحة وتربية المواشي. كان مصطفى مدخنا شرها بعد حادثة الفراق التي يقول عنها أنها لم تسبب له شيئا. يكفي نفوره من النساء، وإحساسه بالضجر والملل بمجرد التفكير في الارتباط بهن ثانية.

حين هممت بالانصراف، طلبت من مصطفى أن يخبر صديقي عبد المجيد بأن ينتظرني في المساء بمقهاه حين سيغادر العمل. احتساء كوب قهوة رفقته كان أمرا لا يمكن التفريط فيه متى ما عرجت على المدينة. قد أضطر ويضطر هو الآخر إلى تدخين سيجارة أخرى، أو قد يشتط في الأمر، فيكرع قارورة من قواريره، في بيت زميله في العمل، والذي يعيش وحيدا في البيت الذي يكتريه بحي المسيرة.

إلى الأقمار الثلاثة..

رواية عزيز

كنت لحظتئذ منكبا على ترتيب بعض الكتب التي اشتريتها من رجل كهل، قال أنها كانت في ملك ابنه الذي كان يتابع دراسته بكلية الآداب في تطوان، شعبة اللغة العربية. هاجر ابنه إلى إسبانيا بعدما حصل على الإجازة، وبقيت الكتب تتناثر في أرجاء البيت، تارة في بيته الذي صار مخصصا للأمتعة الزائدة وغير المرغوب فيها، كما حكى لي الأب، ومرة تجدها في كراتين مدسوسة في ركن من أركان المطبخ، وأحيانا تجمعها أمه فتضعها رفقة ملابسها حفاظا على ذكرى ابنها الذي قضى في حادثة سير في الطريق الرابطة بين قرطبة ومالقا. ترحمنا سويا على روحه وخضنا طويلا في طيش الشباب الذي حول الطرقات إلى مسارح لحروب دون عدو.

كان عمي حسن هو الوسيط في تجارة الكتب هذه المرة، حيث أخبرني بوجود كتب عند جاره احميدو الذي أراد أن يتخلص منها بعدما صارت تذكرهما، هو وزوجه، بابنهما الذي خطفته مخالب الموت وهو دون الثلاثين. قال لي عمي احميدو، وهو يشهق ويزفر بقوة:

-هَادْ لَكْتُوبَا يَا وْلِدِي مَكَايْنَشْ حَتَّى شْكُونْ يَقْرَاهُمْ فالدَّار، الْمَرْحُومْ بْوَحْدِيتُو هُوَ لِّي كَانْ قَارِي وَمْشَى مْسِيكِينْ. (قال كلمة "مْشَى" بمد فاق ست حركات!)

تأسفت كثيرا للأسى الذي ظل يسكن بواطنه، والذي يتبدى جليا في عينيه وفي سحناته التي تميل إلى الشحوب، وتخيلت أسى أعمق يسكن دواخل أم الفقيد. في الأخير، ندمت حين قبلت شراء الكتب التي عرضَتْ علي. لا لشيء، فقط لأنني أحسست وكأنني مستغل وضعا ليس بالوضع المريح لمن باع لي كتبه، خصوصا وأنه حدد الثمن بنفسه، وكان ثمنا رمزيا إلى أبعد الحدود. اقترحت عليه أن أمنحه أكثر كي لا أكون مستغِلا، لكنه رفض، ورفض بقوة، وأومأ لي عمي حسن أن خذِ الكتب ولا تجادل سي احميدو. فعلت، انصرف الرجل، وبقي عمي حسن يشرح لي أكثر عن ملابسات الحادثة التي راح ضحيتها الفتى ومن كان معه من أبناء نفس الحي الذي كانوا يسكنونه.

عكفت على ترتيبها وتنضيدها وأنا أرشف بين الفينة والأخرى من كوب القهوة الذي كان موضوعا على رف من الرفوف التي ظلت شاغرة لمدة. وكان عمي حسن يجلس عند عتبة بابي، وهو يكلمني ويحرس دكانه في الوقت نفسه.

لم يمض وقت طويل، حتى شعرت بالظل الذي يُحْدِثه عمي حسن بجلوسه عند الباب ينسحب شيئا فشيئا، نظرت ورائي فإذا بي أجد رجلا يتقدم إلي. لا شك أنه يبحث عن كتاب ما، أو أنه أراد التوقف للنظر فيما أبيعه، ألم يقل التُّجار "لِّي مَشْرَى يَتْنَزَّهْ؟" انسحب عمي حسن قليلا ليفسح المجال للرجل القادم إلينا. ارتميت بعيني على محياه،

قلت في داخلتي: "سحناته ليست غريبة على ذاكرتي." دنا مني أكثر. ارتسمت على ثغره ابتسامة، تدفقت الأسئلة والاستفسارت في مخيلتي كسيل جارف. قال الرجل، وهو يتأمل ملامحي:

- إِيهْ يَا سِّي عَزِيزْ. لِحْيَة تْشِي غِيفْارا مشاااات. حسنتيها!

لم أرد على ما قاله، لكنني تأملته لحظة خاطفة، وسرعان ما ألهمت الجواب:

- أُوهْ، لا تقل لي أنك الهادي التطواني..!

لم يجب، بل أضاف:

-أصبحتَ أبدن قليلا، وصار وجهك أكثر بياضا مما كان عليه، لحية تشي غيفارا حصدتها، لكنك رغم ذلك تحتفظ بكل سحناتك وملامحك. إيه يا خاي عزيز.

كان الرجل القادم إلينا أحد الطلاب التطوانيين الذين كانوا معنا في فصيل الطلبة القاعديين في فاس. كان الهادي مسجلا في شعبة علم النفس. حين التحقت سنة 1992 بفاس، وجدته هناك. غادرت سنة 1997، وتركته خلفي. ولم أسأل عنه مذ ذاك الوقت. كل ما أتذكره عنه أنه كان يدخن سجائر "أُولَمْبِيكْ الزَّرْقَاء" بشراهة، ويشرب الرُّوجْ كلما قدم إلى منزلنا الذي كان محجا لكل الرفاق.

حكى لي الهادي أنه حصل على الإجازة عاما بعدي، ثم غادر إلى الدار البيضاء ليشتغل مع ابن عمه في شركة تنتج الملابس الجاهزة، ثم غادر العمل لأسباب طارئة. كان الهادي لحظتئذ يمتلك محلا لبيع الأحذية، ذات الصنع الإسباني فقط، بمدينة الفنيدق. وقد تعرف على عبد الواحد الذي كان يتعامل معه في تجارته وأخبره بمكتبتي، فلم يتردد لحظة في زيارتي.

جلسنا سويا، وطلبت له فنجان قهوة، وعمي حسن يتأملنا تارة، ويمرر سبحته تارة أخرى، ويقوم لخدمة طلب زبون من زبنائه حينا. استعدنا ذكريات فاس وليالي السمر والسهر، واستعدنا رفاقنا الذين سلكوا طرقا متشعبة ومتفرقة. أخبرني الهادي أنه تزوج قبل عامين فقط، وأنه صار أبا لسميرة. تجول قليلا في مكتبتي، أعجبه الأمر كثيرا. وقع اختياره على كتاب "ما فوق مبدإ اللذة" لفرُويْد. حاولت بكل وسائلي أن أمنحه الكتاب هدية، لكنه رفض وبقوة. دفع الثمن وقال:

- سأعرج عليك يا عزيز كل مرة. لن أجد صحبة كصحبتك، وسأجلب معي عبد الواحد أيضا إن سنحت الفرصة.

حين عدت إلى البيت، وفي يدي كتاب "مقالة في العبودية المختارة" لإيتيان دي لابويسيه، تتوسط الكتاب أوراق تحمل ترجمة الجزء الخامس غير المكتملة من مخطوطة خالد، تسميتي لما أترجمه كل مرة أجزاءً كان ذلك تقسيما اخترته بنفسي. وجدت بديعة منهمكة في وضع آخر

اللمسات على طبقها لذلك اليوم. كان طبقا من الكسكس بالخضر ولحم الدجاج. صار البيت عابقا برائحة تذكرني بأيام الجمعة بفاس حيث كانت رائحة الكسكس الفواحة تنبعث من بيوت الأزقة الضيقة بالمدينة القديمة. لم يكن اليوم الذي أعدت فيه الكسكس يوم جمعة، كان على الأرجح يوم ثلاثاء مشمس من أيام بداية يونيو.

غير بعيد عنها، ينتصب الراديو الذي اشتريته يوم قدومنا إلى تطوان من الجوطية وكان من نوع صُونِي، وهو نوع ظل البائع الذي اشتريته منه يمدحه إلى أن جف الريق من حلقه. كانت ماركة صُونِي وفِيلِيبْسْ وصَانْيُو من الماركات المقدسة في الريف أيضا! لم أتردد في شرائه يومئذ لسببين: أولهما أن بديعة كانت جد متشبثة بسماع برامج بعض الإذاعات، قبل أن أتزوجها حيث بيتها يسكنه الصمت والهدوء، وحدها قرقعات نعالها أو سقوط شيء ما أو صرير فأر أو صوت مذياعها، الذي ضاع فيما بعد، كان يكسر صمت المنزل. وثانيهما أن ثمنه لم يكن بالثمن المنفّر. على كل حال، كان لبديعة علاقة حميمية مع المذياع، إن حق لي أن أسميها كذلك.

في اللحظة التي دلفت إلى البيت وجدت أغنية "أَمْتْلُوغْ" (المهاجر) للوليد ميمون على وشك أن تنتهي. طربت للأغنية كثيرا، ورحت أردد كلماتها بعدما صارت الإذاعة الوطنية، قسم أمازيغية الريف، تبث أغنية "أَغَرَّابُو نَلْحُسِيمَةْ" (باخرة الحسيمة) لسلام الريفي، وصارت بديعة تردد

الأغنية بانتشاء حتى أضحت كلمات أغنية "أمتلوع"، التي تصدر عني، و كلمات "أغرابو نلحسيمة"، التي تصدر عن بديعة، والأغنية التي تُبث في تلك اللحظة، مختلطة مع بعضها البعض لتشكل مزيجا غريبا.

استدارت بديعة بحركة لولبية. أشارت إلى طبق الكسكس، وهي تمسد براحتها على انتفاخ بطنها وتكوره الذي أحدثه الجنين المنتظر. كان فعلا منتظرا كالمهدي! لمحت الكتاب المتوسط الحجم الذي جلبته. سألتني:

- أها. كتاب جديد. في الحقيقة، لم أكمل بعد كتابك الأخير.

- بطيئة في قراءتك. لا بأس. ذكريني. نسيت مقترحي الأخير.

- وجوه لشكري.

- آه. آه. تذكرت.

- قلتَ: بطيئة. لا تنس يا عزيز أنني أقرأ أجزاءك المترجمة من مذكرات خالد أيضا. وأنت تعرف ذلك. أقرؤها أحيانا مرتين أو ثلاثا.

- لا عليك. هذا الكتاب لم أجلبه لك وحدك، لي أيضا هذه المرة. حتى أنا لم أقرأه بعد، تصفحته بالمكتبة بنظرة خاطفة فقط.

مرت لحظة صمت قصيرة، ثم غادرتُ المطبخ، وهي ما زالت تدندن مع أغنية ريفية أخرى لم أعد أتذكر عنوانها بالضبط.

مجنون السِّيَر..

حكاية عبد المجيد

حين قصدت مقهى مصطفى، كما يحلو لي ولعلاء أن نسميه، رغم أنه كان يحمل اسما آخر لم يكن يروقنا نحن، كنت أحمل جريدتين وطنيتين، تصفحت بعضا من صفحاتهما، وأنا في العمل. كانت تحمل أخبارا متفرقة، أغلبها لا ترقى إلى المستوى الذي يجب على الصحافة أن تتناولها وتتداولها. وبالمقابل، يُلاحظ سيادة الإشهارات على الكثير من الصفحات، وكأن القراء ينتظرون لوحات إشهارية. كان علاء يقول لي كل مرة: "هَادُو بَزَّافْ عْلِيهُمْ إِكُونُو صَحَافِيين، رْبَاعَة دْيَال التُّجَّار، بْحَالْهُومْ بْحَالْ الْعَرِبِي مُولْ الْمَحْلَبَة. وكَاعْ العَرْبِي خَارجْ لِيهَا نِيشَانْ."

بالإضافة إلى ذلك، كنت أحمل معي كتاب قصر أمي لمارسيل بانيول، ترجمة محمد سيف، وجدته منسيا في إحدى الكراتين رفقة ملفات غير مرغوب فيها، وركام من الجرائد التي يبتاعها زملائي الموظفون كل يوم. لم أستشر أحدا في أخذ الكتاب أو تركه، كل شيء مشاع داخل مكتبنا، وداخل الإدارة كلها أيضا.

اقتعدت الكرسي الذي أقصده دائما بعدما ألقيت التحية على مصطفى الذي ابتسم بدوره رغم ما يعانيه من وحدة، بعدما حصل الذي حصل له مع تلك "العَقيصَة" كما يسميها. مذ حكى لنا قصته، أنا وعلاء، صرت أفقد الثقة بنفسي أحيانا، فما بالك بأناس آخرين. طلبت منه

قهوة "الإكسبريس" وطلبت منه أن يناولني سيجارة، كان قد مضى على آخر سيجارة دخنتها أكثر من أسبوع، ولم أكن أعلم السبب الذي جرني إلى تدخين تلك السيجارة يومئذ. دخنتها قبل أن يحضر لي مصطفى فنجان القهوة، فطلبت منه أخرى!

أخبرني مصطفى أن علاء قد شرب قهوة الصباح يومئذ بمقهاه، وأخبرني أنه طلب منه أن أنتظره حتى يعود في المساء. طمأنته بأن علاء اتصل بي، وقال لي نفس ما أوصاه به، ثم غادر إلى زبون كان ينتظره.

حين وصل علاء في قميصه المطلى بالبرتقالي، وهو قميص يحبه كثيرا. قرأت على ملامحه شيئا من تغير مزاجه. لم يكن مزاجه يسوء حين ينزل إلى المدينة تاركا وراءه عالما من الجبال والتلال والمنحدرات والوديان السحيقة. يكون في الغالب نشيطا بشوشا، ذو قابلية كبيرة لفعل أي شيء. يومئذ لم يكن كذلك. ارتأيت في البدء أن لا أسأله، عساه يبوح بنفسه.

فعلا، فقد باح علاء بكل شيء. حكى لي حكاية هاجر من الألف إلى الياء. وتذكرنا سويا أيامه مع رجاء. قهقهنا سويا، ثم انصرفنا، وأنا أقول له:

-دخن هذه السيجارة من عندي.

كانت السيجارة من نوع ماركيز، لكن علاء رفض، وقال:

- بل أريدها مالبورو.

أضاف، وهو يبتسم:

- لأَيْثْ يا صديقي، لأَيْثْ.

ضحكت كثيرا، وقلت:

- تدخين بأقل الأضرار، لكنه بتكلفة كبيرة.

-فليكن. التكلفة لا تهم.

خرجنا سويا، ونحن نلوح من بعيد لمصطفى الذي كان منشغلا بتنظيف بعض الطاولات على رصيف المقهى.

كنا في هذ الجلسة قد تحدثنا عن مخطوطة "آخر الكتبيين." تحدثنا عن الجزء الخامس الذي كان يحمل في صفحاته غمارا جديدا في قصة بطل المخطوطة.

حين عدت إلى البيت، توجهت إلى حاسوبي دون التفاتة، ولم أغادره إلا وقد أنهيت قراءة الجزء الجديد. بعدها عكفت على قراءة كتاب قصر أمي الذي يعتبر تتمة لمجد أبي الذي سبق لي أن قرأته في نسختهاالأصلية الفرنسية.

السيارة الطويلة!

الطريق إلى وجدة.

المقاعد كثيرة، والناس مثلها، وربما أكثر. ظفرت بواحد في المنطقة الأمامية للسيارة الطويلة. بالقرب مني، يجلس طفل مثلي، أو أكبر بقليل. يلهث. ينظر إلي. لا أفعل مثله. أقول في نفسي: "تفو.. أحظي أنا مع الأطفال فقط؟ ألا يأتي رجل كبير يجلس بقربي؟" لا بأس، أسرق نظرة خاطفة إلى وجهه. وجهه عدسي اللون! أخدودي بعض الشيء. من أين أتى هذا المخلوق؟ بحق جاه سيدي النبي، لماذا تهشمت بشرة هذا الولد إلى هذا الحد؟ فكرت: "أيكون مثلي مقطوعا من شجر؟ وكلانا ميت قبل أوانه؟" لكنني على كل حال لست مثله تماما. أنتبه لنفسي. لا أنساق وراء ما لا يعنيني. الناس قبيحون في آخر المطاف. أوليس هذا الذي يقوله كل من أعرف؟! في الكرسي الذي أمامنا، تجلس امرأة بدينة جدا. اللهم ارزقنا السلامة. هذه المرأة قد تصيب هذه السيارة الطويلة بعطب لا قدر الله.

محرك السيارة يتكلم! يزأر! يريد أن يقول شيئا. يحرك السائق الحافلة. أتماسك قليلا. ينظر إلي الطفل جليسي. لا أفعل مثله. أتصرف كمن لم يلحظ شيئا. ينظر ثانية، ثالثة.. يستفزني. نظرت إليه هذه المرة، تلاقت العينان. الطفل مات منذ زمان! عيناه ناعستان. وجهه مشوه. يبدو متآكلا من كل الأطراف. أي نحس هذا الذي جاء بهذا المخلوق؟ أولم

يجد مكانا يجلس فيه غير هذا؟ الحق يقال: لن يجد. أكثر من رجل، وأكثر من امرأة بصغارها ينبحون هنا أو هناك، كانوا يقفون بين المقاعد، ويعضون على أطراف الكراسي بأناملهم. الناس في الحياة كلهم عاضون على شيء بفمهم، أو بأناملهم، أو بطرف آخر من جسمهم.

ينظر إلي الطفل كثيرا. صرت أخافه. أنا وحيد لا معين لي، وفي مكان لا أعرف عنه شيئا، وماضٍ إلى مجهول لم تطأه قدمي من قبل. وفوق كل هذا، أنا صغير لا يفهم في الدنيا قيد أنملة. يخيفني كثيرا. أنظر إليه أحيانا، وأتحاشاه أحايين أخرى. يتأملني جيدا. يخيفني هذا المخلوق.

في وسط الزحام، تذكرت أبي. تذكرت حين كان يكلم أمي عن المنزل الذي سكناه، وأمي تعلم أن أبي ليس من الدوار، فكيف يمكن له أن يمتلك بيتا. هؤلاء المقطوعون من الشجر لا يملكون شيئا، وربما لا يحق لهم ذلك. يشبهون الحيوانات كثيرا. يأكلون. يشربون. يفعلون أشياء أخرى لا أستطيع أن أحدثكم، أنتم الكبار والصغار أيضا، عنها. وأنا أحترم الكبار، وأمي أوصتني بذلك، وأبي كان يفعل ذلك دائما. المقطوعون من الشجر تُحمل عليهم الأثقال. يحرثون. يحصدون. يسقون الماء. يُركب عليهم إن اقتضى الحال، ثم يموتون. يموتون أحيانا قبل موتتهم العادية. يموتون قبل موتة الله، تماما كموتة أبي. أبي قتله ابن أخت الشيخ يا جماعة. أنا لا أستطيع أن أنسى. لن أنسى هذا. حقا لن أقول شيئا لأحد، ولن أشكي بالشيخ لأن أمي تقول ذلك، رغم أن

خالتي تقول عكسه. أنا أرجح ما تقوله أمي؛ أولا، لأنني أعرف الشيخ الذي لا يستحيي من أحد، ثم إنها أمي، وأنا لا يمكنني أن أرجح كلام أحد على كلام أمي حتى وإن كان ذلك الأحد يطعمني كخالتي.

كنت أعبث بسروال أبي الذي علقت به بعض الأشواك، يرحمك الله يا أبي، يرحمك الله. قتلتك الأوغاد. تفو على الإنسان الذي لا يريد لأحد أن يعيش معه. تفو على من يريد أن ينفرد بالحياة وحده. تفو على من يضطر لقتل من هو من طينته ليعيش وحده. الله خلقنا جميعا، ورزقنا جميعا، وهؤلاء يغتصبون رزقنا، وأعيننا تنظر إليهم باكية، ودون أن تفعل أيادينا شيئا، لكن الله سيعاقبهم ويعذبهم حين يعودون إليه. أليس كذلك؟ ولا أحد يمكنه أن يقول أن ذلك غير صحيح. أمي قالت ذلك، وكثير من الناس يقولون، وأنا أقول ذلك أيضا. لكنني صغير لا يمكن لأحد أن يسمع كلامي.. الصغار لا يُسمع كلامهم.

كنت أعبث بسروال أبي الذي علقت به بعض الأشواك. أحاول أن أخلصه منها. كنت صغيرا، صغيرا جدا. أصغر مما عليه أنا الآن بكثير، وكان أبي يمسد على رأسي. يمرر برفق على قدمي وفخذي ومؤخرتي، وكانت أمي تقول له:

– كيف حصلت على هذه الدار آ أحمد؟ عمري ما سألتك عن هذا.

– قصة طويلة.. طويلة جدا.

- احك يا أحمد. حتى نحن علينا أن نقصر طول هذا الليل. لا شيء نفعله.

لم يكن في بيتنا تلفاز، ولا راديو، ولا آلة سجالة، ولم يكن في بيت خالتي أيضا. رأيته أكثر من مرة ببيت خالتي الحاجة منانة التي كانت أمي تشتغل عندها، وفي بيت خالتي الحاجة فاضمة في بوعرك التي كانت تشتغل خالتي سعيدة في بيتها.

- اتركي ذاك على الله. ما فات مات. دعي الماضي يموت في سلام يا امرأة.

- تكلم يا رجل. هل عندنا ما يُفعل؟

- الحق، حق الله يقال: لا شيء نفعله. نحمد الله أننا نملك ما نتعشى به الليلة! وما أفطر به غدا قبل أن أمضي إلى الحاج. "ما نفعله" ليس عندنا ما نفعل به في هذه الساعة!

تضحك أمي، لكن ضحك المقطوعين من الشجر بئيس أيضا. ضحك الفقراء مُبْكٍ. ضحكهم ذابل وشاحب.

- ها أنا أضحكتكِ.

- يا رجل، الهم يُضحك أيضا.

- لا هَمَّ في هذه الساعة يا امرأة.

أمي ترفع يديها إلى سقف البيت. تبوس راحتي كفيها، وتقول:

- حمدناك يا ربي وشكرناك. حمدناك يا سيدي ربي. حمدناك..

يسكتان. أتأملهما. لا شك أنهما كانا يرياني لا أعرف شيئا، ولا أعرف عما يتحدثان. ما زالت أمي لا تعترف بي، وتحسبني صغيرا لا يعرف شيئا. على كل حال، الأبناء يظلون صغارا في أعين أمهاتهم، حتى وإن شاخوا أو هرموا. لكنني كنت أعرف عما يتحدثان، وكنت أحس بالجرح الذي أحدثه الزمن في جسديهما. جروح الزمن لا تندمل. جروح الزمن إما أن تزيد في عمقها، أو تتسع أكثر أو أن تظل كما هي منذ البداية في أحسن الأحوال. كنت أعرف حالتنا. كنت أعرف أننا فقراء بؤساء، مقطوعون من شجر، وإلا، فلماذا كانت تملك خالتي الحاجة منانة تلفازا، ولا نملكه نحن؟ لماذا تملك ثلاجة وفرنا ونحن لا نملكه؟ لماذا تملك الكثير، ولا نملك نحن القليل مما تملك؟ ولماذا يمتلك الآخرون، الذين كنت أدخل بيوتهم، كثيرا من الأشياء، ولا نمتلكها نحن؟ ثم لماذا تعمل أمي في بيوت الناس، ويحرث الناس على أبي في الحقول كبغل جلد؟ لماذا؟ فقراء إذن. مقطوعون من الشجر.

لكن لا بأس في ذلك. كنت مسرورا أتقافز من ركن إلى ركن، ومن ظهر أبي إلى حضن أمي. كيف لا؟ وأبي يقول أنه لا هم في هذه الساعة. كيف لا؟ وأبي يضحك، وأمي كذلك تفعل. ثم إنها ترفع يديها عاليا وتقول: "حمدناك يا رب." حمدتك حتى أنا يا رب. أمي كانت دائما تحمد الله، وتوصيني بذلك. وأبي لم يكن يفعل في غالب الأحيان، ربما

كان يفعل ذلك في قلبه، لكن خالتي منانة، وعمي الحاج والشيخ وكثيرون لا يفعلون ذلك. تعرفون لم؟ أنا لا أعرف.

- كيف حدث لهذا المنزل يا سيدي أحمد؟

- قصة طويلة. طويلة يا امرأة.

- منذ الصباح، وأنت تخبرني بأنها طويلة. قلها يا رجل. قلها، وأرحنا.

- ليس منذ الصباح! منذ دقائق فقط! في الصباح كنت في حقل عمي الحاج أسوي أحواض البطاطس، ومن الصباح حتى الآن فعلت الكثير، وأنت تعرفين ذلك! سقيت أكثر من مئة شجرة زيتون. سويت الأحواض. تغذيت مقرفصا. سرقت قيلولة قصيرة قبل أن يصل الحاج قدور إلى الحقل وينهرني، إلخ..

ضحكت أمي ضحكة امتزج بها الحزن الدفين. كان أبي فكاهيا أحيانا، وجديا في أحايين كثيرة.

أمي تضحك. تتأمله. تقول له:

- بارك الله فيك يا رجل. أبقاك الله لنا حيا.

ثم لا يفعل شيئا، لكنها تضيف:

- ولكن، قل لنا قصة المنزل الذي احتضننا مدة ليست بالقصيرة. قل لنا. قل..

- كنت في البدء، أقصد حين أتيت إلى الدوار، أسكن في بيت طيني كان عمي الحاج بناه ليحفظ فيه تِبْنَهُ، لكن التبن لم يكن موجودا ذاك

العام، وقال أنه عليّ أن أسكن هناك. كان البيت ساخنا في أيام البرد، ساخنا جدا، كنت أحبه. أدخن فيه الكِيفَ، لم أعد أدخنه الآن، (يضحك) تبتسم أمي، وتقول:

- لست أعرف. رأيت "السَّبْسِي" في جيبك هذا الصباح.

- ها، تفتشين جيوبي؟!

- كنت أريد أن أصبن المعطف. قلت: قد يكون فيه ما يمكن أن يفسد بالماء، وبالفعل فقد وجدت ذلك! السَّبْسِي، ولفة الكيف، وحتى الولاعة!

لم أكن أشتري لأبي هذا الكيف الذي كانت تتحدث عنه أمي. كنت فقط أبتاع له علب السجائر الرخيصة من عند العياشي ابن الزاهية، لكنني كنت أرى في يديه ذلك الشيء الذي تحدثت عنه أمي. كان في الحقيقة أطول من السجائر، وكنت دائما أتساءل عن الكيفية التي يدخنه أبي، والآن صرت أعرف جيدا!

- لا بأس يا امرأة، ما زلت أدخنه بين الفينة والأخرى. ما في ذلك مشكل.

ربما كانت أمي ترى في ذلك مشكلا ما. في الحقيقة، في الأمر مشكل، لكنها لا تخبره بذلك. أتُعارض أبي؟ الرجال يغضبون بسرعة، وخصوصا أبي. يكون لطيفا، نعجة مسالمة، لكنه يتحول بسرعة خيالية إلى ذئب يعوي، أو إلى رجل أحمق لا يعلم كيف يتصرف، وإلى ذئب يعض، وإلى

أشياء أخرى. أمي تركت الأمور تمر بسلام كما تفعل دائما. أبي يتحول إلى وحش حين يغضب. رأيته أكثر من مرة على تلك الحالة. كنت أختبئ قدر المستطاع حتى لا تقع عيناه على جثتي الصغيرة. قد يفعل بي أشياء لا يمكن أن تتخيل. البؤساء عالم مستقل يا ناس. عالم مستقل لا يقتحمه إلا من يشبههم. كانت أمي أيضا تستحيل شبحا وزمادا أو ربما لا تُرى حين يغضب. أمي هي الضحية الأولى بالطبع، وربما حدث لكم أن رأيتم ذلك أنتم أيضا. هذا شيء عادي يحدث دائما في بيوت الناس، وفي بيوت البؤساء بالخصوص.

قالت أمي:

- المهم بيت التبن أعجبك. وهل تظن أن هذا المنزل أحسن من ذاك البيت؟!

- أفضل يا امرأة. أنت لا تعرفين ما معنى أن يسكن الواحد بيتا وحيدا يُفعل فيه كل شيء. كل شيء. كل شيء. تفهمين ما معنى كل شيء؟ يخفض أبي صوته. لست أعرف لم فعل ذلك. أحدق في البيت. وحدي أعبث بلاشيء، وأنا، في ظنهم، لا أفهم عما يتحدثان. لكنني أسمع قولهما، وأفهمه. الأطفال يسمعون تساقط الندى يا رفاق:

- في الشتاء، لا أستطيع أن أخرج للخارج. أبول في إناء يا امرأة. أتغوط في كيس بلاستيكي. أتفهمين؟

عندها عرفت أن البؤس لا حدود له. الإنسان يمكن أن يكون بئيسا، ولكن يبقى دائما هناك من هو أبأس منه. شيء قبيح، وربما لا شيء أقبح من أن يكون المكان الذي يأكل فيه الواحد هو نفسه المكان الذي يفعل فيه ذلك الشيء الذي يفعل في المراحيض. الناس يا رفاق يفعلون تلك الأشياء في مراحيض يمكن لنا أن نسكن فيها بكل فرح وراحة، ويمكن أن نتخذها مطبخا أيضا، ونحن في قمة السرور.

أمي تسكت. ربما تعرف ما معنى أن تسكن ذلك البيت الذي يتحدث عنه أبي، وربما تعرف أكثر مما يعرف أبي عن التسكع في دروب الحياة غير الآمنة، ثم لا تزيد في القول شيئا. قلت بأن الرجال يغضبون بسرعة، خصوصا أبي، وبالأخص مع أمي، وهي تحسن جيدا كيفية تفادى الشجار معه.

- و كيف وصلت إلى هذا المنزل بالذات؟

- سكنت كثيرا في البيت حتى أنني صرت أصلحه بنفسي. سكنت فيه أكثر من خمس سنين. عمي الحاج كان لا يشتري الكثير من التبن. لكن في أحد الأعوام رخص فيه إلى درجة كبيرة، وقد ظل عمي الحاج يتحدث عن الثمن المتدني للتبن خلال شهور عديدة. ربما فرح كثيرا، رغم أنني لم أكن أرى في ذلك داعيا للفرح. عمي الحاج مدفون في بئر من مال. عمي الحاج يمكنه أن يغرقني في ماله، ويمكن أن يغرق غيري أيضا، ورغم ذلك يفرح إن رخص الشعير الذي يشتريه للبغال التي

تعيش في ضيعته، ويفرح لأشياء أخرى حين ينقص ثمنها. لكنه بالمقابل، يكشر عن أنيابه إن رخص البرسيم الذي يكثر من زرعه في الضيعة للبيع. كان يتضايق كثيرا لذلك، ويصاب بحزن لا يمكن أن يتصور. تفو على المال حين لا يجعل صاحبه سعيدا.

اشترى عمي الحاج في ذاك العام تبنا كثيرا، ولم يجد مكانا يضع فيه الفائض. بالطبع، سيجد البيت الذي كنت أسكنه، لكنه لا بد أن يجد لي مكانا أندس فيه بعد العودة من العمل في حقوله. هذا لا يعني أنه يحبني، أو أنه يشفق علي. عمي الحاج لا يحب إلا نفسه ونقوده، ويحب نقود الآخرين أن تكون في جيبه أيضا! عمي الحاج يحتاجني أكثر مما أحتاجه.

تتدخل أمي لتقول:

– يا رجل، اعمل عقلك. الحاج قدور هو الملاذ الوحيد لك. هل تريد أن تغادر حقول عمك الحاج؟ رأيتَ معه من الخير الشيء الكثير، وحقله هو المكان الذي يطعمنا. فكرْ في هذا الصغير الذي يجمعنا. إن تخليت عن عمل كهذا، فلن تجد غيره.

– أنتن النساء تخافن كثيرا. لم لا أجد عملا؟ ألست رجلا؟ قولي. أنا أعرف الكثير من الأمور، أم أنني أحسن الحفر والحرث فقط؟

أبي بدأ يسخن! قد لا يكمل القصة إن أغضبته أمي، وقد يضربني إن غضب، لكن أمي كما قلتُ، تعرف جيدا كيف تهدئ أعصابه، وتعرف

كيف تتفاداه. تسكت. تهز رأسها موافقة، ولا تقول شيئا يخالفه. قالت:

– معك حق، أنت يا رجل، من يقدر عليك؟ ثم من قال لك أنك لا تحسن إلا الحرث والحفر؟ أمي تحولت بسرعة هي الأخرى. تتصرف كحرباء. كنت أرى الحرباء كثيرا في بوعرك. كنت أغلق فمي جيدا، وأشرع في قتلها، رغم أن رغبة حادة كانت دائما تحدوني للإمساك بها واللعب والعبث بها. كانت تنصحني أمي أن أغلق فمي حين أصادف حرباء. سأفعل ذلك الآن أيضا، لكنني لن أجد حرباء في هذه المدن التي تذوبني شيئا فشيئا. نعم، الحرباء ستعد أسناني إن أنا تركت الفم مفتوحا، وإن حسبت أسناني ستسقط تباعا!

على كل حال، أمي كانت تتصرف كالحرباء مع أبي أحيانا، ومع نساء الدوار، ومع خالتي أيضا. أحيانا يكون من الصعب أن يعيش الواحد منا إن لم يكن حرباء. وحدها الكائنات الحربائية تستطيع أن تؤمّن رغيف خبز ليومها ولغدها.

ثم هدأ أبي وبرد مثلما تبرد الطماطم في ثلاجة خالتي منانة. نحن، لم تكن في بيتنا ثلاجة. كانت أمي تضع الماء في آنية فخارية صيفا، أو في قوارير كبيرة تلبس لها قميصا صوفيا لم يعد صالحا. إلا أن كل شيء كان في نظرنا صالحا، وإن تكسر، أو تقطع، أو لم يبق منه إلا القليل. كل شيء يبقى دائما صالحا لشيء ما. كانت أمي على كل حال لا تملك

ثلاجة، وكانت حين تحتاج أن تضع فيها شيئا ما، فقد كانت تقصد خالتي منانة التي كانت تعمل في بيتها.

برد أبي! وشرع يكمل الكلام الذي بدأه، وربما لن ينتهي. البؤساء لا ينتهون من كلامهم حين يبدؤونه. قصص البؤساء طويلة كشقائهم، طويلة كالبؤس الذي يعيشونه. طويلة كأعناق الجِمال التي كانت تأتي بين الفينة والأخرى إلى دوارنا. كانت الجمال تأتي محملة بأوان منزلية للبيع، ولم تكن أمي تجد فلسا واحدا لتبتاع منها شيئا لبيتنا. كانت الجمال تلتهم أوراق الصبار دون رحمة. كم كنت أستغرب من تلك المخلوقات الكبيرة، ومن اللسان الذي تملكه!

حكايات البؤساء طويلة رغم أن حياتهم لا تكون في الغالب كذلك، وحياة أبي دليل على ذلك. لكنهم يعيشون كثيرا، كثيرا في الفقر، كثيرا في البؤس، كثيرا في أشياء مثل هذه.

بدأ أبي بقوله:

- البيت الذي سكنته أكثر من خمس سنين نشأت بيني وبينه علاقة غريبة، غريبة إلى درجة أنني لم أطق فراقه، لكنني فارقته! رغما عني. ليس كل ما نفعله نحبه، وليس كل ما نفعله، أو نقوله نحب أن نفعله أو أن نقوله. كثير من الأشياء تكون مرغمة. البؤساء لا يتصرفون بحرية كما يتصرف الآخرون، قريبون من الجماد أكثر مما هم قريبون من الإنسان. التحقت بهذا البيت الذي نسكنه الآن. هذا المنزل أفضل يا غالية، رغم

أنك تحسبينه تافها. هو ليس كذلك، ليس كذلك يا غالية. هذا البيت أفضل بكثير من البيت التِّبْنِيِّ، أفضل بكثير.

لم يسكت عن مدح المنزل، أو بالأحرى الكوخ الذي كنا نسكنه، وأمي ظلت ساكنة كصخرة ملساء. لا تقول شيئا كي لا تثير غضبه. تهز رأسها بين الفينة والأخرى علامة الموافقة والرضا، ثم يضيف:

- هذا المنزل كان خرابا، ليس كما ترينه الآن. لا شيء يأتي بالفراغ يا امرأة، لا شيء. إن الحاج قال لي أنه سيملأ البيت الذي أحببته، وكرهته في الوقت نفسه، بالتبن الذي اشترى منه الكثير ذلك العام، وقال أنه حصل لي على منزل جيد لأسكنه إلا أنه يحتاج إلى قليل من الإصلاح، وقال أنه يعول علي، وأنني أستطيع أن أصلحه بشكل جيد. الحاج قدور ثعلب ماكر. مذ وطأت تراب الدوار، وأنا أكتشف أعماق أعماقه، لكنه عميق أكثر مما توقعت، وها نحن الآن تحت سقفه يقينا حر الصيف وقر الشتاء، ألا يفعل ذلك يا امرأة؟ ألا يفعل؟

تجيب أمي بمسكنة:

- يفعل يا رجل، ويزيد.

ثم تنزل العشاء الذي هوى عليه أبي كما تهوي الصقور على كتاكيت خالتي الحاجة منانة. مثله فعلت، أما أمي، فقد ظلت تأكل بأناة وروية.

إلى الشمس..

رواية بديعة

في المطبخ، حيث الراديو الذي يذركني عزيز كل مرة أننا اشتريناه في الأيام الأولى التي قدمنا فيها إلى تطوان، أعد غذاء ذاك اليوم. أستمع إلى برنامج يذاع على إذاعة ميدي1. كان عزيز قد غادر منذ ما يقرب من ثلاث ساعات، وكنت وحيدة، إن جاز لي أن أقول ذلك. إذ حين أخبر عزيزا بأمر بقائي وحيدة، يعلق دائما بقوله:

- ألا أقول لك أنني أترك الجنين معك!

أبتسم بعد التعليق، وأمضي إلى فعل شيء ما. بالقرب مني ركام من الخضر وقناني التوابل وقارورة زيت المائدة وقارورة أخرى مملوءة بزيت الزيتون. كانت والدة عزيز قد أرسلتها إلينا بُعيد موسم الطحن. وكانت كل مرة ترسل قارورة من فئة الخمس لترات كلما سنحت لها الفرصة بإرسال ذلك. كما كانت ترسل إلينا أشياء أخرى كل مرة، مثل شرائح التين المجفف وأكياس اللوز وبعض أرطال الطحين وخضر وفواكه أخرى طازجة، كل واحدة في موسمها. كان يصلنا ذلك رفقة أشخاص كانوا يقدمون إلى تطوان أو إلى طنجة من الريف لزيارة ذويهم القاطنين بهاتين المدينتين، وبما جاورهما من المدن الصغيرة الأُخرى كمرتيل والفنيدق والمضيق وسبتة...

كان اليوم مشمسا نوعا ما، عدا بعض السحابات القليلة التي تتلاشى وتعود من جديد للتشكل ثم لتتلاشى للمرة الأخرى ومرات.. أفكر في دنو الوضع. وأفكر في الأبناء الثلاثة الذين واريناهم الثرى، وأفكر في خالتي فاطنة التي كانت تحثني على الصبر، وتقول:

- أجرك عند الله يا بنيتي.. خالتك فاطنة دفنت منهم سبعة..!

كانت خالتي قد فقدت سبعة من أولادها ما بين سنوات الستينيات والسبعينيات. ولم يبق من أبنائها إلا ثلاثة؛ امحمذ وعلال وسعدية التي تعاني ما تعانيه من آلام جراء مرضي السكري وضغط الدم، وما تعانيه أيضا مع ابنيها العاطلين عن العمل لسنين طويلة.

لم تكن خالتي فاطنة وحدها التي فقدت أبناءها وهم صغار، بل إن كل النساء اللواتي عرفتهن من قبل فقدن الكثير ممن كابدن الكثير في حملهم ووضعهم. كانت عائشة بنت حمو بن مزيان أكثر تضررا. قالت لي والدتي أنه لم ينج من أبنائها الثلاثة عشر أحدا. وبقيت وحيدة في آخر أيامها تكابد الفقر رفقة زوج شيخ لا يقدر على حراك. كانت والدتي وبقية النساء الأخريات يمددن لها يد العون والمساعدة، وكانت المسكينة لا تكف عن الدعاء لهن ولأبنائهن وبناتهن بالحفظ والصلاح وطول العمر.

كان أولائك الأطفال يموتون بأمراض تافهة وغير معروفة في أحيان كثيرة. كانوا يسقطون كما تتساقط أسراب الذباب في كؤوس الشاي،

وكما يتساقط البعوض أيضا. جدتي هي الأخرى لم تسلم من حملات الموت التي اجتاحت أطفال الريف في تلك الفترة، فقدت هي الأخرى أربعة، وقد كانت أمي كل مرة تصفها بالمرأة الأكثر تحملا وصبرا. كانت تصف طريقة تعامل جدتي مع موت أبنائها، كما وصفت لها النساء اللواتي كن في سن جدتي، قائلة:

- كانت المسكينة تتكفل بهم بنفسها، تشيع زوجها حمادي وبقية الرجال الذين يحملون أبناءها ليواروا الثرى، ثم تظل بعد ذلك، طول اليوم، تحدق في الخواء. قالت لي فاطنة بيت سي العربي أنها لم تذرف ولا دمعة واحدة عنهم جميعا. بل كانت تحث زوجها على الصبر، و تخفف الحزن على من ترى عليه أماراته. ثم يا بنيتي، إن موتهم في تلك الأيام كان أمرا عاديا، كموت دجاجة في خم أو أرنب غير يافع. قد يحدث أن تفقد الأسرة أو العائلة الواحدة أكثر من طفل في اليوم الواحد.

تنهي أمي كلامها بقولها:

- أولائك يا بنيتي كن نساء وزيادة..

كنتُ منشغلة بتنظيف بعض الخضر على مهل مبالغ فيه حين رن هاتفي. لم تكن مكالمة اعتيادية.كانت أختي خديجة هي المتصلة. في الحقيقة، لم أكن قد سمعت نبرة صوتها مذ أزيد من شهر. كان صوتها يميل دائما إلى البُحاح، فلم أكن أتأخر كثيرا حتى أعلم أنها المتصلة.

كانت خديجة أكثر نشاطا وفرحا كما بدا لي، حيث أخبرتني أنها ستحتفل بختان ابنها كريم بعد شهر. وقد اتصلت بي لتدعوني إلى وليمتها، إلا أنني اعتذرت نظرا لما أنا عليه من حالة. وقد أخبرتها عن حملي وعن كل التفاصيل التي تخصني. فرحت خديجة كثيرا لكون الجنين على مشارف الخروج إلى العالم. لكنها ظلت طول المدة التي كلمتني فيها تدعو الله من أجل أن ينجي الجنين مما ابتلى به إخوته من قبل. أخبرتها أن الطبيبة وممرضة المستوصف قد أخبرتاني بالحالة الجيدة للجنين، وبأن خالتي مغنية تزورني بين الفينة والأخرى.

لكن خديجة لم تكتف بذلك، فقد كانت تحمل أخبارا بلون السواد أيضا. أخبرتني أن خالتنا فطوش قد اشتد عليها المرض الذي لم يصفه لها طبيب بالتحديد. كانت المسكينة تغدق علي بالكثير من الحنان والعطف، وكانت لا تقصر في فعل أي شيء من أجلي. كيف لي أن أرد لها بعضا مما فعلت؟ كيف؟!

أخبرتني خديجة بموت الكثيرين ممن نعرف؛ جارتنا عكشة، التي كانت تعاني من سمنة مفرطة، ومليكة، الأربعينية التي اختطفتها مخالب سرطان الثدي من جرائها الصغار! والحاج قدور، الرجل الذي كان قد جاوز التسعين، وآخرين. أخبرتني بمن تزوج، وبمن أنجب، وبمن طلق، وبمن خطب، وبمن سافر، وبمن رجع. كانت خديجة منجما لا ينضب من الأخبار والمستجدات.

ودعتها دقائق قبل أن يلج عزيز، الذي سأقوم بتجديد معلوماته عن الريف. توقعت أن يحزن عزيز كثيرا على رحيل الحاج قدور، وكذلك كان. كنت أعرف أنه كان يجالسه كثيرا في فترات التعليم الثانوي والجامعي، وبعد تخرجه من الجامعة أيضا. كان الحاج قدور يحكي لعزيز حكايات الهجرة إلى الغرب أيام المجاعة، وإلى الشرق زمن الخمسينيات والستينيات، وعن الإسبان وتحركاتهم، وحرب التحرير، وعن أحداث الريف. كان الحاج قدور هو الآخر نهرا يتدفق بالحكايات والبطولات والمغامرات.

إلى الأقمار الثلاثة..

رواية عزيز

كان الجنين الذي يرقد في سلام برحم بديعة قد جاوز شهره السابع بكثير، كان على الأرجح في شهره الثامن أو أقل من ذلك بقليل. حين دلفت إلى البيت يومئذ، وجدتها تتوعك قليلا، وقد لاحظت ذلك للوهلة الأولى، رغم أنها كانت تحاول أن تخفي ألمها عني. كان الغذاء في المطبخ قد وضع على الفرن الغازي لينضج، ولم يكن بالبيت غيرها، وأنينها وأنين الجنين ربما أيضا.

قاومتْ بديعة كثيرا من أجل أن لا أحملها لزيارة الطبيب أو ممرضة الحي التي اعتادت أن تزورها. لكنني رغم ذلك، ألححت على أن نفعل ذلك. لم أكن مرتاحا لما أصابها يومئذ من وجع وألم. خشيت كثيرا، وانهالت الاحتمالات على مخيلتي وخافت بديعة، ولا شك، مما كان يؤرقني أنا أيضا. تبدت أمامي ما تبقى في ذاكرتي من ملامح الأقمار الثلاثة الذين واريناهم الثرى. تذكرت النساء الريفيات البئيسات اللواتي كن يفقدن أبناءهن في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي بالجملة والتقسيط، تخيلت بديعة مثلهن، لكن أفي هذا الزمن؟! كانت بديعة صبورة بما فيه الكفاية لتكون مثل بعض النساء اللواتي عُرف عنهن الصبر عند فقدان أبنائهن، لكنني أحاول أن أنفض عني أنقاض تلك الأفكار التي تساقطت علي بغزارة. قلت في نفسي: يكفي بديعة ما قاست جرّاء

فقدان الأقمار الثلاثة، ويكفيها أنها انتظرتني عمرا كي يلتئم شملنا، يكفيها ويكفيني أيضا ذلك. يكفيني وزيادة.

بديعة ترتجف كما يفعل شيخ هرم مصاب بمرض ما، وقد كانت أمي تنهانا، في صغرنا، عن الإمساك بطائر السنونو ومطاردته لأن ذلك يجعلنا نرتجف كما كان عمي مزيان يفعل! لكنني كنت أرتجف كما كانت بديعة تفعل رغم أنني لم أمسك في طفولتي بطائر سنونو قط! تماما كما كانت أمي تنهانا وتوصينا وتبالغ في ذلك. كنت أرتجف خوفا من المجهول، خوفا مما لا أريده أن يحدث، ومما لا أرغب فيه. أخاف من كل شيء لحظتئذ.

كان الطبيب هادئا رزينا، تبدو عليه أمارات الانشراح. استبشرت خيرا، لكنني تذكرت أن بعض العواصف يسبقها هدوء مفزع، لكن هدوء الطبيب لم تتبعه أي عاصفة. أخبرني أن بديعة بخير وشدد كثيرا على ذلك. كان وجعها مجرد ألم عابر. قامت الممرضة بمعالجته في الحين، وأخبرتني هي الأخرى أن الجنين بخير وأمه في أحسن حال. وعادت بديعة، بعد ساعات قليلة من الراحة، مثلما كانت من قبل تحلق في فضاء البيت كنحلة.

غذاء يومئذ احترق! استبدلته بواحد من صنعي، وفي وقت وجيز. قلت لبديعة:

-لا تتعجبي، هكذا هي وجبات العزاب، لا تستغربي.

كنت أمني نفسي مثل أي وقت مضى أن تقرأ بديعة ما ترجمته من مخطوطة خالد، لكنني وجدت نفسي أمام عياء بديعة الذي لم يسمح لي أن أطلب منها ذلك، وكنت أستعجل نشر ذلك على حائطي الفيسبوكي مثلما أستعجل دائما. قرأت المخطوطة بنفسي ثلاث مرات بعد الغذاء. كررت القراءة مرتين حين عدت إلى المكتبة مساء. ونشرت دون أن تقرأ ذلك بديعة، وكانت هذه أول مرة لا تمر الترجمة على عينيها. كانت بديعة بمثابة شخص يمنح جواز السفر لما كنت أنشره.

وقد كان الجزء، الذي لم تقرأه إلا بعد مرور أيام على نشره، كالتالي...

وجدة، صفحة سوداء أخرى في دهاليز حياتي..

المحطة غاصة بالعربات اليدوية التقليدية. سائقوها يتسابقون للظفر بزبون يضمنون من خلال خدمته كسرة خبز لهم، وربما لعيالهم أيضا. لم يكن بيدي شيء يستدعي أن يتهافت علي أحد من مالكي العربات؛ بيدي حقيبة بئيسة تشي بالبؤس الذي كنت أعيشه، وفيها أحمل كل ما أملك من ثياب وجوارب. وفي مخيلتي أحمل كل ما أملك من ذكريات وآلام وآمال. هذه المحطة لا تختلف عن تلك التي قدمت منها؛ غاصة بالمتسولين والمهربين، وبائعي السجائر وبائعي التذاكر البؤساء والوقحين. زيوت المحركات تتناثر في كل مكان، والمراحيض التي تنبعث منها رائحة البول والعفن موجودة هناك أيضا. الشرطي يحوم حول المكان، وهتافات المسافرين تتراشق في الأفق. كم تتشابه هذه العوالم!

تحركت بثقل. أين لي أن أذهب؟ تذكرت ما قاله عمي الحاج عبد الرحمن، فرحت لأنني اهتديت بكلامه، لكنني بالمقابل حزنت لأنني تذكرت أمي المريضة، وتذكرت الموت الذي يجثم قبالتها كأسد، تخيلت هذا السرطان الذي يتكلمون عنه وحشا كبيرا، تخيلته وحشا يترصد أمي الهزيلة من بعيد وقريب. وحين تذكرت الموت، تذكرت أبي الذي فتك به. تذكرت خالتي سعيدة وكرمها. تذكرت سعيدا البئيس. حزنت كثيرا، وبكيت. صارت الدموع تهمي من عيني كما كانت تفعل المياه في الساقية الكبيرة التي كنا نستحم فيها في بوعرك. كيف لي أن أحمي أمي

من المرض القبيح الذي يحوم حولها؟ وكيف لي أن أمنع عنها الموت؟ لا سبيل. ألم تكن تقول بنفسها أنه لا أحد يستطيع أن يمنع الموت عن أحد؟ ولا أحد يستطيع أن يرجع ميتا ليصير من جديد سائرا بيننا؟ يا ليتني أستطيع ذلك. لو كنت أستطيع، لفعلت ذلك مع أبي. يا ليتني! بكيت وكفكفت الدموع و"ترجلت." حاولت أن أبدو ناضجا أكثر. في الحقيقة، صرت أنضج. ألم تمر الآن على رحيلنا من المدشر الذي قتل فيه أبي سنتين وزيادة؟

تذكرت ما نصحني به عمي الحاج أن أفعله حين أبلغ وجدة، وفعلت. دفعت بقدميّ إلى الأمام، وحاولت الخروج بين جموع النساء والرجال الذين كانت المحطة تغص بهم، ودفعت بنفسي إلى أن بلغت بوابة المحطة. اعتراني شك في أن يكون الباب الذي يتحدث عنه عمي الحاج هو نفسه الباب الذي أقف عند عتبته. كيف لي أن أعرف؟ فقد يكون للمحطة أبواب. استسلمت. لم يكن بيدي حيلة، إلا أن أُخرج الطربوش الأصفر الداكن وأضعه على رأسي. قال عمي الحاج أن ابنه سيعرفني بهذا الطربوش، وخمن أن لا يكون في المحطة طفل صغير يحمل حقيبة بلون التراب، ويضع على رأسه طربوشا مطلى بالأصفر الداكن غيري.

لم يخب حظ الحاج، فقد عرفني ابنه بمجرد ما اقترب من المحطة المشؤومة، إلا أنني عانيت الكثير قبل أن يصل. فكرت في احتمال أن أُسرق، أو

أن أُضرب، أو أن يُفعل بي ما كان يريد الأشقر أن يفعله بابن خالتي حين ادعى أنه سيذهب لسرقة المشمش. احتمالات بحجم نجوم السماء كانت تتلاطم في رأسي. خشيت على نفسي. مم كنت أخشى؟ هل كنت أظن أنني طفل يستحق أن يُسرق؟ في الحقيقة، لا أحد كان يمكن أن يفكر في سرقتي. ماذا عساهم يسرقون من طفل كئيب طردته رياح البؤس؟ أم أنهم سيسرقونني كاملا؟ بشحمي ودمي وعظامي الهشة؟ ماذا عساهم يفعلون بي؟ ألم أر أن الأطفال يعطوْن ويُمنحون؟ الأطفال يُلقى بهم في الطرقات وعلى الأرصفة، ويرْمَوْن على عتبات البيوت والمواخير والمستشفيات. لكن لا ضير أن أخشى على نفسي، فحتى الجراء الضالة البئيسة التي تحوم حول القمامات تخاف على نفسها من الهلاك.

جاءني ابن عمي الحاج يتمايل ذات اليمين وذات الشمال. كان يميل إلى القِصر على عكس قامة أبيه الفارعة. تميل بشرته إلى البياض عكس بشرة أبي! وكانت تتخلل وجهه شعيرات من اللحية. خشيت، في البدء، أن لا يكون هو الشخص المعني بي، خصوصا وأن عمي الحاج أو خالتي سعيدة لم يصفا لي الرجل الذي سيأتي إلي ليأخذني معه إلى بقالته.

دنا مني مبرزا أسنانه، يبدو أنه يبتسم، إلا أن ظهور الأسنان لا يعني بالضرورة ابتسامة الرجل أو المرأة!

- ابن الغالية؟

لم لم يقل لي: "ابن أحمد"؟ ألأنه لا يعرف أبي؟ أم أن الطفل حين يموت أبوه ينادى باسم أمه؟ لا ليست الأمور هكذا، عرفت في ما مضى، في بوعرك أو في آيت سعيد أطفالا فقدوا آباءهم، ولبث الناس ينسبونهم إليهم، وعرفت منهم الكثير ممن ينادون بأسماء أمهاتهم رغم أن آباءهم ما زالوا أحياء يرزقون، ويستهلكون دقيق الشعير، وأرطال سمك السردين.

- ابن الغالية أنا. أأنت عمي حسين؟ ابن عمي الحاج عبد الرحمن؟

هكذا نصحتني أمي وخالتي سعيدة أيضا أن أنادي الرجل الذي سيشغلني؛ عمي، عمي لكل رجل يكبرني، لكل رجل يرمي لي بفتات الخبز لأقتات عليه.

أجابني بالإيجاب، وهوى علي بسيول من الأسئلة:

- كيف تركتهم في بوعرك؟

- كل شيء بخير.

- أبي بخير؟

- بخير.

- أمازال الدم يسيل من أنف أمي كما العادة؟

- يفعل ذلك أحيانا. سمعت خالتي تخبر أمي أن عمي الحاج عبد الرحمن قد أخذها إلى طبيب، واشترى لها دواء.

- ماذا يفعل أولائك العمال الذين تركتهم هناك؟ أما زال هناك الراضي الكَرْسِيفِيّ؟

لم أكن أعرف الراضي هذا، لكنني أجبته بأن الراضي الذي يسأل عنه قد غادر المكان، ولم يعد يشتغل في الحقل كما كان يفعل.

ركبنا سيارة أجرة. طول الطريق لم ينبس بكلمة. ظل يحملق في، ويقرأ آثار البؤس على جوارحي، وظللت أنا أراقب المدينة الكبيرة. بينما كان السائق يستمع إلى غناء كان مذياع سيارته يصدره.

بلغنا دكانا في مكان ما في وجدة. حسبت أنه سيقتادني إلى بيت ليطعمني، أو يسألني ما إن كنت أريد أن أنام، أنا الذي فعل به الدوار ما فعل. أو أن يسألني ما إن كنت في حاجة إلى شيء ما، أي شيء؛ أن أبول، أو أن أتغوط، أو أن أضرط حتى! ، إلا أنه لم يفعل ذلك، بل اقتادني إلى الداخل، وأجلسني على كرسي خشبي مصنوع بطريقة يدوية، وشرع من جديد يصب علي دلاء أسئلته:

- كنتُ قد تركت بمحاذاة البيت الذي تسكنه خالتك شجرة تين رائعة، أمَا زالت هناك تجود بتلك الثمار الحلوة؟

عن أي شيء يسأل هذا التافه؟ أمع هذا سأمضي بقية عمري؟ أهكذا ستكون أيامي القادمة؟

أجبته أنّ شجرة التين ما زالت كما تركها، رغم أنني لم أعرف كيف تركها، وما عرفت المدة التي مضت على رحيله من بوعرك. وقد انتابتني رغبة حادة في أن أخبره أيضا أن ابن خالتي سعيد كان يبول على جذعها كل يوم تقريبا. لا لشيء فقد لأغيضه، وكنت أريد أن أخبره أيضا أن خالتي صارت تربط كلبها عند جذعها الذي كان يفعل عليه ابن خالتي ما كان يفعله. وجاءتني فكرة إخباره أن الأشقر قد تمادى كثيرا إلى الشجرة، وهو يجر أذيال الجوع والتعاسة، وأنه كان يمضي الصبيحة كلها، وهو معلق فوق الشجرة مثل قرد يقتات من ثمرها. كم كنت أود أن أقول له كل هذا الكلام! إلا أنني تذكرت نصائح أمي التي تقول دائما أنه علي أن أحترم الكبار، الكبار كيفما كانوا، تفهاء أو عصاة أو فجارا. وقد كنت أفعل ذلك كثيرا، لكن ليس احتراما لهم ولا تقديرا لشأنهم، بل احتراما لأمي التي كانت تقول ذلك. أعليّ أن أنقاد لهذا الحسين أيضا، وأدَعَه يستخدمني كبغل أو حمار؟ لا شك أنه علي أن أفعل ذلك.

أسئلته التافهة والعديمة المعنى ظلت تساقط علي كما كان يفعل البرَد على سقف خم الدجاج القصديري أيام الشتاء. كنت أقصده كثيرا رفقة ابن خالتي لنختبئ تحته. كانت رائحة ذرق الدجاج المختلط برائحة ريشه المبتل بالمطر تعجبني. أجل، تعجبني رغم أنها تبدو مقرفة. لا ضير في ذلك، فحتى أب الطفل الأشقر كان يشرب قناني الخمر الرخيص،

ويعجبه ذلك كثيرا رغم أن رائحته كانت تصيبني بالغثيان. كم كنت أشمها حين أصادف واحدة من تلك التي يرميها بعد أن يكمل شربها!

وصل المساء. أتضور جوعا. في جيبي ما يسد رمقي، لكن حسينا لم يدع لي مجالا لأبحث لنفسي عن قوت، ولم أتجرأ على مصارحته بجوعي ليعطيني أي شيء مما أراه في دكانه الواسع. تأملت قطع الحلوى، وقوارير المشروبات الغازية وعلب الحليب. تأملت الدقيق أيضا، وتخيلته يختلط بماء وملح، وتخيلت خالتي سعيدة تعجنه، وتضعه في فرنها الطيني، وتخيلتُني أجالس سعيدا كما كنا نفعل من قبل؛ نجلس القرفصاء ونستبد بخبزة أو اثنتين إن اقتضى الحال، لكنني الآن لا أجد إلا الخواء قدامي. سال لعابي على السروال المخطط بالأبيض والأخضر. رشفته بعدما انتبهت له، وسال ثانية وثالثة حتى انتبه لي حسين، فأدرك، أو ربما خيل إلي ذلك فقط، أنني في حاجة إلى طعام.

أتاني حسين بصحن من العدس الممزوج بكثير من الماء والتوابل الحارة وقليل من الحجر! أكلت بنهم، والتهمت كل شيء؛ أكلت الخبزة الصغيرة، وصحن حبات العدس التي تسبح في بركة الماء العكر، وحبتي برتقال ذابلتين وصغيرتي الحجم. استرخت عظامي، وصار النوم يزقزق فوق رمشي، ويغرد كطائر شجي الصوت. كان حسين مازال يسأل ويكرر تفاهاته وأسئلته السخيفة حين أغمضت جفني، وأنا جالس على الكرسي الخشبي، إلا أنه لم يمهلني إلا لحظات حتى أفاقني واقتادني إلى

غرفة منزوية في ركن من أركان المرآب الذي اتخذه بقالة له. هناك استلقيت على الفراش الهزيل الذي كان ينتظرني، وكان بلا شك يتوقع قدومي!

أمضيت على الفراش، وفي دهاليز بقالة حسين ما يقرب من السنة. لم أتذكر أنني خرجت من البقالة إلا مرات قليلة ونادرة. وجدة التي تخيلتها وحشا لم أذب فيها، ولم أجُب دهاليزها كما كان يمكن أن أفعل. عالمي الوحيد الذي عرفته في تلك المدينة هو بقالة حسين، لا أقل ولا أكثر. كل ما كان علي أن أفعله هو أن أساعد حسينا في ترتيب سلعه وتنظيفها ومساعدة زبائنه في حمل السلع إلى سياراتهم أو عرباتهم اليدوية. عشرة أشهر وبضعة أيام كانت شبيهة بسجن؛ سجن فيه قليل من الحرية وقليل من الخبز والماء بالتقسيط، و كثير من شم الهواء.

ومضات من ذكرى شتاء وجدة..

-1-

الصباح أسود داكن كالليالي. والبرد يصفّر ويزحف كما يفعل ثعبان مقيت. صرت أخشى البرد أكثر مما أخشى الثعابين والحرابي التي تحسب أسنان الأطفال، فتتساقط من تلقاء نفسها! حسين هو الآخر يستيقظ باكرا كما أفعل، بل إنه هو من كان يتولى إيقاظي مباشرة بعد وصوله إلى الدكان الذي كنت أسكن جزءا منه. يصل باكرا، باكرا جدا، يصلني في جلبابه البني الطويل، وطربوشه الصوفي المخطط بالأزرق والأسود، هذا هو لباسه الدجنبري أو الشتوي بشكل عام. يوقظني بعنف وصخب. يعوي. يزبد، ويرعد، لكنني لم أكن أتأخر هنيهة حين أسمع صوته المدوي والمكرر بشكل ممل: "قم يا ولد، قم، فالحياة ليست سهلة." ويضيف بعدها مباشرة: "ليس سهلا أن تحصل على كسرة خبزك."

كنت أعرف أن الحصول على كسرات الخبز أمر صعب للغاية، وكنت على علم أن الحياة ليست سهلة. ألم يكن أبي يحرث، ويحفر، ويحصد، ويسقي طول أيام السنة في حقل الحاج قدور؟! لطالما سولت لي نفسي أن أجيب الحسين بقولي: "عرفت أن الحياة صعبة، وأنّ كسرة الخبز ليست سهلة." لكنني سرعان ما تنقر على طبلة أذني كلمات أمي التي تقول فيها أنه علي أن أصبر مع الحسين مهما حصل، وأن أحترمه

وأوقره وأبوس يده كل صباح، أتقول أمي:"بس يد حسين"، وأنا أرد الكلام في وجهه؟ لا.. لا.. ما هكذا أرادتك أمك يا خالد.

في الصباحات الدجنبرية التي قضيتها في قبو الحسين، كنت حين أستيقظ وأقصد صنبور الماء البارد، البارد جدا، أغسل وجهي، وجهي فقط، وأنطلق من جديد نحو وضع السلع في أماكنها المعتادة، وفتح الأبواب والنوافذ التي يجب فتحها، وإغلاق ما يجب إغلاقه. أستقبل موزع الخبز، أضع الخبز في مكانه المخصص. تفوح من خبز الصباح رائحة تنعشني! لكنني لم أكن أستطيع أن أذوق منه إلا حين يأذن الحسين، وكان يأذن بعد ساعتين، على الأقل، من فتح دكانه، ليناديني بصوت مغمغم:

- أغلق الباب الزجاجي وايت لتتناول الفطور.

الفطور عبارة عن زيت وخبز، أو زبدة رخيصة وخبز. هذا كل شيء في كل فطور شتوي كان أو صيفي. لكن لا بأس، حسين يبقى شخصا رائعا ما دام يعطيني كسرة الخبز التي قال عنها أنها صعبة المنال. هل كان يقول ذلك كي أحس بأن إعطاءه لكسرات الخبز لي شيء عظيم؟! هؤلاء الكبار لهم حيلهم التي لا تنضب.

بعد الفطور، يأتي موزع الحليب ومشتقاته. ينزلون السلع على الرصيف، وأقوم أنا بإدخال كل شيء إلى الداخل، ووضعه في مكانه بينما حسين يتمدد على كرسي قبالة الكنتوار. يفغر فاه حينا، ويتمطط حينا آخر.

ألم يخطر بباله يوما أن يساعدني؟ أولم يخطر بباله يوما أنني طفل صغير هزيل ضعيف مسحوق بئيس لا يقدر على كل هذا العمل والثقل؟ أم أنه كان يعلم بذلك ويتجاهل؟ ما هذا السؤال؟ بالتأكيد كان يعلم، أوليس الكبار يعرفون أكثر مما يعرفه الصغار، ويعرفون كل شيء أحيانا! أرجلي تتجمد أحيانا، ويسيل أنفي، ويميل لونه إلى الحمرة القانية. تخضر جثتي الصغيرة، وتصيبني رعشات البرد ليلا لقلة الفراش والدثار. ببيت خالتي كان الفراش والدثار أحسن بكثير. كم كنت أشتاق إلى شتاء بوعرك، وإلى جمر خالتي سعيدة حين تدخله إلى المطبخ الذي كنا نقضي فيه ليالينا إلى حين ذهابنا إلى النوم. كم كنت أشتاق إلى السخونة التي كان يمنحها لي جسد ابن خالتي الصغير. كل شيء كان جميلا هناك. أما في وجدة المشؤومة، فقد انقلبت الأمور بشكل غريب. بل صرت أشتاق إلى دروس معلمي أيضا، رغم الضرب والشتم والإهانة التي كان يوجههم إلي. كل ما كان يفعله مدرسي أحسن بكثير مما صرت أعيشه في دكان الحسين.

كان الحسين، حين تمتلئ سماء وجدة بالسواد، وأنظف ما يجب تنظيفه، وأسوي السلع التي يجب تسويتها، يأتيني بعشاء خفيف؛ حساء وخبز، أو صحن معكرونة مخلوطة في حليب أو في مرق حار. يغلق باب غرفتي بإحكام، ويغلق الدكان من الخارج. بلا شك، كان يفعل ذلك ليضمن عدم سرقة أي شيء من دكانه لأكله ليلا، أو ربما ليتفادى هروبي، بعدما عرف أنني أعاني كل المصاعب معه.

رذاذ خفيف يهطل، النهار مازال جنينا! ركنتْ سيارة إلى رصيف الدكان، فيما بعد سأعرف أن ثمن السيارة يمكن أن يشتري به صاحبها أبي حين كان حيا، وأمي، وخالتي سعيدة، وابنها، والبيت الذي سكناه في آيت سعيد، والبيت البوعركي أيضا! وقد يوفر الرجل بعضا من ماله بعد شرائنا! ما نزل صاحب السيارة، بل بوّق بوق سيارته. انتبه حسين لصوت البوق: ونادى بأعلى صوته:

- خالد.

- نعاااااااااام أعمي الحسين.

ارتعدت كثيرا بعدما أجبته، ما عهدته ينادي بتلك النبرة المبالغ فيها.

- تفقد ما يريده الرجل.

هرعت نحو السيارة. أعطاني الرجل الأنيق ورقة دون أن يُخرج يده من النافذة، وطلب مني أن أعطي الورقة "لِلَمْعَلَّمْ" هكذا قال: "للمعلم"، وكذلك فعلت. شرع يأمرني حسين بما يجب أن أزود به الرجل؛ قارورة غاز كبيرة وضعتها في الصندوق الذي وجدته مفتوحا دون أن يتحرك سائقها من مكانه. أواه، كيف فعلها اللعين؟!

حين حملت قارورة الغاز، تذكرت خالتي الحاجة منانة، وتذكرت تلك الدراهم التي كانت تمدني بها حين أشتري لها قاروة الغاز تلك، كنت صغيرا، صغيرا جدا. كنت أبذل مجهودا كبيرا لأتمكن من إيصالها إلى

البيت، وكنت أبذل المجهود نفسه تقريبا في وجدة. كانت أمي تحاول إبعادي عن قارورات غاز خالتي الحاجة، لكن الحاجة كانت تكرر كل مرة أنني أستطيع حملها، وتقول بتعجب: "هل يغلب هذا الرجلَ ثقلُ قارورة غاز؟!"

رجعت إلى داخل الدكان لأجد حسينا قد ملأ كيسين، أحدهما بمواد التنظيف، والآخر بعلب كثيرة لم أعرف ما تحويه من مواد. أوصلت كل شيء إلى صندوق السيارة. هممت بالمغادرة، إلا أن صاحب السيارة أوقفني بزعيق البوق ليمد لي قطعة العشرة دراهم. أأقول: "كدت أطير فرحا؟" سأكون مقللا من شأن الفرح الذي أحسست به لحظتئذ. إنه شعور يفوق كثيرا أي شعور عرفته من قبل. من قبل كانت خالتي الحاجة منانة تمنحني درهما، أو نصفه أحيانا، مقابل حمل القارورة. أما هذا الرجل، فقد أعطاني ما منحته لي الحاجة طوال المدة التي قضيتها بآيت سعيد. شعور الحصول على عشرة دراهم شعور غريب، وذو طعم لا مثيل له.

دلفت إلى الدكان. كنت منتشيا وفاتحا شهيتي لأعمل أكثر وبنشاط لم يسبق لي أن شعرت بمثله مذ وطئت هذه الوجدة البئيسة. دخل زبناء، وغادر آخرون. قدمنا لهم ما يرغبون فيه، ولم يحدث أي شيء. حين دنت الظهيرة، أتاني حسين بغذاء بئيس لا يقل بئسا عن غذاء الأيام

الفائتة. حين أنزل الصحن وبرك قدامي، حسبته سيتغذى معي، ولن يغادر إلى بيته، إلا إنه لم يفعل ذلك، بل همس في أذني قائلا:

- هات ما أعطاك الرجل.

تغابيت قليلا:

- أي رجل؟

- صاحب السيارة الذي قدمت له الخدمة اليوم.

تغابيت أكثر:

- أي رجل؟ وأي خدمة؟ ألا ترى أنني هنا أقدم الخدمة لكل رجل وامرأة تدوس أرضية دكانك؟

هم أن يكشر عن أنيابه. بدأ يحمر ويصفر ويرمقني بعينيه الغائرتين، ولم أتمالك كثيرا حتى أخرجت القطعة النقدية، ووضعتها في راحة كفه. حين همّ أن يغادر، أضاف:

- حين أعود، ندَوَّرْ معاك.

أهكذا يفعلون؟! يأخذون مالنا، ويعطونا منه النزر اليسير ليقولوا بعد ذلك أنهم فعلوا بنا خيرا؟!

مر المساء أكأب مما مرت الأُمسية الأخرى. كيف يعقل أن أتقبل أمرا كهذا؟ عشرة دراهم في جيبي، وبكلمات قليلة تصبح في كف حسين، حسين الوحش. كم كنت أتمنى هلاكه، تماما مثلما تمنيت هلاك الشيخ وابن أخته الخنزير اللذين تواطآ على مقتل أبي. كم تمنيت أن يموتا، ويتبعهما ذاك الحسين!

-3-

حين غادرت بوعرك، أوصتني أمي أن أطلب أجرتي الشهرية من حسين كلما قضى شهر. لكن، كيف لي أن أعرف أن هذا الشهر أو ذاك قد مر لأطلب أجرتي. هذا السؤال لم يخطر ببالي حين كانت أمي قدامي، وحين انتابتني الرغبة في هذا السؤال، لم أجد قدامي أحدا أسأله. هل لي أن أسأل الحسين؟ لا شك أنه سيغضب، وسيسألني عن سبب طرحي سؤالا كهذا، سيغضب أكثر حين سأخبره بأنه يجب عليه أن يمنح لي أجرتي كل شهر.

آويت إلى فراشي كأي يوم. أنهكني العمل، وأنهكني التفكير في كيفية معرفة مرور الشهر. كان السكون داخل الغرفة الصغيرة التي أسكنها لا تكسره إلا خشخشات الفئران وصريرها. في لحظة لم أكن أتوقعها، جاءني صوت سي عبد العالي، مدرسي ببوعرك، الذي كان يردده كل يوم تقريبا: "أيام الأسبوع سبعة." أدركت أن تلك الأيام التي قضيتها بين الجدران الأربعة كان لها نفع، على عكس ما كانت تقوله أمي لخالتي. أولم تقل أنه لا حاجة لي بالدراسة؟ والرجال يبقون رجالا سواء درسوا أم لم يفعلوا؟ وقتئذ انتابتني رغبة مستجدة في الذهاب إلى المدرسة، على الأقل كي أعرف أيام الشهر! لكن أين لي من سبيل إلى هذا؟ ها قد عرفت أيام الأسبوع. ترى كم أيام هذا الشهر اللعين؟

انتظرت أياما حتى أسمع زبونا يقول لصاحبه داخل المتجر:

– هذا شهر آخر يمر! صارت الشهور كالأيام يا صاحبي.

هز الآخر رأسه علامة الاتفاق، واستغللت الفرصة لأسأل الرجل همسا:

– وكم أيام الشهر يا عمي؟

بدت عليه علامات التعجب. أيكون سؤالي بليدا وسخيفا، ولا معنى له؟

– وأنت، لا تعرف؟ إيه يا زمان. طفل في سنك لا يعرف شيئا كهذا.

لم أعر أدنى اهتمام لما يقوله الرجل. ما يهمني هو معرفة أيام الشهر الواحد، ويهمني أيضا أن يخفض الرجل صوته كي لا يسمع كلامه الحسين.

بعد زم للشفاه وضحك وسخرية، قال الرجل:

– قل ثلاثين يوما.

تنفست الصعداء، وغبت عن ناظري الرجل. خشيت أن يشي بي، ويخبر الحسين بذلك، وخفت أن يتهكم على مُشغّلي بقوله: "أَلَمْ تجد طفلا تشغله إلا هذا الذي لا يعرف كم في الشهر من الأيام حتى؟"

كان عليّ أن أبدأ العد، رغم أن أياما كثيرة مضت على عملي. فليكن، ما يهم هو أن أحسب ثلاثين يوما، ولأطلب بعد ذلك أجرتي من حسين. فإن لم يفعل، فسـ... فسـ.. ماذا؟ ماذا عساي أفعل؟ هل لي من مكان غير دكان الحسين؟ أو منزل خالتي سعيدة في بوعرك؟ هل لي

أن أعود إلى بوعرك ثانية لتطعمني خالتي من جديد، وأفعل كل الذي كنت أفعله من قبل هناك؟ لا.. لا.. كبرت عن ذلك. كبرت. هكذا صارت خالتي وأمي تظنان بي.

حسبت الأيام الثلاثين يوما بعد يوم، واستجمعت قواي وأنفاسي وقلت، لكن بصوت متأتئ ومتلعثم:

– عمي حسين، أحتاج إلى بعض النقود. أعني لو أنك منحت لي أجرة شهري. أظن أن الشهر قد مضى على عملي معك.

ظل حسين صامتا، حتى أنهى كلامي المتلعثم والمتقطع، ليقول بعد ذلك، وهو يبتسم ابتسامة مقيتة:

– يا ولدي، أولا، أنا سأدفع لك أجرك كل ثلاثة أشهر. وثانيا، ماذا عساك تفعل بالنقود؟ ماذا عساك تفعل بها؟ أَوَلَا تسكن مجانا، وتأكل بدون مقابل؟ وأعطيك بين الحين والآخر درهما أو درهمين؟

ما كذب حسين فقد صرت آكل، لكن ماذا؟ وصرت آوي إلى فراش، لكن أين وكيف؟ وكان يعطيني الدرهم أيضا. أعطانيه حين أخد مني دراهمي العشرة، وأضاف لي آخر يوما آخر. درهمان فقط، وما زالا تحت وسادتي. كم كنت أريد أن أخبره أنني أدين له بثمانية دراهم، وشهر عمل وزيادة! وكم أردت أن أخبره أن أمي أخبرتني أن أطلب منه أجرتي كل شهر..! لكنه كلما فتحت فمي لأقول شيئا، يحاول إسكاتي، وتغليب صوته على صوتي.

جررت أذيال الخيبة، وصرت بدل أن أحسب أيام الشهر الثلاثين، صرت أحسب أيام شهرين إضافين.

وقد فعلت ذلك دون كلل ولا ملل. وانقضت كل الأيام، وأنا أترقب يومي الموعود. صرت أحلم بالنقود التي سيمنحها لي الحسين، ما شكلها وما لونها؟ كم عددها؟ كم سألت نفسي: "هل ستكون بعدد الأيام التي حسبتها أم أنها ستكون بكمِّ الأبوال التي بالتها الفئران على خدي وأنا نائم؟ أم أنها ستكون بحجم الشتائم التي تلقيتها من عنده؟ كم يا ترى؟كم؟

مرت الأيام، وسألت الحسين السؤال نفسه. وطلبت منه نفس ما طلبت في المرة الماضية. لكنه هذه المرة، جاء بشيء غريب آخر. أعطاني ورقة كبيرة بنية اللون، لم أكن آنذاك أعرف قيمة تلك الورقة، ولم أكن أعرف كم من علب الشيء اللذيذ، الذي أعطتنيه خالتي، حين نظفت خم الدجاج رفقة ابنها، يمكنني شراءها بتلك الورقة البنية! كنت أمسك الورقة حين يغلق الحسين علي باب الغرفة. أتأملها، وأتخيل حجم الأشياء التي يمكنني شراؤها. ذات مساء سألتُنِي: "أيمكنني، إن اشتغلت شهورا كثيرة، وأعطاني الحسين المزيد من هذه الأوراق، أن أشتري سيارة كتلك التي يملكها صاحب العشرة دراهم التي لم أمسك منها إلا درهما واحدا؟!" وراودتني فكرة سؤال الحسين المزيد من النقود مبررا ذلك بأن

ما أعطانيه لا يساوي عمل ثلاثة أشهر. جاءتني هذه الفكرة بدون تفكير ولا معرفة، هكذا فقط. إلا أن الحسين قال:

- يا ولدي خالد، لقد أعطيتك ما تحتاجه فقط، الباقي أرسلته إلى أبي ببوعرك ليعطيه لأمك، وقد فعل. إن شئت أن تسأل أمك، فاسألها.

لكن كيف لي أن أسألها أيها السافل، وتفصلني عنها مسافة لا يعلمها إلا الله، وأنتم الكبار؟ كيف؟

أضاف:

- ألا تريد لأمك أن تشتري بعض الدواء؟ لا شك أنها تحتاج للمال أكثر منك.

أي نعم، تحتاج أيها التافه، لكن هل فعلا أرسلت المال لها؟ ثم إن أمي لن تشتري دواء ولن تزور طبيبا، ألم أسمع خالتي الحاجة فاضمة تقول لخالتي سعيدة أن مرض أمي لا دواء له؟! لا دواء له أيها السخيف، لا دواء.

ومضات من ذكرى صيف وجدة..

-1-

الشمس تزقزق فوق أقفيتنا. ما عدت أغادر الدكان إلا لخدمة زبون، أو جلب شيء ما للحسين. فئران غرفتي صارت أكثر نشاطا وخشخشة وإحداثا للصرير وتغوطا وتبولا. عهدت الفئران من قبل، منزلنا بآيت سعيد، وبيت خالتي لم يكونا يخلوان منها. الفئران عدوة الإنسان، وصديقته في الآن نفسه.

ذات ظهيرة قائضة، لم يكن بالدكان سواي والحسين. الناس تقيل في بيوتها، وحسين هو الآخر لا يفوت فرصة سرقة قيلولة قصيرة على كرسيه، وأمام الكنتوار. كنت في الركن منزويا. تدغدغني حرارة الصيف، وتشعري بالنعاس أنا أيضا. لكنني لا أستطيع أن أغفو، فإن حدث ذلك ستحدث معه أمور أخرى قبيحة لن يقبلها الحسين، ولن يقبلها أحد غيره.

كنت منزويا في الركن بين صناديق الزيت وأكياس السكر، حين دلفت امرأة إلى الدكان. كان دخولها مريبا مشكوكا فيه. ما عهدت أحدا يدخل بتلك الطريقة، وما عرفت أن الناس تدخل دكانا بتسلل إلا ليسرقوا أو ليفعلوا شيئا قبيحا. تلتفت يمينا ويسارا، تتجول في الدكان بعينيها بحذر، تسرق نظرة إلى الحسين، وتنزعج حين يصدر شخيره الخفيف المصحوب بتنفس عميق ومختنق. أراقبها من الركن، وأنتظر

بصبر لأشاهد ما تنوي فعله. تلتفت أكثر، وتزيد بخطاها إلى الداخل. حاولت أن أواري جسدي أكثر. دنت من أكياس الطحين الصغيرة، تحسستْ واحدا، حدقت فيه جيدا وابتسمت، أخذته بحذر. أراقبها عن بعد، استمتعت كثيرا، وشعرت بانتشاء لا مثيل له. كم هو جميل ولذيذ أن تراقب شخصا وتشاهده دون علم منه! ثم همَّتْ أن تغادر الدكان، وهي تحاول جاهدة أن لا تحدث صوتا يوقظ الحسين، لكنها، ولا شك، لا تعرف بوجودي. أحسست بنشوة الانتصار، وهممت بالصراخ في وجهها قبل أن تجتاز عتبة الباب، وخمنت أن يمسك بها الحسين حين سأوقضه بصراخي، ولا شك سيستيقظ مذعورا صارخا هو الآخر.

تخيلته يمسك بها، ويمخضها كما كانت ابنة لالة عائشة بآيت سعيد تفعل بحليب بقرتها الوحيدة. تذكرت عمتي عائشة. تذكرت ابنتها البكر زُلِيخَة، وتذكرت بقرتها السوداء المنقطة ببقع بيضاء. تذكرت الحليب الساخن الذي ينبثق من حلمات ضرعها الممتلئ، وتذكرت المخض واللبن الطازج. تذكرت صباحات القرية النائمة في حضن جبال الريف. كم كانت تسعدني عمتي عائشة حين تمنحني كأسا أو كأسين من ذلك الحليب الطازج! أو كأسا من اللبن حين تنتهي زليخة من عملها. كم هم كرماء بعض البسطاء من الناس!

أتذكر أن عمتي عائشة أرسلتني ذات خريف لأوصل صينية الطعام لزوجها علال الذي كان يحرث في حقل مجاور لحقل من حقول الحاج

قدور. تذكرت كم أحسّت بالانتشاء والفرح حين وجدت من يسدي لها تلك الخدمة. لم تكن كخالتي منانة التي تحمل على ظهري وبين يديّ الصغيرتين قنينات الغاز، وأرطال البطاطس والبصل والشعير، مقابل شيء زهيد، ومقابل لا شيء أحيانا. فرحت عمتي عائشة كثيرا لأنني قدمت لها تلك الخدمة، أما أنا فلم أكن أحسب لخدمة كتلك حسابا. فرحت عمتي، فكافأتني بفنجان بلاستيكي كبير من اللبن، وقطعة خبز القمح المحشوة بزبدة بلدية. كان غذاء رائعا حقا!

تخيلت الحسين، وهو يمخض المرأة ويعوي في وجهها، ويهددها، ويضربها ويفعل بها أشياء أخرى قد لا تخطر ببالي. استيقظ فيَّ ذاك الشيطان الذي يدفعني للصراخ في وجه المرأة البئيسة. كانت بئيسة ومعدمة. تبدو عليها أمارات الفقر والعوز. نحيفة وقصيرة. عيناها جاحظتان مكورتان، وثيابها رثة ومتسخة، وكانت تنتعل قبقابا بلاستيكيا ممزقا من الجوانب. هممت أن أصرخ، وهممت أن أوافق شيطاني فيما يمليه علي، لكن، لكن ماذا؟ كان ثمة ملاك يناديني من أعماقي، ويقول: "انظر إلى تلك المرأة البئيسة، أليست صورة مطابقة لأمك؟ ألا تشبهها في كثير من الأشياء؟ ألا يكون زوجها بئيسا كما كان أبوك؟"

قلت في نفسي، وكأنني أخاطب الملاك: "لكن أبي لم يكن يرسل أمي لتسرق كيس طحين من بقالة المدشر، هل كان أبي يفعل ذلك؟ أبي لم

يكن يفعل ذلك. أبي كان يستيقظ مع صياح ديكة القرية، ويعمل في حقل الحاج قدور، وحقول أناس آخرين."

يقول لي الملاك ثانية: "أيها الصبي، ألا يكون زوجها أيضا ميتا أو مقتولا كأبيك؟ ألا يكون رجلا مريضا لا يقدر على حراك؟ فكر في أن يكون لهذه المرأة طفل مثلك، وبئيس مثلك، ومعدم مثلك، وجرو ضال كما أنت. خمن أن يكون هذا الطفل الآن يتكور في ركن البيت كما تتكور أنت الآن بركن الدكان، تخيَّلْه منزويا في ركن بيت ترابي وضيع ينتظر طحينا ستأتي به أمه، أو فكر في أن يكون الآن بدوره يعمل عند حسين آخر، وفي دكان آخر، خمن أن الولد قد مُنح ورقة بنية وحيدة بعد ثلاثة أشهر من عمله. فكر في كل هذا أيها الملاك الصغير."

تذكرت أبي مرة أخرى. كم لي أن أتذكره في حياتي هذه؟! كم؟! أكلما شممت نفحات الموت وأريج المرض يأتيني شبحا أبي وأمي المريضة يلهثان؟!

قلت في نفسي ثانية مخاطبا المرأة: "فلترحلي في سلام أيتها الأم، فلترحلي. خذي كل شيء. خذي الدكان. خذيني معك لأرافق طفلك! وخذي الحسين أيضا، وارميه في مزابل المدينة النتنة."

فكرت أن أناديها فأعطيها شيئا آخر من سلع الدكان، لكنني خشيت أن أوقظ الحسين، وخشيت أن تخاف المرأة من مناداتي فتلوذ بالفرار، ولم أعر أدنى اهتمام لإمكانية معرفة الحسين بكيس الدقيق المسروق.

أكياس الدقيق، وصناديق كل شيء موجودة بكثرة. لن يعرف الحسين شيئا من هذا، ورغم ذلك فقد بقيتْ رعشة خوف تنتابني مخافة أن يعرف الحسين بأمر كيس الطحين المسروق كما فعل سي عبد الهادي مع الطفل الأشقر حين ضبطه سارقا لموزة من إكليل الموز الذي ابتاعه له ذات يوم بوعركي.

-2-

هذا الصباح نائم، قليلون يلجون البقالة. في الركن، أجلس، وأذب الذباب عن وجهي بكرتون. الذباب يتجمع حولي أكثر مما يتجمع حول الحسين! في بوعرك كان الذباب يحوم حولي، وحول الطفل الأشقر أكثر مما يحوم حول أطفال آخرين. أطراف ابن خالتي كانت تنظفها كل يوم. الذباب الذي كان يُفترض أن يدور حولي، وحول ابن خالتي كان يدور حولي وحدي! كنت كل مرة آخذ حصته من الذباب الحائم! وكان يأخذ حصتي من شيء آخر!

كانت ديدان الكسل تنهشني من الداخل صبيحتئذ. حسين هو الآخر يغفو بين الفينة الأُخرى. يصدر شخيرا خفيفا، ويصفّر أحيانا أخرى! لكنه سرعان ما يفيق مذعورا، وهو يسوي طربوشه المخطط بالأزرق والأسود، ويسعل بضع مرات ليعْلمني أنه يقظ. طز عليك أيها الحسين المكور! أعلم أنك كنت نائما، وسمعت شخيرك الذي يشبه صوت ضراط حمار! ورأيت اللعاب يسيل من فيك أيضا يا كيس الطحين المدور.

حين يفيق لا يجد شيئا يفعله إلا أن يزعق بي قائلا:

- خالد، قم أيها الطفل الكسول. قم من مكانك. هل جئت إلي لترخي عظامك عندي.

أقوم دون جدال، يضيف:

- ادخل إلى المستودع، وسوّ كل ما تجده غير منظم.

حين أعود، يطلب مني أن أكنس أرضية الدكان. حين أفرغ من الكنْس، يأمرني بجلب كأس شاي له من محلبة الحي. حين آتيه بالكأس، الكأس له فقط، أما أنا فلا يصلح لي شرب كأس شاي، ربما هكذا يخيل إليه! حين أنهي جلب الشاي، يطلب مني أن أتجول في كل الدكان لأرى ما إن كان كل شيء منظم. أقول له في نفسي:

- لم يبق لك إلا أن تطلب مني أن أنزع سروالي أيها السافل!

كنت، صبيحتئذ، ما زلت أرتب كل ما لا أجد مرتبا حين سمعت همسا وحديثا خفيفا، وتبادلا للحديث، وشممت رائحة بوعركية أيضا. حينئذ سمعت الحسين ينادي، لكن هذه المرة بصوت شجي. دنوت شيئا فشيئا، كان شبح عمي الحاج عبد الرحمن يتمدد أمامي. دنوت أكثر. ارتميت على كفه. قبلتها كما يحلو لأمي وخالتي سعيدة، وناديته بعمي الحاج كما يحلو لهما أيضا، ثم أمرني الحسين بعد ذلك أن آتي بحقيبة ثيابي الترابيةِ!

سألت في نفسي مرات بعدد النجوم التي تتلألأ في السماء "لماذا؟" لماذا أتى عمي الحاج عبد الرحمن؟ لماذا ناداني الحسين بصوته الشجي؟ لماذا أمرني أن أجمع ثيابي؟ لماذا طلب مني أن أرحل مع عمي عبد الرحمن؟ ولماذا قال لي أنه سأعود بعد أيام قليلة؟ لماذا أعطاني هذه المرة ورقة

النقود الزرقاء؟ لماذا سأذهب رفقة عمي عبد الرحمن إلى بوعرك؟ ولماذا في هذا الوقت دون غيره؟

أخبرني الحسين أنه علي أن أزور خالتي سعيدة وأمي لأطمئن على حالهما وأعود؟ أأنا الذي يجب أن أطمئن على حالهما؟ أم أنني الذي وجب أن يُطمأن على حالي؟ أيُّنا يعزي الآخر؟ خالتي تعزيني؟ أم أنا الذي سأعزيها؟ أأنا الذي سأشفق على أمي؟ أم هي التي وجب عليها الإشفاق على حالي؟

لم يكن لي بد من أن أفعل ما طلبه مني الحسين، وما قاله عمي الحاج أيضا. جمعت الثياب، وضعتها في الحقيبة بشكل فوضوي. انتعلت حذاء آخر، ورميت بالقبقاب البلاستيكي الذي كنت أشتغل به في ركن البيت. بصقت على الفراش الذي كانت جثتي الصغيرة تتآكل عليه شيئا فشيئا، وحدتني رغبة حادة أن أتبول عليه إلا أنني لم أفعل. ثم غادرت رفقة عمي الحاج إلى بوعرك، البيت الذي آواني وأمي بعد رحلة الموت تلك.

L'homme classique

حكاية علاء بشيري

الصيف كئيب وحزين بتازة، وهذه بدايته، حزين وشاحب كضوء قمر أو كوجه آدمي مريض بفقر الدم. كانت تباشير الحر تتبدى لي كتنين عملاق يجثم على سماء المدينة. أسراب الذباب والبعوض وكثير من الروائح التي تزكم الأنوف كانت تتراءى لي أيضا.

صديقي عبد المجيد يعدني بحصوله، كل صيف، على عطلة مطولة تبلغ عشرين يوما فما فوق. بذلك، أستطيع أن أنسى ألم الحر قليلا. شواطئ ثغر من ثغور المغرب تنتظر قدومنا، وسهر الليالي الذي لا توقفه إلا أشعة شمس صباحات الصيف هي الأخرى كانت تملأ حيزا من صيفنا الكئيب. عبد المجيد هو الحبل الوحيد، أو ربما الأنسب والأقوى والأصح، الذي ينقذني من الغرق في مدينتي! ثمة حبال أخرى يمكنني أن أستنجد بها، لكنها تشبه إلى حد بعيد حبال الهواء التي يستنجد بها الغريق ساعة الضيق والحرج.

قبل أيام، كنت منشغلا بعض الشيء بالتحضير للترشح لولوج سلك تكوين الدكتوراه. اتصلت بأحد أساتذتي بمدينة فاس و أخبرني أن ملفي قد تم قَبوله. لم يبق لي إلا المثول أمام اللجنة للمصادقة والنجاح النهائيين. كانت فرحتي عارمة. لا أظن أنني سأرسب في المقابلة الشفوية، أو أنني شأفشل. كانت لي قدرة متواضعة على إقناع أعضاء

اللجنة ومسايرة نقاشهم مهما علا. أستاذي العزيز يطمئنني دائما بقوله أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد نقاش بسيط، وأنه ليس بالضخامة التي قد أتصورها. إنها مجرد مقابلة كما يحلو له أن يكرر كل مرة.

كان الموضوع الذي اخترته يحوم حول السفارات التي قام بها الكثير من الفقهاء والقضاة والأمراء والملوك لتوحيد الأندلس في بداية عصر الطوائف، وما آلت إليه الأندلس من تفرقة وتشرذم وسقوط لأكثر مدن الثغر الأدنى، وغير ذلك من الأمور؛ من استقدام المرابطين وغير ذلك.

لم يرقني الموضوع في البداية، إلا أن أستاذي المشرف نصحني بالمضي قدما في الأمر عازٍ حيث اعتبر أن الموضوع جديد لم يتطرق إليه أحد بشمولية، عدا بعض المحاولات العامة والعابرة التي تطرق إليها الكثير من المؤرخين ودارسي التاريخ.

كانت الكثير من المراجع متاحة لدي بشكل ورقي أو إلكتروني، وكان أستاذي المشرف قد وعدني بمدي بالمزيد من الكتب والمراجع والمصادر التي ستغنيني عن البحث في مكتبات أخرى. تحمست للأمر وسلمت أمري، ومضيت قدما.

الموسم الدراسي لم يبق منه إلا الإشراف على الامتحانات الإشهادية وبعض الإجراءات النهائية الأخرى التي تنهي الموسم. تركت جبال تاونات ورائي وآويت إلى حضن تازة، لكن حضنها ساخن أكثر من اللزوم!

أقضي جل وقتي بين المكوث في البيت منقبا أكثر في موضوع أطروحتي، والولوج إلى المواقع التي تتيح لي الحصول على بعض المعلومات اللازمة للمقابلة، أو الذهاب إلى مقهى مصطفى لتصفح الجرائد اليومية، واحتساء كؤوس الشاي والقهوة وتدخين سيجارة بين الوقت والآخر. هناك، أنتظر عبد المجيد حتى يغادر مقر عمله في المساء ليلتحق بي لنناقش أمر الصيف وتجواله.

تناسيت مخطوطة خالد التي يترجمها صديقي الافتراضي عزيز. لقد شغلني أمر التحضير لموضوع الأطروحة بعض الوقت رغم أنني كنت قد بدأته منذ شهور. نسيت أمر عزيز، أو قل تناسيته. وعبد المجيد لم يعد يحدثني عن ذلك، كما أنني لم ألتق به منذ مدة، التحضير لموضوع الأطروحة أمر أبعدني عنه هو الآخر أيضا.

لا شك أن أكثر من جزء من أجزاء المخطوطة قد فاتني قراءته. حين ناقشت المسألة مع عبد المجيد، وجدت أنه متتبع دون نسيان ولا تناسٍ، ودون كلل ولا ملل. كان مجنون السير بامتياز.

عرجت على الحائط الفيسبوكي الخاص بعزيز، وقرأت كل ما فاتني. في الحقيقة، لم يكن ما فاتني بالشيء الكثير، ووجدت هناك تدوينة له تقول أنه سينشر جزءا آخر بعد يوم أو أقل، وأنه يسارع في الترجمة لإنهاء المخطوطة لأمر ما يشغله.

بعد اليوم التالي، نشر عزيز الجزء الذي وعد به، كان فصلا آخر من فصول حياة الطفل الذي ينسب إليه عزيز المخطوطة.

الأوراق تتساقط تباعا..

-1-

أدنو من بوعرك، وتدنو مني نفحات نسيمه الصيفي. تدنو مني رائحة الطماطم والمشمش، وتأتيني رائحة البحر مختلطة بالتراب. أتذكر كل ما قضيته من قبل بين تلك الأشجار، ووسط بساتين العنب وشجيرات الطماطم. أذكر كل شيء وبكل الفاصيل. تذكرت الأشقر، وتمنيت أن لا أراه. جاءني شبح ابن خالتي يلهث، اشتقت إليه. اشتقت إلى ذلك الجور. اشتقت إلى بسماته وبكائه. اشتقت إلى وجهه الكروي، وتخيلت المخاط ينزل من ثقبي أنفه كما كان يفعل من قبل. تذكرت رائحة بوله، وطعم الحرارة التي كان يمدني بها أيام القر.

أتمشى خلف عمي الحاج عبد الرحمن وأفكر: "عن أي شيء سأسأل أمي حين أرتمي في حضنها هذه المرة؟" قلت: "لا شك، سأسألها عما إن كان الحسين قد أرسل لها المال الذي ادعى أنه كان يرسله إليها؟" كان من الممكن أن أسأل عمي الحاج عبد الرحمن عن ذلك، لكنني خشيت أن لا يروقه السؤال، وخشيت أن يكذب علي هو الآخر، فيذهب مجهود سؤالي هباء. أجّلته حتى أرى أمي، ذلك الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أثق به.

حين وصلت، تداعت إلي نفحات حنين وبؤس وحزن؛ خالتي سعيدة تكفكف دمعة أو دمعتين تتسللان خلسة من مقلتيها، وشت بما كانت

تريد أن تخفيه. سعيد يتكور في ركن المطبخ كجرو خائف. نساء يلجن البيت وأخريات يغادرنه. خالتي الحاجة فاضمة هي الأخرى تتغير ملامح وجهها الذي عهدته بشوشا. سلمت على من وجدته في طريقي إلى حضني خالتي. فهمت أن شيئا ما حدث؟ أمي؟

قالت خالتي سعيدة، وهي تذرف المزيد من الدموع:

- أمك في الجنة، إن شاء الله، يا ولدي.

- أإلى حيث ذهب أبي؟

حركت رأسها علامة الإيجاب، ولم أبك. كانت حبات الدمع جامدة داخل عينيّ! أبكي صمتا. يبكي قلبي، وتبكي كل جوارحي إلا عيني.

-أَتَحْتَ التراب حتى هي؟

حركت رأسها ثانية، وقالت:

- دفنوها البارحة. لا عليك أيها العزيز. أنت ابني من اليوم.

هاجت الأفعال والأقوال داخل عقلي. عجزت عن اختيار واحد. ماذا عساي أقول؟ ماذا عساي أفعل؟ قبّلت يد خالتي ثانية، وربما ثالثة أو رابعة. قبلتْ جبهتي برفق. أعطتني كوب حليب بارد، وقطعة خبز محشوة بزبدة. حدقت في سعيد، وجدته ذابلا مثل نبتة فول عطشانة.

رباه، ما هذه السحابة الكئيبة التي تحوم حولي وحول سمائي؟!

أمي ذهبت حيث ذهب أبي. الأموات يذهبون إلى الله، وإلى الجنة، لكن "إن شاء الله." أكلّهم إلى الجنة؟! حتى الشيخ وابن أخته والعياشي

ابن الزاهية بائع السجائر في آيت سعيد؟ أحتى الحسين سيذهب إلى الجنة حين يموت؟!

أمي، ولا شك، ستذهب إلى جوار الله وإلى الجنة. أمي اغتالتها مخالب السرطان، المريض الخبيث كما يحلو لخالتي سعيدة، ولكل النساء الأخريات أن يسمينه، وأنا؟ إلى أين سأذهب؟ أي نار وأي جنة ستأويني الآن؟ يا ليتني رافقت أمي إلى الجنة التي وعدتني بها خالتي.

لكن، لا أحد يموت متى شاء، ولا أحد يعود حين يموت. الذاهبون إلى الله لا يعودون، إنه ذهاب أبدي. لكن هل سيلتقي أبي بأمي في الجنة؟ أيكونان الآن يتحادثان ويتبادلات النكات والنكبات كما كانا يفعلان في بيت آيت سعيد؟ هل هما الآن يتحدثان عني، وعمّا كان يمكن لهما أن يفعلانه لو بقيا حيين؟ أيكونان الآن يتحدثان عني؟ أنا الجرو الضال الذي تركاه خلفهما؟

-2-

في الخارج، الدنيا كئيبة وحزينة. خالتي تعد فطورا. سعيد يقضم قطعة خبز محشوة بزيت وسكر ريثما يكون الفطور جاهزا. يبدو بئيسا وحزينا هو الآخر. كم تختلف الأزمان وإن بقيت الأماكن على حالها! بالأمس كان الصيف جميلا لذيذا في بوعرك. هذا الصيف صار حزينا كئيبا.

من قبل كانت أمي تحدثني بكثير من الأشياء والأمور. وكانت تحكي لي الكثير من القصص والحكايات الغريبة. من قبل، كنت ألجأ إليها حين أريد أن أستفسر عن شيء ما، رغم أنها كانت دائما تجيبني قائلة:

- أنت ما زلت صغيرا على هذه الأمور، حين تكبر ستعرف كل هذه الأشياء.

ها قد رحلت ورحل أبي. وذهبا إلى الله معا، وتركاني بدون أن أعرف تلك الأشياء الكثيرة التي كانا يعداني بها.

من قبل، كانت تقول الكثير من الأشياء، تلك التي كانت ترى أنها تناسب سني، وأستحق أن أعرفها وأنا ذلك الطفل الصغير، واليوم؟ من تُراه سيعوض أبي وأمي عن كل ذلك الكلام الذي كان يفور من فميهما كما تفور المياه من عيون آيت سعيد؟ هل ثمة شخص يمكنه أن يفعل ذلك غيرهما؟ خالتي سعيدة ستفعل؟ ربما، وربما سيخيب ظني بها.

هذا اليوم تبدو لطيفة أكثر من ذي قبل. تعد الفطور، وتسرق نظرات إلى سحناتي الشاحبة الحزينة. تقول بين الفينة والأخرى:

- لا تشغل بالك بشيء يا صغيري. أمك بخير، وأنت ستكون بخير أيضا.

أقول في نفسي: " وهل أبي بخير؟"

ماذا لو أن خالتي تموه علي، وتكذب كذبتها البيضاء هذه إذ تدعي أن أمي بخير؟ ماذا لو أنها تفعل مثلما كانت أمي تفعل من قبل حين كانت تخبرني أن أبي سيعود قريبا، حتى أدهشتها ذات غروب بالقول:

- أبي لن يعود، أنت تكذبين. الأموات لا يعودون. يذهبون إلى الله، ثم لا يعودون.

دهشت بذلك كثيرا، وقالت، وهي يمسح دموعا كانت تسيل من عيني:

- لا يا عزيزي، لا..

بكت هي الأخرى، وأضافت:

- من أخبرك بهذا؟

أجبت، وأنا أذرف دموعا أكثر:

- أنت قلت هذا لخالتي منانة. أنت من قال هذا لها، وأنا؟ تكذبين علي.

حينها فقط أدركتْ أن زمن الكذب قد ولى!

خالتي تنظر إلي، وتطمئنني. تشفق علي. كم صرت أكره أولائك الذين يشفقون علي. أصرت أكره خالتي بعد كل الذي كان منها من الخير؟!

حتما لست كارها لها. خالتي شمعة ستظل تشتعل في دنياي حتى ولو ابتعدت عنها.

حين أنزلت خالتي الفطور، دنوت، ودنا سعيد كما يدنو قط وجل من طعام. لا ينبس بكلمة. ما الذي أصاب هذا المخلوق الصغير؟ أحقا يحزن على فراقنا لورقة من شجرتنا الهزيلة؟ ربتت خالتي على كتفي، وداعبت شعري الأشعث، وقالت:

- اطمئن يا ولدي، أمك كانت ملاكا وستبقى كذلك. أمك لن يفعل بها الله إلا الخير.

ثم بدأت تحكي لي قصصا لم أكن أعرفها من قبل، قصصا عن أمي بالذات. كيف استطاعت أمي أن تخفي عني كل ذلك؟ وهل كان أبي يعلم بحكاياتها تلك؟ ربما كان يعلم. الصغار وحدهم من لا يعلم، أما الكبار فيعلمون كل شيء. وإن كانوا لا يعلمون كل شيء، فإنهم يعلمون الكثير. صَدَقَت أمي حين كانت تقول أنه يجب علي أن أكبر كي أعرف بعض الأمور. ها قد بدأت الدنيا والزمان يرياني بعضا مما كنت أجهله. ها هي خالتي تحكي شيئا ما كنت أحسب له حسابا. تأوّهتْ خالتي لتقول:

- اسمع يا ولدي. اسمع جيدا لتعرف من كانت أمك. أمك ملاك. أمك كانت رجلا أكثر مما كانت امرأة تعجن الخبز وتوقد الفرن الطيني. أبونا كان مريضا وفقيرا معدما، ولم يكن له من الأولاد سواي وأمك.

سألتها عن أبيهما هذا، قالت أنه مات، و أعقبته بسؤالي عن أمها، قالت أنها ماتت هي الأخرى. كان بودي أن أسأل عن بقية أفراد عائلتهما. أنا مذ عرفتُني، أعرف أمي فقط. ولم أعرف خالتي سعيدة هذه إلا حين طُردنا من القرية التي قُتل فيها أبي. لا أسأل خالتي عن بقية أحبابهم. تابعت:

- لم يجد أبي بدا من أن يرسلنا إلى الناظور لنشتغل خادمتين في بيتيْ رجلين من أبناء تلك المدينة. ماتت أمي أولا، أعني جدتك يا عزيزي. وتابعنا عملنا الذي كان يعيل أبانا وأمنا أيضا قبل أن تموت. لم يلبث الأب كثيرا حتى التحق بها.

فكرتُ: "التحق الجد بالجدة كما فعلت الأم الآن بالأب. كم هم أحبابنا الذي يذهبون إلا الله!"

كانت خالتي تقول هذا، وهي تذرف دموعا خفيفة من عينيها، وتكفكفها بمنديل كانت تمسك به يد إبريق الشاي الساخن. بكيت أنا الآخر وبكى سعيد أيضا. وددت لو أن خالتي سكتت ولم تكمل حديثها المؤلم ذلك. لكنني بالمقابل تعطشت إلى معرفة المزيد من الأوجاع التي عاشتها أمي دون التي أعرفها، والتي قاسمتها معها. أحببت أن أعرف ذاك الجد أكثر، وتلك الجدة البئيسة. كيف كانا؟ وكيف عاشا؟ تخيلت الجد بئيسا حزينا طول الوقت. يرتدي جلبابا صوفيا ترابيا في كل الفصول. وتخيلت تلك الجدة وهي تتسربل برداء خشن، وتتنقل

بين مطبخها، الذي لن يكون إلا بئيسا هو الآخر، وبيت نومها وخم دجاج أو حظيرة نعاج، إن كان لهما نعاج ودجاج. كم تخيلت أن تكون حياتهما بئيسة!

انتبهتُ إلى خالتي التي كانت تقول:

- اشتغلت في بيت الحاج عبد الرحمن، كنت أساعد خالتي الحاجة في أشغال البيت حين كانا يسكنان بالمدينة، لكنني لم ألبث كثيرا حتى عرض علي عمي الحاج أن أتزوج بالرجل الذي كان مقدرا له أن يعيش معي سنوات محسوبة على رؤوس أصابعي. وبقيت أمك تشتغل في بيت تلك الأسرة التي لم تكن كما كان عمي الحاج معي. كانوا وحوشا كما كانت أمك تحكي لي. لم نرجع إلى كرسيف منذ وفاة والدنا. ماذا عسانا نفعل هناك؟ لا أحد سيعيلنا. ومن يعيلنا؟ حتى أبونا كنا نعيله نحن حين كان حيا.

عرفت أمك شابات أخريات في الناظور، وعرضن عليها أن تشتغل معهن مهربة للسع من مليلية. شاورتني في ذلك، كنت هنا ببوعرك آنذاك، لم أجد شيئا أقوله إلا قولي: "افعلي ما تشائين يا عزيزتي. أنت الآن كبيرة، يمكنك أن تحددي مصيرك بنفسك." اشتغلت مهربة رفقة أولائك النساء مدة تفوق ثلاث سنوات، لكن الزمن غدار والناس ذئاب يا ولدي! أتدري ماذا حدث يا بني؟

لم أجب خالتي عن سؤالها، فأنا بالتأكيد لا أعرف ما حدث. ولم أكن أعرف شيئا مما كانت تحكيه. صرت أبتلع قطع الخبز المدهونة بزيت الزيتون بعسر. خالتي لم تكن تأكل شيئا. لا شك أن حرقة الفراق وحرقة البئس كانتا غصة في حنجرتها. قلت ببراءة قديس:

- ماذا حدث يا خالة؟!

كفكفت دموعا أخرى كانت تتسلل من مقلتيها غصبا عنها، وتشي بالأسى الذي يسكن خالتي، وقالت:

- ذات صبيحة، كانت رفقة ثلاث نساء من زميلاتها ورفيقاتها في ويلات الويل. جاءهن رجل؛ قالت أمك أنه كان يبدو وقورا ومهابا، وطلب منهن أن يركبن معه ليسهل عملية دخولهن إلى مليلية. أعجبتهن الفكرة، فلا أحد يمكنه أن يرفض الخير حين يقدَّم له. ركبن معه. وتصرفن بشكل عاد، لكن الشرطة اكتشفت أن الرجل كان يحمل في سيارته كيلوغرامات من الحشيش.

فكرت في هذا الحشيش. ما شكله؟ ما لونه؟ هل يصلح للأكل أم للشرب؟ إلا أن خالتي قالت أن الحشيش شيء يدخن مثله مثل سجائر أبي الرخيصة، ومثله مثل الكيف الذي كان يدخنه أبي أيضا، إلا أنني لم أكن أبتاعه له.

تابعت خالتي:

- قبضوا على الرجل ومعه أمك والمرأتان الأخريان. اتهموهن أيضا بتهريب الحشيش. الرجل هو الذي قال ذلك أمام المحكمة.

سألت خالتي:

- ولم فعل الكلب ذلك؟

- كان يريد أن يموه الشرطة. كان يعتقد أنهم لن يوقفوه ما دامت النساء راكبات معه. واعتقد أنهم لن يشكّوا في رجل يحمل رفقته نساء. لكنهم فعلوا وأمسكوا به، وحين وجد نفسه في الشراك، ورط البريئات أيضا، البريئات البئيسات.

- ثم ماذا يا خالة؟

- أمضت أمك والمرأتان الأخريان ثلاث سنوات في سجن الناظور. وقضى الرجل الخبيث سنوات. أتدري يا خالد يا صغيري؟ حين أطلق سراحهما رجعن لعملهن كالمعتاد. حين أطلق صراح الرجل. تعقبته إحدى النساء حتى دست له السم في كأس قهوة كان يحتسيه بإحدى مقاهي بني انصار. قالت أمك أن رفيقتها ترقبت الرجل مرات كثيرة حتى ضبطته ذات مرة بالمقهى وقد أنزل كأس قهوته على طاولة ودخل المرحاض. حين علمت أمك بموت الرجل، هجرت الناظور خوفا من اتهامها مرة أخرى. اتجهت بعد ذلك إلي، ثم سرعان ما اقترح عليها عمي الحاج بناصر أن تعمل ببيت صديقه الشيخ وزوجته العجوز بآيت

سعيد. وكذلك كان، فقد خدمته حتى تزوجت سيدي أحمد، أبوك الذي فارقنا هو الآخر.

أكملت خالتي قصتها وقصة أمي، لكنها قالت ما كان ممكنا أن يُحكى، لا شك أنها أخفت أشياء كثيرة أو قليلة. المهم هو أنها لن تحكي كل شيء.

لملمت أشيائي القليلة والبئيسة ووضعتها في حقيبتي الترابية. قلت لخالتي دون أن أنتظر سؤالها:

- خالتي، سأمضي إلى حيث يريد الله.

- إلى أين يا عزيزي؟ أنا مثل أمك. ابق معنا ولن تكون في حاجة إلى أكل ولا شرب.

- أعرف يا خالة. أعرف. لكنني لا بد أن أجوب دروب الحياة مثلما جابتها أمي، وفعل ذلك أبي أيضا.

- إلى أين إذا؟

- ربما إلى الناظور. سأبحث لنفسي عن عمل.

لم تجد خالتي بدا من أن تستسلم للأمر الواقع، وتمنحني بعضا مما تملك من النقود، وتدعو معي بالخير والفلاح وحفظ الله. في الصباح انصرفت، ونظرات خالتي ترافقني.

كان سعيد يحزنني أكثر بعينيه الذابلتين. كل مرة أرحل وأترك هذا المخلوق ورائي دون من يؤنسه. خالتي ودعتني، وهي تقول:

- لا تنس يا خالد أن تزور خالتك بين الفينة والأخرى.

رواية عزيز

صارت بديعة، في الشهر الأخير الذي يقضيه الجنين في أحشائها، لا تستطيع فعل الكثير من الأعمال والأشياء. لا تستطيع أن تقرأ الكتب التي أجلبها لها من المكتبة، ولا أن تنشر الملابس على سطح المنزل، بالكاد تستطيع أن تعد وجبات اليوم. بالتأكيد، لا تقدر على قراءة الأجزاء الأخيرة التي أترجمها من مخطوطة خالد. صارت تقضي أغلب وقتها أمام التلفاز، وهي تنصت بأناة لأنين الجنين الذي تنتظره، بل ننتظره سويا، وتنصت لأنينها أيضا.

خالتها مغنية صارت تزورها بكثافة. تحاول أن تطمئنّ على حالها وحال جنينها، وهي توصي وتقدم النصائح التي وجب على بديعة أن تأخذ بها. خالتنا مغنية إنسانة دائنة لنا بالكثير مذ ولجنا هذه المدينة التي فتحت أمامنا بابا آخر، وإن لم يكن قد فُتح بالطريقة التي كنا نبتغيها.

أخبرت عمي حسن بدنو وضع بديعة. ظل المسكين طول تلك الأيام يدعو لها وللجنين بالخير، قال لي فجأة:

– عليك أن تصلي يا عزيز.. أنت كبرت يا ولدي.

صمتت برهة، أضاف:

– وأنت لست ممن يجب علي أن أنصحهم. أنت رجل متعلم، وتعرف أكثر مما أعرفه. أنت من يجب أن يعلّمني.

في الحقيقة، كنت قد بدأت الصلاة وقتئذ. بديعة كانت أكثر إلحاحا منه، كانت المسكينة تقول، حين تكسوها سحابة الحزن:

– أتمنى يا عزيز أن لا يكون تركك للصلاة هو السبب في رحيل أبنائنا الثلاثة!

أجيب مبتسما:

– يا بديعة، إن الله يمتحن عباده على قدر إيمانهم، من يدري؟ فقد أبدأ الصلاة، فيبتلينا بما هو أكثر، ألم تسمعي أن المؤمن مصاب؟!!

كنت أقول هذا الكلام، وداخلتي تحدثني بهجر العبث وسلك طريق أخرى غير التي سلكتها لأكثر من ثلاثة عقود.

بدأت الصلاة منذ ما يقرب من شهرين، ولا أحسبني أهجرها كما كنا نفعل أيام الطفولة والصبا. في الحقيقة، لم يتغير من أفكاري إلا القليل، وإن كان بعض رفاقي يحسبون الأمر نقضا للمبادئ التي تشبعنا بها وعاهدنا أنفسنا على المضي بها إلى الأبد. قلت لعبد الواحد: "أنا ما زلت على العهد يا صديقي، متى قلت لك أنني لا أؤمن بالحرية والمسواة والعدل؟ متى؟" كان أحد أصدقائي يقول دائما: "إن الكثير مما يطالب به التيار اليساري هو نفسه الشيء الذي يدعو إليه الدين الإسلامي. ألا يدعو الدين إلى العدل والمساواة ورد المظالم وأخذ كل ذي حق حقه..؟ هذه الأمور كلها سبق الإسلام إليها. إن الفكر اليساري يلتقي مع مبادئ الإسلام في أكثر من مبدإ..!!"

صرت أذهب مع عمي حسن بعد ذلك إلى الجامع بعد أن أخبرته أنني أصلي، ولم أعد كما كنت. وبقيت أحدثه عما يجب أن يكون عليه حال الشعوب وحال الإنسان بصفة عامة، وهو يهز رأسه علامة الاتفاق. عمي حسن صار أكثر فرحا وانشراحا حين سمع مني ما سمع. كان المسكين يسعد لسعادتي كثيرا، ويحزن لما يحزنني أيضا.

اليوم، بديعة أعدت أكلة لذيذة. لا شك أنها تعبت كثيرا لتفعل ذلك. كنت كثيرا ما أطلب منها أن أجلب الغذاء من الخارج في الفترات الأخيرة من حملها الرابع. لكنها كانت، كل مرة، ترفض. بديعة، كما قلت، لا تقدر على قراءة ترجمة الأجزاء الأخيرة التي صرت أترجمها بخفة وسرعة، نظرا لقصرها وتوقا مني إلى أن أنهي الترجمة. في تلك الأيام، كنت أتوقع الكثير من المشاغل. كان علي أن أنهي الترجمة بكل ما أوتيت من خفة، أو أن أضطر إلى إيقافها حتى تمر عواصف المشاغل الطارئة.

رغم كل ذلك، ظلت بديعة متشبثة بمعرفة تتمة الحكاية. نصحتها أن تقرأ بنفسها فيما بعد، لكنها أصرت على أن أحكي لها بنفسي ما آل إليه خالد، وما آلت إليه مسيرته الملحمية.

حكيت لها الفصل الموالي بكثير من التفاصيل، ونصحتها أن تقرأه متى ما وجدتَ لذلك رغبة وقوة. في الحقيقة، لم يكن الجزء طويلا للدرجة التي قد ترهقها قراءته.

الناظور، بعيدا وغير بعيد عن المحطة..!

-1-

تعبت كثيرا من يوم كامل من المشي وتجوال الدروب والأزقة بمدينة الناظور. سألت أكبر عدد ممكن من أرباب متاجر المدينة ومطاعمها ومقاهيها، لا أحد قَبِل تشغيلي، وكان منهم من ينعتني بالصغير الذي لا يقدر على عمل كيفما كان. ثمة من اعتذر قائلا أنه لا حاجة له بعامل في تلك الأوقات. تغذيت بقليل من الأموال التي مَنَحَتْنِيهَا خالتي، وتعشيت بالقليل أيضا. كان بحوزتي بعض من النقود الأخرى التي وفرتها من عملي في دكان الحسين. لكنني أخفيتها لأيام قادمة قد تكون أكثر سوادا من تلك التي كنت أعيش. فكرت أن أعود إلى بوعرك إن لم أجد عملا يضمن لي مأواي في الليالي الناظورية المخيفة.

لم أجد عملا في اليوم الأول، ولم أجد سبيلا للرجوع إلى بوعرك. قررت أن أقضي الليلة على الطريقة التي يقضي بها كل متشرد ليلته. آويت إلى ركن حديقة بدت لي مهجورة. جاءني شبح الخوف يحبو، ويتراقص قدامي. كيف لي أن أفعل ذلك، أنا الذي لم يسبق له أن خاض تجربة كتلك؟ قلت في نفسي: "هذا المبيت الناظوري فصل آخر من فصول حياتي البئيسة"، وتخيلت أن تكون ثمة فصول بؤس أخرى تنتظرني في بقعة من بقاع هذه الدنيا الكبيرة، والتي لا يعلم حدودها إلا الله ورسوله والرجال الكبار.

آويت إلى الركن المهجور، وبقيت متوجسا خائفا، رغم أنني كنت أشجع نفسي بين الفينة والأخرى، وأحاول أن أتصرف كرجل كبير يقدر على قضاء ليلة في العراء. جاءني شبح يقول: "لا تخف أيها الجبان. لا تخف. إن هذه الأمور لن تزيدك إلا قوة وشجاعة وإقداما. الضربة التي لم تقتلك حتما ستقوي ظهرك." لم أتذكر متى استسلمت للنوم، رغم أنني كنت أعتقد أنني لن أنام تلك الليلة من جراء الخوف والفزع اللذين أصاباني.

-2-

كان اليوم الثاني شبيها بأخيه الأول. نفس الرفض، نفس اليأس، ونفس الخوف من المجهول. كيف لي أن أتحمل كل ذلك الركام من الهواجس التي كانت تنتابني وتنهش جثتي الصغيرة؟ آويت إلى نفس الركن، استأنست به. صار كبيت خالتي، وكبيتنا في آيت سعيد. قبل أن أصل إلى الركن المعلوم، وقد شارفت الشمس من المغيب، ارتميت بجثتي على عتبة بيت من البيوت التي كانت تبدو مهجورة هي الأخرى، وصرت ألاعب حقيبتي الترابية التي أحملها نهارا وتحملني ليلا!

شردت لمدة لا أعرف كم كانت. ما أتذكره هو أن سيل الذكريات انهالت علي للمرة المئة، وربما الألف. كم من مرة أستحضر ذكرياتي القليلة والكبيرة في الآن نفسه؟! تذكرت كل شيء تقريبا أثناء تلك البرهة التي شردت فيها؛ أبي المقتول، أمي التي أكلها السرطان وأكلها الوجع، خالتي التي تحملت ويلات العمل مثلها مثل أي رجل، وقاست ويلات رحيل أبيها وأمها وزوجها ورحيل أختها أخيرا، خالتي التي عاشت مع العقم ما عاشت. تذكرت سعيدا، ذاك الجرو الحزين دائما. تذكرت خبز الحسين اليابس، وعدسه العائم في الماء. تذكرت سبه وشتمه وكل شيء قبيح فيه. تذكرت الأشقر الذي أنسْت به في البداية، ثم مقتته في النهاية. تذكرت آيت سعيد؛ الدنيا التي كبرت فيها، وتغذيت فيها على الثرى. كل شيء استحضرته.

رحت أداعب الحقيبة، وأخط أشكالا غريبة على الأرض، وأداعب شعري الأشعث أيضا. قبل أن أهم بالرحيل، والالتحاق بالركن المعهود، وقف عند رأسي رجل. رفعت عيني بثقل. تفحصته. قلت في نفسي: "أي شيء يريده مني هذا الكائن الكبير؟" كان الرجل في الحقيقة كبيرَ البطن والرأس والذراعين والساقين. سرتْ في جسدي قشعريرة، وانتابتني لحظات من الخوف. تأملني جيدا، وتأمل الحقيبة التي احتضنتها بمجرد أن وقعت عيناي عليه، وتأمل أصابع قدمي الأيمن التي تطل من ثقب الحذاء الذي أحدثه المسير والقِدم. تأمل وجهي الذي علقت به أشياء كثيرة؛ مخاط وبقايا مرق وتراب، وآثار الأوساخ التي تراكمت على وجهي منذ يومين أو أكثر؟ تأمل أشياء أخرى، ربما لم أنتبه إليه، وسأل:

- من أين أنت أيها الفتى؟

لامست لطفا شديدا في كلامه، لكنني خشيته. الذين يُبدون اللطافة ولين الكلام يشبهون الكلاب التي تبرز أسنانها حين تريد عظي. أجبته بحذر:

- من مكان قريب من الناظور.

- لا عليك. أأنت جائع؟

- لا، لست جائعا.

كنت في حالة تَفُوقُ الجوع بقليل! لكنني آثرت أن لا أصارحه بالحقيقة. لمس شيئا من الحذر الذي أبديته، وفضل أن لا يضايقني

أكثر، لكنه عرف كل شيء عني، أو على الأقل عرف الكثير، وختم كلامه:

- اسمع يا ولدي إن لم يكن عندك مبيت ولا مأكل ولا مشرب في هذه المدينة، وإن كنت لا تملك أهلا يعتنون بك، فأنا مستعد أن أقدم لك مساعدة.

سألت باهتمام:

- مثل ماذا؟

- غدا في الصباح سأمر من هنا. أريد أن أجدك موجودا لأصطحبك إلى مكان تضمن فيه القليل من العيش. ثق بي، ولا تظنن بي شرا. ثم غادر.

قضيت الليلة بأكملها، وأنا أفكر فيما يقوله الرجل، وخمنت أن يكون فيه خيرا. ثم إنه لا شيء أملكه لأخسره. حتى جسدي لم أكن أملكه. كذلك كان، استفقت باكرا وغادرت الركن. قصدت المكان المعلوم، رغم أنني عانيت الكثير كي أصل إليه. جاءني الرجل، واصطحبني معه إلى حيث أضمن ذلك العيش الذي لم أستسغه لأكثر من شهر، إنه مركز لرعاية الطفولة، أو شيئا شبيها بهذا.

عمي أحمد، أو احميدو كما كان يحلو لكل عمال مركز رعاية الطفولة أن ينادوه، رجل محبوب وخفيف الظل رغم كبر جثته. كل أولائك الشباب والكهول والنساء الذين كانوا يشتغلون بالمركز يحبونه ويقدرونه ويحترمونه. يعانقونه باستمرار، ويسألونه عن حالته الصحية، وعن حال زوجته. كان أكبرهم سنا، وأكثرهم بشاشة. كان يحبني، وينصحني كثيرا، خصوصا حين حكيت له فصولا قليلة، قليلة فقط، من حياتي الصغيرة والبئيسة.

عمي أحمد هو الرجل الوحيد الذي رأيت فيه صفات أبي، وربما كانت تحدثني نفسي أحيانا أنه أفضل من أبي. ذات مرة فكرت في أن أسأل عمي أحمد عن أولاده، لكنني لم أفعل. لست أدري ما الذي جعلني أعدل عن ذلك. عمي أحد هو الرجل الذي اصطحبني من أزقة الناظور الغارقة في البؤس والكآبة إلى أسوار مركز رعاية الطفولة. عمي أحمد هو الذي جعلني أضمن معيشتي لمدة شهر. عمي أحمد هو الرجل الذي أشكره من دواخل قلبي، وأقدره، وأحببت أن أجعله أبا لي. أشكره كثيرا على ما فعله، وما كان يمكن أن يفعله لو بقيت بالمركز، رغم أن المركز لم يرقني.

حين كنت أحكي فصولا من حكايتي لعمي أحمد لم يكن يصدقني، وربما كان، لكنه يشك في أن تكون الحكاية كلها واقعا. كان يحتمل أن

تكون بعض الأمور من اختراعي ومن خيالي. كنت أقول دائما: "يا عمي أحمد، وحق الله، وجاه سيدي النبي، إن ما أقوله حَدَثَ، وحدث لي أنا، هذا المخلوق الصغير الذي يتكور أمامك، ثم إنه لا غرابة يا عمي، فقد يكون هناك من حدث لهم أتعس من هذا، وأشقى."

وكنت أودعه، ويودعني دائما، وأنا شاك في أنه صدقني، واعتقد أن حكايتي حكاية حقيقية يمكن أن تحدث لكائن بشري صغير مثلي، وربما كان يقول في نفسه أيضا أن هؤلاء الصغار يكذبون، ويحاولون استمالة عطف الكبار، وكان، ولا شك، يجد في ذلك تناقضا، فكيف يمكن لطفل صغير مثلي أن ينسج خيوط هذه الحكاية بنفسه؟!

ضجرت في المركز، وأصابني ملل لم يصبني من قبل. صرت أكبُر، وصار صراخ الأطفال بالمركز يصيبني بالغثيان والضجر. قررت أن أرحل. الرحيل صار يلازمني، ويتعقبني، أو ربما أنا الذي صرت أتعقبه. فكرت أن أهرب من المركز، وكذلك فعلت. لم يبق شيء يتعقبني إلا شبح عمي أحمد، الرجل الأب! عمي أحمد الرجل الأب! ولم أعد أتذكر شيئا من لقائي به إلا قصة حكاها لي.

القصة التي حكاها عمي أحمد..

كنت أعرف فيما مضى رجلين يسكنان نفس الدوار الذي أتيت منه للعمل في هذه المدينة. دوارنا نائم بين فجاج جبال الريف الجميلة والبئيسة في الوقت نفسه. إن كنت تعرف البلاد جيدا، فأنا من إِجّرْمَاوْسْ بِبَنِي تَوْزِين. إن كنت لا تعرف، فاكتفِ بمعرفة أن الدوار كان نائيا جدا، نائيا إلى حد أنه نُسي هناك، وتُرك بين الفجاج والوديان كما تترك نعجة عليلة ميؤوس منها في متناول الذئاب، وكذلك هو حال أغلب، إن لم أقل جميع، مداشر الريف.

قلت أنني كنت أعرف رجلين. يمكن أن أقول عنهما أنهما كانا صديقيّ ورفيقيّ، وأنهما من جيلي ومن نفس السن الذي كنت فيه، ولم يكن بالدوار الكثير من الناس حتى لا أكون صديقا لمن هم في سني. كنا قرابة عشرين شابا نلتقي في دكان القرية، ذاك المتنفس الوحيد. لم أكن أعاشرهم كثيرا نظرا لكوني كنت أتابع دراستي الثانوية هنا بالناظور. أنا الشاب الوحيد الذي استطاع أن يفعل تلك المعجزة التي منحت لي بعض الاهتمام من قبل أبناء الدوار وبناته، ومن قبل الشيوخ والكهول والعجائز أيضا. أقرأ الرسائل التي يرسلها أقاربهم من أوروبا، وأحرر أخرى ردا عليهم، وهلم جرا..

ما يهم هو أنه كان من بيننا شابان يكادان لا يتفارقان إلا للخلود إلى النوم. إن كانت تهمك الأسماء، فأحدكم يسمى بَنَّاصَر لكنه كان

معروفا بالأعرج، بسبب عرج في رجله اليمنى التي كانت تعيق حركته كثيرا، والشائع أنه خُلق على تلك الهيئة. والآخر يدعى بعلال إلا أنه كان مشهورا بالأطرش نظرا لطرش أصابه في صغره حين ضربه أبوه لما علم أنه سرق الرمان رفقة أصدقائه الصغار من حقل شيخ كثير الشكوى كان يدعى بالعنيد. هنا، لا أريد أن أفوت فرصة إخبارك أنني لم أكن رفقة علال حين سرق الرمان! على الأرجح كنت في تلك الأيام أدرس في مدرسة ابتدائية بميضار، وهذه بلدة تنتمي إلى الريف أيضا، إن كنت لا تعرفها. لا يسعني الآن إلا أن أدعو لأبيه بالرحمة والمغفرة. ضربه الأب كما يُضرب حمار الرحى حتى أصيب بالطرش من أحد أذنيه. الآن عرفتَ أنه معنا بناصر الأُعرج، وعلال الأطرش. وعلمت أنهما لم يكونا يتفارقان إلا للخلود إلى النوم.

كان بناصر وعلال يدخنان الكيف من نفس السَّبْسِيِّ ومن نفس لَفَّة الكِيفِ، بل كانا يشتركان في شراء واحدة فيما بينهما لقلة ذات اليد. أطلقا لحيتيهما وشواربهما إلى حد لم يكن الواحد منهما يدخل لقمته إلى فمه بسهولة! كان بناصر بمثابة أخ لعلال.

ذات يوم جاءهم عبد السلام (ينطق في الريف: عْبَسْرَامْ)، وعبسرام هذا رفيق من الرفاق كان يشتغل بين الفينة والأخرى مع بحّار كهل من تَمْسَمَانْ، فكان يحدث أن يغيب أياما دون أن يرد الدوار، تماما كما كنت أفعل أنا. كان عبسرام يعمل مع البحّار الكهل في صيد الأسماك

في قارب تقليدي، وكانت أمه دائما تقول للنساء الأخريات أن عْبَسْرَامُهَا، الذي لم تلد غيره، نظرا لموت أكثر من ستة ذكور وثلاث إناث كانت قد أنجبتهم في الفترة الممتدة بين بداية الستينيات ونهاية السبعينيات، لن يطول عمره إن بقي يعمل في البحر. هذا أمر سيعمق جراح خالتي فطوش التي كانت سحابات الحزن لا تفارق محياها، إلا أن أمر موت عبسرام رفقة البحّار الكهل أمر لم يحدث البتة، إلا أنه حدث ما هو شبيه بذلك.

قال عبسرام لبناصر وعلال أنه يعرف شخصا يمكنه أن يصطحبهم رفقته في قارب يهرب على متنه الحَشِيشَ إلى إسبانيا، وقال أنه لن يطلب منهما مالا. كل ما هنالك هو أن يكونا رفقته ليؤنسوه ويساعدوه في عرض البحر إن حدثت لهم حادثة ما. تحمس علال للفكرة كثيرا، إلا أن بناصر فكر في رجله الأعرج، وأدرك أنه لن يستطيع أن يخوض معهما هذه المغامرة وإن كانت مغرية. إلا أن علالا شجع رفيق دربه وجليسه الذي لا يفارقه، وحاول أن يقنعه بما يمكن أن يحصل إن هما قطعا البحر ووصلا إلى بلاد الخير والنعمة. أضاف علال بقوله: "ماذا عسانا نفعل هنا؟ يا بناصر، أن نموت في البحر، وتلتهمنا الحيتان خير من أن نبقى على اليابسة ينهشنا الدود على مهل."

في الحقيقة، فكر بناصر كثيرا في الأمر، وأدرك أنه سيشتاق إلى لفة الكيف، وإلى السبسي، وإلى جلسات الدكان، خصوصا جلسات

الشتاء. وذكّر بناصر بأحاديث حدو، صاحب الدكان، التي لا تنضب، وذكّره بأقاصيصه وحكاياته الغرائبية، إلا أن علالا اعتبر كل تلك الأمور تافهة لا ترقى إلى المستوى الذي سيجعلهما يتخليان عن فرصة كتلك، وزاد الأمر حماسة عبسرام، الذي أغراه بما يمكن أن يحصل عليه من تحسين لأوضاعه إن هو خاض معهما تلك التجربة التي أتت دون سابق إنذار.

بعد ثلاثة أيام، اقتنع بناصر الأعرج ذو الثلاثة والثلاثين خريفا بالفكرة، وقرر أخيرا أن يخوض معهما هذه التجربة، وليكن ما يكن. وقد اتفق مع صديقه الأطرش أن يساعده في المشي إن هما تعرضا لمكروه. وأعطاه الأطرش ذلك الوعد.

في ظلام ليل فَبْرَايِريّ جمع علال وبناصر وعبسرام ما يمكن جمعه من اللباس والزاد والقليل من المال الذي زودهم به كل من الأمهات والآباء. في الحقيقة، بكت خالتي فطوش كثيرا على عبسرام واعتبرت ذهابه ذاك بمثابة رحيل أبدي لابنها الوحيد الذي نجا من العشرة. أما والدتا كل من بناصر وعلال، فلم تذرفا دمعة واحدة على رحيل الابنين. لا لشيء، فقط لأنهما تتفاءلان أكثر مما تتشاءمان من رحلة ابنيهما، ونظرا إلى أنهما أنجبتا أكثر من عشرة أبناء لكل واحدة، ونجوا كلهم، على عكس خالتي فطوش، وكلهم يعيشون في الدوار دون عمل ولا مال ولا زواج.

قصد الثلاثة شاطئ سيذي ادريس بتمسمان، والتقوا مع الرجل الذي لم يكن وحيدا بل كان رفقته رجلان آخران قال أنه سيرافقانهم في الرحلة أيضا. خاضوا التجربة التي استعدوا لها أكثر من شهر كامل.

حين كانوا قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى بر إسبانيا، هاج البحر، وخيب ظن الرجل الذي كان يقود القارب، والذي خطط كثيرا وضرب ألف حساب وحساب، وقال أن البحر هادئ خلال تلك الأيام، ولن تكون رحلتهم بتلك الصعوبة التي يمكن أن يتخيلوها. عانوا كثيرا مع صفعات الأمواج، وعانقوا مياه المتوسط وشربوا منها حتى ارتووا. في الأخير، وحسب ما حكاه بناصر الأعرج، فقدوا صديقي سائق القارب وفقدوا عبسرام، الرجل الذي كان سببا في كل تلك الملحمة. أما السائق، فقد سبح ونجا بنفسه ولم يلتفت إلى الوراء إطلاقا. في الأخير، حدث شيء صعب التصديق، وجد بناصر نفسه ملقى على ضفاف المتوسط من الجهة الرُّومِيَّة، وللصدفة الغريبة، والغريبة جدا، فقد وجد صديقه علال الأطرش ملقى هو الآخر غير بعيد عنه. عانقا بعضهما البعض، وبكا كثيرا عما أصابهما، وبكا كثيرا على ظنهما بفقدان عبسرام الذي ستبكي عنه أمه كثيرا.

حين عزما على المضي قدما، والاتجاه نحو أي قرية أو مدينة أو بلدة يمكن أن يشمَّا فيها رائحة الحياة، طاردهما رجال كانوا على الأرجح من حراس الحدود. هنا سيحنث الأطرش بعهده، ولن يساعد بناصر الأعرج

على الهروب هو الآخر، مما أدى به إلى إرجاعه إلى دواره ليعانق البؤس مرة أخرى وللأبد ربما. ويعود إلى دكان حدو وسبسبه، الذي واراه خلف فرن أمه الطيني قبل أن يرحل. أما علال فقد نجا من قبضتهم إلا أنه، على الأرجح، لم يتمكن من الوصول إلى مكان يجعله يستمر في الحياة. قيل أنه تاه في غابة أكثر من تسعين يوما، وصار يقتات على الأعشاب، وكل ما يجده في طريقه إلى أن عثر عليه أحد الصيادين الذي اقتاده إلى مركز للرعاية في ضواحي الغابة جنوب إسبانيا.

عاد علال هو الآخر إلى دواره إلا أنه عاد مجنونا، فاقدا لعقله، لا يعي ما يقوله، ولا يفهم كثيرا مما يقال له. شاع في الدوار أنه كان ذلك عقابا له على عدم مساعدة صديقه الأعرج، وقيل أن الله هو الذي يقدر على الإنسان ما يشاء.

مضت قرابة خمس سنوات، ولم يظهر لعبسرام أي أثر. في تلك السنين، مات حدو صاحب الدكان الذي لم يخلف وراءه أحدا إلا زوجه العجوز، مما اضطرت لبيع الدكان، وشاءت الأقدار أن يشتري الدكان أبو بناصر، وكلف ابنه الأعرج بالبيع والشراء لأنه لا يصلح لشيء، على عكس إخوته الذين كانوا يساعدون أباهم في فلح الأرض، وزرعها، وحرثها، وحصاد المحصول، ودرسه.

قيل لي أن علالا الأطرش كان يقصد بناصر ليطلب منه سيجارة رخيصة كل يوم تقريبا، وكان بناصر يمنحه السيجارة، دون علم أبيه،

ويشعلها له بنفسه. حكى لي أحد أبناء الدوار أنه صادف علالا مرات كثيرة، وهو يبكي بعدما يمنحه بناصر السيجارة، ويشعلها له. أما بناصر فكان يمنحه السيجارة، ويتأمله، وينظر فيه نظرة إشفاق على رفيق درب خسره، ولو كان حيا.

إلى الأقمار الثلاثة..

رواية عزيز

تصعب البدايات. تهون النهايات. اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، تقول الأمهات. إذن، قد لا تهون النهايات، وقد لا تكون هناك نهايات أصلا، وقد لا توجد ثمة أيضا بدايات. هذا الطفل الماثل بين ظهرانيكم، أو الجرو الضال بالأحرى، كانت، ولا شك، لحياته بداية وربما بدايات. قد تكون صعبة كما هو شائع، وقد لا تكون. قد يكون ما بعد بدايته صعبا، وربما ليس صعبا، بل وصفا آخر يفوق الصعوبة.

قد تكون بداياته سهلة، سهلة جدا. سهلة إلى درجة أنها قد تكون أيسر من ولادة بيضة أو خفاش أو فأر منسي خلف أكوام من أكياس التبن. عاش سنين على الخواء، ثم ماذا ؟ ثم صار قطا يقتات على كل شيء. خالد لن ينته. لن تكون له نهايات. حتما سيظل يطاردكم كما يطارد الصبيان أسراب الفراشات!!

ها قد بلغت نهاية المخطوطة، ها أنذا أجد أن خالدا منح هذا الجزء عنوانا يمثل نقيض ما منحه للجزء الأول، إلا أن ثمة فرق شاسع بينهما من حيث الحجم. الجزء الأول يشكل أغلب المخطوطة، أما هذا، فلا يعدو أن يكون قطعة صغيرة من الأول. لست أدري لم؟ ربما ثمة ما يبرره. هذا سؤال طرحته، ولم أجد له جوابا شافيا، خمنت أن يكون للأمر علاقة بما حكاه، وبما تضمنه كل جزء وفصل.

خالد هذا صار ابنا لي، أو أخا. صرت أعيشه وأعيش حياته، ودنو مماته، أكثر مما أعيش حياتي. بديعة هي الأخرى أحست نفس الإحساس. تلك الشخوص التي تحدث عنها، صرت أجالسها وأحادثها وأسائلها. أصنع لكل منها وجها مغايرا للآخر، وأبني لها في خيالاتي ودماغي قوائم وأنوفا ووجوها ورؤوسا..

تساءلت في نفسي أكثر من مرة: "هل لي أن ألتقي خالدا هذا؟" وكنت أرتب في داخلتي أسرابا من الأسئلة التي سأمطره بها، عساي أفك طلاسيم الكثير مما وجدته في مخطوطته، وأزيل الغبار عما استعصى علي فهمه وإيجاد تبريراته. خالد هذا صار لغزا وسيظل. أقرأ له ما كتب. أترجم، ويزيد لغزه ضبابية، ويزيد ركام الأسئلة التي تنهال علي تزايدا. خالد ابني، خالد ابن الكل، لكنه قد لا يكون ابن أحد.

اليوم، بديعة أنجبت، بعد الأقمار الثلاثة، شمسا! انشرح لها صدرها كثيرا. سألتها لحظات بعد الوضع: "كيف ستسمينها يا بديعتي؟" فكرت للحظة وقالت بصوت امتزج فيه الفرح بالقلق بالأسى بالوجع بالوجل: "أي اسم يجمع شتات أسماء الثلاثة الذين رحلوا يا عزيزي."

الفصل الثاني
النُّور

مليلية..

-1-

أجلس القرفصاء على كرسي اسمنتي نائم على الرصيف، لم يكن ببيتنا في آيت سعيد سقف أو أرضية إسمنتية، عدا المرحاض. في بيت خالتي سعيدة، كانت الأرضية مبلطة بإسمنت رخيص. قبالتي حانة أليخاندرو. كثير من الأرجل والسيقان العارية تمر قدامي، وكثير من النساء ذوات الشعر الأشقر تتبختر على الرصيف. بعض الأجساد الخارجة من الحانة تتمايل كصفصافات حقل الطماطم الذي يسيج بيت خالتي في بوعرك. وحيد بعد ما تفرق الرفاق الذين استطعت أن أتسلل رفقتهم إلى هذه المدينة التي قال لي عنها أحدهم أنها لا تشبه مَغْرِبَنَا. فكرت لحظتئذ: "وما المغرب؟ أهو بوعرك، وما فيه من حقول الطماطم والعنب، وما فيه من أشجار الزيتون، وما فيه من بؤس وعذاب وتعب؟ أم هو دوارنا بآيت سعيد، وما فيه من عناد الحاج قدور وهمجية شيخ القبيلة؟ أحتى كرسيف التي جاءت منها أمي وخالتي سعيدة مغرب؟ أم هو تلك الوجدة التي عذبتني؟ أم هو كل هذه الأماكن والأشياء؟ وربما أكثر؟"

تأملت السيقان العارية، والعيون الزرق، وشقراوات الشعر. كن يلبسن ألبسة ملونة بألوان زاهية وغريبة. تذكرت جلباب أمي المائل إلى الأزرق الباهت، وتذكرت شالها المزركش الذي كانت ترتديه يوم رحلنا من آيت سعيد. تذكرت أن الشال لم تشتره، ولم يشتره أبي. خالتي منانة هي التي منحته لها ذات يوم. أتذكر أنها لم تعطيها الشال لترتديه، بل لتضع فيه الخبز الأبيض الذي جادت به عليها، وأتذكر مطر يومئذ. أتذكر أمي تتقافز بين الحفر المملوءة بالمياه العكرة، وأنا أتقافز وراءها كضفدع لا يحسن القفز بعد. سمعت خالتي منانة تقول من عتبة بابها بصوت جهوري:

- خذي حتى الشال يا غالية. لا تُرجعيه.

تلتفت أمي بالتفاتة خفيفة إلى الوراء، لا تقول لها شيئا، لكنها تنهرني قائلة:

- أسرع أكثر أيها المشؤوم، المطر سيبللك.

وتضيف، وهي تستمر في القفز مرة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار:

- إن ابتللت فلن تجد غير ذلك اللباس الذي ترتديه الآن.

أعمل بنصيحتها، فألتصق بها؛ خطوة بخطوة.

النساء الشقراوات كن يحملن حقائب مغرية أيضا. لم تكن عند أمي حقيبة كتلك. كانت، حين تزور امرأة ما في الدوار، أو في دواوير مجاورة، تحمل كيسا كبيرا بلاستيكيا مخططا بالأحمر والأبيض. وكان

يحدث أحيانا كثيرة، حين كان حجمي لا يتجاوز حجم جرة ماء طينية، أن أعود معها راكبا الكيس الذي يعتلي ظهرها!

لا شيء أملكه بمليلية. حقيبة الثياب تركتها بمركز رعاية الطفولة بالناظور. نقودي التي وفرتها من خدمة وجدة، ومما أعطته لي خالتي، صرفتها كلها تقريبا. تذكرت نقود وجدة، فأدركت أنني نسيت أن أسأل خالتي عما إن كان الحسين السافل قد أعطى لأمي تلك النقود التي كان يزعم أنه يرسلها إليها. نسيت!

لكن من يدري، فقد يكون الحسين أرسل النقود إلى أمي، وربما استولت عليها خالتي بعد موتها. لم لا تكون الخمسون درهما التي جادت بها علي من نقودي؟ لم لا يكون هذا الاحتمال واردا؟

لم أصطحب معي شيئا إلى تلك المليلية عدا مخيلتي التي كانت تعج بأسراب من الذكريات المشحونة بالبؤس والوجع، وكثير من قصص الفقر والشحوب والدم والصديد! أحداث كل ما مضى تنهال علي دفعة واحدة كما تسقط الجلاميد في بحيرة من ماء. كانت تتساقط علي تباعا كندف ثلج بارد أيضا. لا شيء يسليني، ولا شيء يواسيني.

الجو هادئ ومشمس. الشمس تتوسط السماء، وتميل نوعا ما نحو المغيب. الشقراوات ما زلن يتدفقن كجدول ماء، وركام من الأجساد الآدمية لاتزال تلج الحانة، وتغادرها. ألتصق بالمقعد أكثر، وأعد أعداد الطيور التي تحلق فوق سماء المدينة، وأعد عدد لبنات الرصيف المقابل لي

إلى أن تبدو لي متلاصقة لا يمكن عدها. على وجه السماء سحابات قليلة. أتأملها، وأحاول جمع شتاتها لأشكل منها أشكالا كثيرة؛ حمار بدون قوائم، أو سرب طيور بيضاء بأجنحة غير مكتملة، أو أي مخلوق غريب آخر. في واجهة الحانة ، تبدو قناني المشروب المدوّخ بوضوح. أشكال جميلة وألوان المشروب مختلفة، باهت وفاقع.

-2-

تسللت هربا من مركز رعاية الطفولة، وتشردت أياما وربما شهورا رفقة أطفال في سني أو أكبر أو أصغر مني بقليل. قصدنا بني انصار لنتسلل إلى مليلية. في مليلية سنعيش أفضل، ومليلية أفضل من المغرب، هكذا قال ذاك الرفيق. لم يكن يهمني أن تكون مليلية تلك أفضل أو أن لا تكون، ما يهم هو أن أستطيع كسب رفاق، وصحبة تقيني من أشياء قد تخطر على بال أي واحد منكم. فقدت أبي وأمي، ولم يبق إلا خيط رقيق جدا قد يتمزق في أي لحظة، تلك خالتي سعيدة التي قالت لي حين خلفتها ورائي هي وجروها الصغير: " لا تنس يا خالد أن تزور خالتك بين الفينة والأخرى."

قد أنسى يا خالة، وقد أتناسى، وقد تنسيني أشياء كثيرة، وأنت تعرفين هذه الأمور، لأنك أكبر مني. الدنيا بوتقة بؤس أسكنها أو سحابة سوداء تخيم على سمائي. كل شيء يمكن أن يحدث. يمكن أن لا أرجع إليك. يمكن أن تموتي قريبا، وقد أموت أنا بدلا منك، وقد أفعل أشياء لم أكن أفكر فيها من قبل، ولم تكن تخطر ببالك وبال أمي. قد أسرق يا خالة، وقد أقتل من أجل أن أُسكت معدتي، أو من أجل أن أدافع عن نفسي. يمكن أن أفعل أشياء قبيحة أخرى لا يمكنني أن أذكرها هنا.

ترى ماذا تفعل خالتي الآن؟ هل تطعم دجاجاتها وأرانبها، إن بقيت في حوشها أرانب؟ أتسقي حقلها بما فيه من النعنع والفلفل والبازلاء والفول؟ أم أنها الآن تعد غذاء لها ولابنها؟ وأين سعيد الآن؟ على الأرجح سيكون قاعدا على واحد من تلك المقاعد المدرسية. وغالبا أنه ينصت لما يتفوه به معلمه من كلام باهتمام، لكنه على الأرجح لن يكون إلا شاردا يفكر فيما ستعده أمه للغذاء، وفي أي نوع من اللُّعب سيلعبها مع رفاقه بعد خروجهم. سعيد كان كومة لحم جالسة في القسم، ومثله كنت، وربما أكثر. لا أحد منا كان يعلم ما يقوله المدرس، إلا بعض الكلمات التي كان يكثر التفوه بها أو يطلب منا تكرارها مرات كقوله: "انتباه، هدوء. اسكت أيها ال... الحمد لله رب العالمين. أيام الأسبوع سبعة وهي، واحد، اثنان، ثلاثة..."

الحافلة التي امتطيتها يا خالة لا أحسبها ستعيدني. حتما ستسير بي إلى ما لا يخطر ببالك. دهاليز الحياة المظلمة ما زالت تتبدى أمامي كجبال من السحاب الأسود. أتمنى أن تتذكري أختك كل مرة. أتمنى أن تزوري قبرها كلما سمح الوقت بذلك. أتمنى أن تشعلي، من أجلها، شموعا في ضريح سيدي صالح، شموعا كثيرة يا خالة، كثيرة كي تنير حياة أمي الأخرى!

أنْثُري قطع الحلوى والعلك على رؤوس الصبيان من أجلها يا خالة. افعلي كما كانت دائما تفعل خالتي الحاجة منانة في آيت سعيد من

أجل زوجها وأمها وأبيها. وانثري المزيد من حبوب الشعير لدجاجاتك من أجلك، ومن أجل ابنك سعيد. اخدمي خالتك الحاجة فاضمة بتفان من أجلكما أيضا.

خالتي الحاجة منانة كانت تعد لها أمي الكثير من الكسكس والدجاج المطهي في المرق لتطعم به صبيان القرية من أجل أمواتها هي. افعلي ذلك من أجل أختك الوحيدة، ومن أجل أبيك وأمك المنسيين وزوجك الراحل. افعلي يا خالة.

-3-

ثمة شيء يجب أن أقوله، وربما هي أشياء كثيرة. لا يهم، ما يهم هو أنني لم أعد أتقيأ حين أركب سيارة أو حافلة أو ما شابه ذلك، وهذا حتما سيسعد أمي لو كانت حية. وسيسعدها وهي ميتة أيضا. هل تراها تعلم بمكاني الآن؟ هل يعلم الأموات بأفعال ذويهم الذين تركوهم خلفهم؟ لست أدري، ولا أحد يدري إلا الله وسيدي النبي. لا أحد يدري حتى ولو كان كبيرا.

لم أعد أتبول في سروالي، وأنا نائم أو حين يضربني أحد. لقد صرت أكبر على مثل هذا الفعل، وهذا يسعد أمي، وخالتي سعيدة التي كنت ألوث لها فراشها بين الفينة والأخرى. لكنني بالمقابل، صرت أبول في جنبات الشوارع والأزقة، وعلى عتبات وواجهات المنازل والمحلات المهجورة! إنه فعل لن تقبل به أمي التي ظلت طول حياتها تطبخ لي رأسي بلازمة الأدب والتهذب. لو كانت حية، وعرفت ما يجعلني أفعل ذلك لعذرتني. حتى المراحيض التي تسمح لي بقضاء حاجتي قليلة بهذه المدن، والمراحيض التي يُسمح لي بدخولها تستوجب مني الدراهم يا أمي. أما مراحيض المقاهي والمطاعم فهي للزبائن والمرتادين، وليست للصغار التافهين المزعجين والمتشردين أمثالي، هكذا عوى في وجهي أكثر من مرة، وأكثر من نادل وقهوجي وصاحب مقهى ومطعم.

لكنني صرت الآن أستطيع أن أعتني بنفسي دون أن أحتاج إلى أحد. يمكنني أن أدبر أمر فطوري وغذائي وعشائي. لم أعد في حاجة إلى أبي وأمي وخالتي سعيدة، ولم أعد في حاجة إلى الحاج عبد الرحمن وابنه الحسين. يمكنني أن أعيش حياتي دون أن يساعدني على ذلك أحد. لقد صرت أكبر قليلا مما كنت عليه من قبل، وأصبح لي رفاق وأصدقاء أفضل وأشجع وأذكى بكثير من الطفل الأشقر ومن ابن خالتي، وأفضل من كل طفل عرفته من قبل. إنهم رفاق يستطيعون أن يفعلوا ما يفعله الكبار وربما أكثر. إنهم كبار بما فيه الكفاية لينافسوا أولائك الكبار الذين كنت أحسبهم عارفين لكل شيء، وقادرين على كل شيء. رفاقي صاروا كبارا بما يفي بالغرض!

رفقة هؤلاء الأطفال الكبار أو الرجال الصغار تسللت إلى مليلية.

في ركن من أركان بني انصار النتنة كنا نقتعد كراتين. بعضنا يدخن نصف سيجارة عثر عليها على الرصيف أو على قارعة الطريق، والبعض الآخر كان يقضم أظافره ويلهو بالحفر على سطح الأرض. قال رشيد، الطفل الأطول والأنحف، رأسه يشبه بطيخة، وقدماه تتحركان بفوضوية حين كان يهرول فارا من شخص ما يريد الإمساك به. قال مشيرا إلى جهة سيارة:

– ترون تلك السيارة.

– أي سيارة؟ قال الطفل الأحول.

قيل لنا أن أباه هو من ضربه حتى أصابه بالحول، ثم هرب ولم يعد إلى البيت منذ ذلك الوقت.

- تلك السيارة الرمادية أيها الأعور. أنت دائما تسألني أكثر من الآخرين. كن معنا منتبها أو انصرف عنا.

تقوقع الأحول في جسمه كحلزون، وتابع رشيد يقول:

- حين يغفل صاحبها. ألا ترونه؟ ذاك الرجل. صاحب المؤخرة الكبيرة. لو نعثر على تلك المؤخرة لنشويها، حتما ستكفينا لأيام!

قهقه أغلبنا، وتابع يقول:

- حين يغفل سنركب في الصندوق الخلفي.

- وإن لم يغفل؟

اكتفى رشيد بالخزر، وتقطيب الجبين.

- هب أنه غفل، ماذا لو وجَدَنَا هناك حين يرجع؟

- لن يرفع الصندوق ثانية. أنا أعرفه جيدا. إنه يهرب الروج والمالبورو من مليلية، وأعرف لمن يبيع ذلك أيضا، وأعرف أين يسكن، وكم عنده من الأولاد، وأعرف حتى امرأته. بالمناسبة، حتى هي، تمتلك مؤخرة ضخمة!

قال الأحول ثانية:

- وإن لم يترك الصندوق مفتوحا؟

- تفوووووو.. ألا تكففنّ عن طرح كل هذه الأسئلة. أنا أعرف الرجل كما أعرف شيئي يا أولاد الكلبات الجرباوات. تفو.. أنتم اسمعوا ما سأقوله، ونفذوه وكفى. سننجح في التسلل، سننجح وكفى.

استمررنا في التدخين، والشم، وقضم الأظافر والنظر في الرائحين والغادين، وصمتنا صمتا رهيبا حتى حان الموعد الذي فعلنا فيه ما كان يمليه علينا رشيد.

-4-

حين نجحنا في التسلل تماما مثل ما يفعل الكثير من الأطفال البؤساء والمشردين، اتفق معنا الطفل الأطول والأنحف على أن نفترق. كل يأخذ طريقه. قال:

- لا طاقة لي على تحمل أمثالكم طول حياتي. يكفي أنني جعلتكم تتسللون، وإلا كان علي أن أترككم في بني انصار تأكلون فتات الخبز اليابس، وتتسولون أنصاف أسماك السردين على عتبات المطاعم، وتشربون من حنفيات المراحيض النتنة إن سُمح لكم بدخولها.

كذلك فعلت. لا شيء عندي أخسره. أفترق عنهم أو لا أفترق، الأمران سيان. المهم هو أنني تسللت، والمهم هو أن أجد لنفسي في هذه المدينة الرومية مأكلا ومشربا ومبيتا جيدا.

ظللت جالسا على الكرسي الإسمتني مقرفصا تارة، ومسندا رأسي على الحاشية تارة، وممددا رجلي تارة أخرى. المارون كثر. لا يمكنني أن أعدهم. كنت أفعل ذلك في بوعرك حين أقتعد حاشية الساقية. أعد عدد السيارات التي تمر على الطريق الإسفلتي. الطرق الإسفلتية كانت تستهويني. طول السنين التي قضيتها في آيت سعيد لم أكن أرى واحدا منها.

لم أتسكع في مليلية، ولا يوما واحدا. كانت المكانَ الذي حالفني فيه الحظ للمرة الأولى في حياتي التي دامت إلى تلك الفترة خمس عشرة سنة. إنها فُتحة النور التي كانت تتبدى لي من بعيد.

كنت أتسلى بإخراج المخاط من أنفي، وأستمع إلى أنين معدتي التي لم تذق الطعام منذ ساعات، حين وقف عل رأسي رجل بدين نوعا ما؛ لباسه أنيق ومهاب، حذاؤه ملمع للدرجة التي أستطيع أن أرى على سطحه الغبار الذي علق بشعري الأشعث. تبدو عليه آثار النعمة، وهذا ما أعجبني فيه. حين وقف تلك الوقفة، تذكرت عمي أحمد، الحارس بمركز رعاية الطفولة بالناظور، نفس الوقفة، ونفس المشهد، ونفس الإحساس. أطال الله في عمرك يا عمي أحمد. كم أنت رحيم مشفق رؤوف عطوف! رفعت رأسي بثقل لأتفحص محيا الواقف. لم يعد يخيفني شيء، لص، أو متشرد، أو شرطي، أو مغتصِب، أو نشال، لا يهم. حدثني بكلمات لم أفهم منها شيئا. ربما كررها مرات عديدة، لكنني لم ألتقط مما كان يتفوه به شيئا. فهم الأمر، فسألني بإشارة إن كنت أريد أكلا. أوليس ذاك ما أبغيه؟ أغلب الناس حين يجدون شريدا أو عابرا يسألونه ما إن كان في حاجة لأكل. في آيت سعيد كما في بوعرك، كانت خالتي الحاجة منانة والحاجة فاضمة وخالتي سعيدة أيضا رغم فقرها، يطعمن عابري السبيل والمتسولين الذي يجوبون الدواوير بحثا عن لقم الخبز. لكن في مليلية؟ في مليلية يسألني رجل ما إن كنت

في حاجة إلى أكل؟ لا شك أن وراء ذلك قصدا. لم يكن يهمني أن يفعل بي الرجل ما يشاء. ما كان يهمني أكثر هو أن أُسكت أنين المعدة الباكية دون أن تذرف دموعا.

ساقني الرجل، بعد أن وافقت على مصاحبته، إلى بناء مشيد بإتقان، سأعرف فيما بعد أنه كنيسة، أو أنه مسجد للنصارى، أو الروميين كما كانت النساء والرجال يسمونهم في الريف. كان الرجل، الذي اقتادني معه، وأطعمني، وسقاني حتى شبعت وارتويت. مثل الفقيه السي علال وسي التُّهامي في بوعرك، كان الرجل البدين فقيها للروميين! اسمه لم أحفظه إلا بعد أن مر علي في الكنيسة أياما. كان اسمه سنيور خوان فابريغاس. فيما بعد، سأعلم أن كلمة "سنيور" تعني السيد. أي تعني عندنا "السي" كما في كلمة "السي علال"!

في رحاب تلك الكنيسة ذات النقوش الجميلة والجدران العالية، هناك سأعرف وسائل معرفة النور، ومن هناك سأخرج إلى النور.

تعلمت خلال تلك السنين والشهور لغة الإسبان. إنه شيء كان ينقصني. من قبل، كانت أمي تقول لخالتي سعيدة أن الرجال رجال تعلموا أم لم يفعلوا، وكانت خالتي تقول العكس. أكانت خالتي تدرك قيمة القراءة والكتابة رغم أنها لم تكن تعرف عنهما شيئا؟! في الكنيسة، سأتعلم الإسبانية رفقة أطفال آخرين مغاربة وإسبان، لكنهم كانوا، على

كل حال، أصغر مني بكثير. كنت أتوق إلى الأكثر كلما تعلمت حرفا من تلك الحروف.

تعلمت الإسبانية التى استطعت أن أكتب بها هذه الأسطر. تعلمتها إلى الدرجة التي جعلتني أتوق إلى معرفة العربية التي كان يعلمها لنا الفقيه السي علال، ومعلمنا في بوعرك. ما كنت أتذكره مما تعلمته من كليهما لم يكن يجعلني أعرف كتابة اسمي حتى. تُقْتُ إلى معرفة المزيد من لغة القرآن الذي كنت أحفظ منه سورة الحمد لله، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الناس، وكنت أخطئ كثيرا في قل أعوذ برب الفلق!

سألني سينيور خوان ذات يوم:

- ماذا تعرف من القرآن؟

أجبته بصدق، رغم أنني كنت أدرك آنذاك أن الدين الذي يدين به، ويعلمه لنا يختلف عن دين أمي وأبي وخالتي سعيدة. الصلاة التي كانت تؤديها أمي وخالتي لم تكن تشبه صلاة خوان. أجبته أنني أعرف الحمد وقل هو و... طلب مني أن أقرأها. فعلت. كنت أخطئ بين الفينة والأخرى، وكان يصوب أخطائي. تعجبت من كونه يعرف القرآن. أمي لم تكن تتقن قراءة الفاتحة حتى. تساءلت: "أيكون السي علال والسي التهامي يعرفان قرآن الروميين؟! ذاك الكتاب الذي كان يعلمنا منه خوان شيئا فشيئا." لم أكن أعير لما كان يعلمنا عن دينه اهتماما، وكان

يدرك ذلك، لكنه رغم ذلك، ظل مستمسكا بي، ومحاولا معي أن يعلمني صلاته. تعلمتها، وكنت أؤديها معه رفقة الأطفال الآخرين. وكان يحاول جاهدا أن يعلمني ويجعلني أن أحفظ آيات من كتابه، وقد فعلت. لكنني ظللت أتوق إلى صلاة أمي وخالتي سعيدة. شعرت بالغربة تجاه ما كان يعلمني. ظللت أحن إلى صوت السي علال، وهو يصدح بالأذان، وبصوته الشجي، وهو يؤم الحاج سعيذ وابنه عبد الرحمن والحاج أحمد في آيت سعيد. وحننت إلى صوت الصبيان الذي يُسمع من بعيد، وهم يرددون جماعة سورة الحمد لله رب العالمين.

بقيت في الكنيسة أذعن لرغبات خوان لشيئين: لأضمن لنفسي خبزا وأكلا لذيذا محترما ومبيتا في فراش ودثار لائق، ولأتعلم الإسبانية التي جعلتني أقرأ وأفهم وأكتب ما أريد أن أكتبه.

حفظت آيات كثيرة مما كان خوان يملي علينا حفظها. حفظت: "طوبى للذي غفر إثمه وسترت خطيته، طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية، ولا في روحه غش" و حفظت أيضا "ولكني أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، وأحسنوا إلى مبغضيكم، وباركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل المسيئين إليكُم. من ضربك على خدك، فحول له الآخر. ومن أخذ رداءك، فلا تمنع عنه ثوبك. ومن طلب منك شيئا فأعطه، ومن أخذ ما هو لك فلا تطالبه به. وعاملوا الناس مثلما تريدون أن يعاملوكم." أتذكر أيضا: "فإن أحببتم من يحبونكم، فأي فضل لكم؟ لأن الخاطئين

أنفسهم يحبون من يحبونهم. وإن أحسنتم إلى المحسنين إليكم فأي فضل لكم؟ لأن الخاطئين أنفسهم يعملون هذا. وإن أقرضتم من ترجون أن تستردوا منهم قرضكم، فأي فضل لكم؟ لأن الخاطئين أنفسهم يقرضون الخاطئين ليستردّوا قرضهم. ولكن أحبّوا أعداءكم، أحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئا، فيكون أجركم عظيما، وتكونوا أبناء الله العلي، لأنّه ينعم على ناكري الجميل والأشرار. كونوا رحماء كما أنّ الله أباكم رحيم."

علمنا مبادئ دينه أيضا، وعلمنا صلاة الشكر، وحفظنا "أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، أُعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر أيضا لمن أخطأ وأساء إلينا، ولا تدخلنا في التجربة، ولكن نجنا من الشرير، لأن لك الملك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور. آمين"

قال لي ذات يوم أحدُ الأطفال الذي أمضى وقتا طويلا رفقة خوان هامسا:

- خالد، إن خوان لا يعلمك، أنت بالخصوص، كل شيء في دينه. إنه يعلم لك إلا ما يبدو لك جميلا. ثمة أشياء ستعلمها حين ستتطيل هنا.

أعجبني نصح الطفل، لكني قلت في نفسي: "فليعلمني ما يشاء. أنا لن ألبث معه طويلا. أنا كبير بما فيه الكفاية لأفهم هذه الأمور. سآخذ الإسبانية التي أعجبني، وسأطرح كل ما بقي عند عتبة باب هذه الكنيسة حين سأعزم على الرحيل."

كلمة أخيرة..

هذه المذكرات كتبتها نصف سنة بعد الخروج من مليلية، والهروب من كنيسة سنيور خوان فابريغاس. كتبتها في رحاب مسجد قروي عتيق بإحدى دواوير بني ورياغل، ضواحي بلدة آيت عبد الله. كتبتها وكأنني أكتبها في الحين الذي حدثت فيه تقريبا. كتبتها لأحس قدر ما استطعت أنني أعيش تلك اللحظة. في الشهور التي كتبتها، كنت قد تعلمت حروف العربية، وصرت أكتب بها شيئا ما. وكنت قد حفظت حزبي "سبح" و"عم" من القرآن. كنت بين الفينة والأخرى أرتاد بعض مكتبات مدينة الحسيمة لشراء قصص وكتب باللغة الإسبانية لأعود بها إلى المسجد لقراءتها وتعلم العربية وحفظ القرآن. السي عبد القادر كان فقيها رائعا. كان كريما وشجاعا ورزينا. وقور إلى الحد الذي كنت أخشاه رغم عمري الذي فاق الخمس عشرة سنة.

وها أنذا الآن أتخلص مما خططته من يوميات حياتي القبلية، لكن دون أن تتخلص منها ذاكرتي. خشيت أن يعثر على هذه الومضات معلمي الفقيه السي عبد القادر. ذات يوم، فغر فاه وتمطط وتعجب لَمَّا ضبط بحوزتي كتبا إسبانية، وسألني عن قدرتي على قراءتها، فأجبته بالإيجاب.

خشيت أيضا أن يسألني عما كُتب بداخل دفتري، وقد يفعل أكثر من ذلك؛ قد يضطر إلى حملها إلى من يتوسم فيه معرفة الإسبانية ليشرح ما كُتب هناك. السي عبد القادر، وإن كان كريما رحيما وقورا، فإنه فضولي

كعنق زرافة! لم أكن أريد أن يعرف عني أكثر من كوني طفل فقد أبويه في فترة متقاربة جدا. كفاه أن يعرف أنني يتيم، بل لطيم.

لا أحد ممن يعرف تفاصيل حياتي يمكنه أن يعثر عليها. كل من يعرف عني كل شيء ماتوا عدا خالتي سعيدة، وأشك في أنها حية، وأشك في أنها تعرف عني كل شيء، وإن عرفت فهي حتما لن تخرج من بوعرك حتى يأذن الله، أو يأذن خالها الحاج عبد الرحمن!

خذوا هذه الأوراق، واقرؤوها، أو اعطوها لمن أردتم أن يقرأها، أو هبوها لبائعي عباد الشمس، أو ضعوها في قمامات أزبالكم، أو اهدوها لزوجاتكم ليوقدن بها أفرانهن الطينية.

خالد ولد أحمد، الطفل الصغير الذي لا يعرف شيئا.

حين تذكرته ومخطوطته، عن لي أن أعرج على الفيسبوك لأرى ما إن كان ثمة جديد. لم أكن أضع عزيزا ضمن من سينشر جديدا، خصوصا أن نشر الجزء الأول لم يمض عليه أسبوع بعد. أعلم جيدا المتاعب التي تسببها الترجمة، خصوصا حين يتعلق الأمر بترجمة شيء ما يشتمل على مفردات ومصطلحات غريبة، وقد سبق لأحد زملائي، الذين كانوا يقتسمون معي نفس الغرفة، أن اشتغل في بعض بحوثه الجامعية، حيث كان بصدد التحضير لكتابة أطروحته لنيل الدكتوراه على ترجمة بعض النصوص الطويلة من الفرنسية إلى العربية.

إلا أنني وجدت أن عزيزا قد أتى بالجديد، وذلك بنشر الجزء الثاني من المخطوطة، حسب ما سماه هو. وقد كتب قبل ذلك أنه عكف عكوفا على الترجمة دون كسل ولا ملل..



